http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب: سلسلة علو الهمة
المؤلف: محمد أحمد إسماعيل المقدم
مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية
http://www.islamweb.net
[الكتاب مرقم آليا، ورقم الجزء هو رقم الدرس - 18 درسا]

حرص الحفاظ والعلماء على لقيا المشايخ

وقد اجتهد كثير من الحفاظ في لقيا المشايخ والتلقي عنهم، حتى بلغ عدد شيوخ الإمام أبي سعد عبد الكريم السمعاني المروزي رحمه الله تعالى سبعة آلاف شيخ وأستاذ، ولكثرة البلدان التي رحل إليها في طلب العلم ألف معجم البلدان، ويقصد بها البلدان التي سمع فيها العلم، وصنف معجم شيوخه في عشرة مجلدات، أي أن قاموس أسماء شيوخه استغرق عشرة مجلدات.

وقال القاسم بن داود البغدادي: كتبت عن ستة آلاف شيخ.

وبلغ عدة شيوخ الإمام الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى ألفاً وثلاثمائة شيخ، ومن النساء بضعاً وثمانين امرأة.

ولما مات زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال ابن عباس رضي الله عنهما: يا هؤلاء! من سره أن يعلم كيف ذهاب العلم فهكذا ذهاب العلم.

يعني: أن ذهاب العلم لا يكون بأن يقبض الله سبحانه وتعالى العلم من صدور الرجال، وإنما بموت العلماء، كما جاء في الحديث الصحيح: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من قلوب الرجال، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رءوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا)، أو كما قال صلى الله عليه وسلم، فلما مات زيد بن ثابت رضي الله عنه قال ابن عباس للناس: يا هؤلاء! من سره أن يعلم كيف ذهاب العلم فهكذا ذهاب العلم، وايم الله لقد ذهب اليوم علم كثير، يموت الرجل الذي يعلم الشيء لا يعلمه غيره، فيذهب ما كان معه، ويشير إلى قبر زيد ويقول: لقد دفن اليوم علم كثير.

حرص العلماء على أوقاتهم

وقال يحيى بن القاسم: كان ابن سكينة عالماً عاملاً لا يضيع شيئاً من وقته، وكنا إذا دخلنا عليه يقول: لا تزيدوا على (سلام عليكم، مسألة) أي: لكثرة حرصه على المباحثة وتقرير الأحكام كان يقول لتلامذته ولإخوانه ومن أراد أن يأتي يستفيته: لا تزيدوا على هذه الكلمات: (سلام عليكم، مسألة) أي: ويدخل في الموضوع.

أما الآن فنعجب مما يحصل من بعض الإخوة، حيث نسمع أحياناً في أشرطة مسجلة حوارات مع العلماء ومع الشيوخ: كيف الحال؟! وكيف الأولاد؟! وكيف الصحة؟! وسمعنا كذا.

ويظل السائل يقدم مقدمات طويلة، وفي الآخر يجود بأن يسأل سؤاله، فأمثال هؤلاء العلماء وقتهم ليس ملكاً لنا، ولا ملكاً لأنفسهم، إنما هو ملك الدعوة وملك العلم والوظائف الشريفة، فأحب شيء إلى مثل هؤلاء -بلا شك- أنك تختصر مثل هذا الاختصار، ويمكن أن تزيد: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وإن كان هذا الإمام يطلب أن يقال: (السلام عليكم) فقط لأجل حرصه على الاختصار في الكلام بقدر المستطاع.

والمجتمع الذي يصل إلى هذا المستوى في استيعاب قيمة الوقت وعدم إهدار الوقت هو الأقرب للكتاب والسنة، ولهدي السلف الصالح رحمهم الله تعالى، أما هذه الزيارات العشوائية التي يعملها الناس فلا، والمشكلة أننا نتصور أن الذي ينبغي هو إطالة

الزيارة، وهذا غير صحيح، فكما يحدد موعدٌ في بدء الزيارة لابد من أن يحدد موعد لانتهائها.

أما أن يزور امرؤ أخاه في الساعة التاسعة مساء -مثلاً- ويفارقه في الساعة الثانية عشرة أو الواحدة فهذا لا ينبغي، فإن كان الكلام يقضى في أربع جمل فلا تقل خمساً، ولا تزد.

فالمفروض هو أن يحصل نوع من التعاون؛ لأن هذا يكشف قيمة الوقت عندنا، فالوقت هو رأس مالك، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ) فالفراغ هو الزمن والوقت، وأكثر الناس يضيعون أوقاتهم، فلابد من التعاون حتى نرقى إلى ذلك المستوى الراقي الذي بلغه السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

إهدار أوقات الآخرين ومضاره

بلغني منذ مدة عن أحد الإخوة أنه كان يحدث أخاً له فيقول له: إن السنة أنك إذا أتيت فاستأذن ثلاث مرات، فإن لم يؤذن لك فارجع.

فقال: والله لو عملتها معي فلن أدخل بيتك أبداً! فأين الالتزام؟! وأين التحاكم إلى ما أنزل الله؟! وأين الذي ندعو الناس إليه؟! وأين الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى والرضا بحكم الله القائل: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:65]؟! فإذا كان الوقت ليس له عندك قيمة فراع أحوال الناس، فإذا كنت متأكداً من أنك ما ذهبت إلى فلان إلا لأن الوقت مناسب لك فهل أنت متأكد من أنه مناسب له هو؟! خاصة في هذا الزمان، فأنت ترى كيف أن الناس الآن مشغولون، خاصة الذي يريد أن يلتزم بدينه ويؤدي واجباته في توازن ووسطية، فالإنسان يعيش في صراع في محاولة كسب الحلال، وفي طلب العلم، وفي تربية أولاده، وفي العبادة، وفي تلاوة القرآن، وفي الحفظ، وفي قضاء حاجات الناس، وفي كل هذه الأشياء، فهذا الوقت هو رأس المال الذي يتعامل به، وليس الأموال، بل عنده ما هو أكمل، وهو الوقت، فلابد للإنسان من أن يستوثق من أن وقت الشخص الذي يزوره مناسب لهذه الزيارة، ثم يحدد موعد لابتداء الزيارة وموعد لانتهائها؛ بحيث لا يأتي قبل الموعد ولا بعده، وإذا أتى يلتزم بهذا الموعد، أما هذه الأوضاع التي توجد بيننا فهي من أشد مظاهر عدم الفقه بقيمة الوقت، ونحن نسمع عن الكفار في بلاد الكفار الحرص على الوقت، وللأسف الشديد أنهم مشغولون بالدنيا وبتوافه الأمور، ومع ذلك عندهم تقديس الوقت وتعظيم الوقت شيء مهم، وهذا أقرب -بلا شك- إلى روح الإسلام مما عليه كثير من المسلمين المفرطين في هذا الأمر.

فهذا الأمر لولا أن الله سبحانه وتعالى يعلم أهميته لما أنزل سورة صدرها بقوله تبارك وتعالى: ((سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا))، وكل القرآن أنزل، لكن خص هذه السورة ليلفت أنظارنا إلى خطورة الأحكام التي نزلت في هذه السورة الكريمة، سورة النور، قال عز وجل: {سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النور:1]، فنزلت في هذه السورة آيات الاستئذان وآداب الاستئذان لخطورة هذه الطريق، أليس في القرآن الكريم قوله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا} [النور:27] إلى آخر الآيات المذكورة في ذلك؟! ففيها تفاصيل في منتهى الدقة والانضباط في المحافظة على الوقت، ومنها قوله عز وجل: {وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ} [النور:28]، والذي يقول هذا ليس هو فلان ولا علان، وإنما هو الله سبحانه وتعالى.

وإنه لمؤلم جداً، وفي غاية الأسف مخالفة هذه الآداب، والحقيقة أن الإنسان يتحسر لهذا الأمر، فأين السلفية؟! وأين احترام الكتاب والسنة؟! وأين الحكم بما أنزل الله في خاصة أنفسنا؟! إن بعض الناس ما زال حتى الآن يجهل أن الاستئذان إنما جعل عبارة عن كون الوقت مناسباً أم غير مناسب.

ولكن كثيراً من الإخوة -مع الأسف- يفهمون أن معنى الاستئذان هو كون الشخص الذي يريد أن يزوره موجوداً أو غير موجود، وهذا ليس من الإسلام في شيء، فالإسلام حكم

الله سبحانه وتعالى، والاستئذان معناه كون الوقت مناسباً أم لا، وليس معناه أن المرء موجود أو غير موجود.

وكنت في مرة من المرات مشغولاً ببعض الأشياء، فأتى إلى أحد الإخوة في وقت غير مناسب على الإطلاق؛ لأنه كان قبل الدرس بساعة أو ساعتين، وكنت مشغولاً بإعداد الدرس، فما فتحت الباب؛ لأن هذا حق شرعاً، فوجدت أن الأخ وجد في نفسه موجدة شديدة، وكتب ورقة كلها حسرة وألم، يقول: لقد سمعت صوتك في الداخل وأنت تقرأ القرآن، ومع ذلك لم تفتح لي! وهذا عدم فقه بهذا الحكم الذي لا يوجد أحد مستغنٍ عن أن يبقى هذا الحكم وينفذه ويحترمه، فكل واحد منا له بيت، والله سبحانه وتعالى امتن علينا فقال: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا} [النحل:80]، فالإنسان بعد انتهاء عمله سيذهب إلى بيته، فربنا سبحانه وتعالى جعل حرمة للبيوت، خاصة في حق طالب العلم الذي وقته عنده غالٍ كنفسه وكروحه، فليس المقصود بالاستئذان أن الإنسان يسأل عن كونك موجوداً أم لا، لأنه ممكن أن أكون موجوداً وبصوتي أقول لك: ارجعوا هو أزكى لكم.

كما أمرنا الله سبحانه وتعالى؛ لأن البيوت أسرار، فما يدريك كيف أحوال أهل البيت؟! فقد تكون في البيت عورات، وقد يكون عند صاحب البيت مشكلة شخصية لا يحب أن يحضر أحد ويسمعها، ويمكن أن يكون الإنسان مشغولاً بمصلحة في دينه أو في تربية أولاده؛ لأنه إذا انشغل فقط بمشاكل الناس أو مشاغل الناس وترك حصنه من الداخل مخرباً فسوف يسأله الله عن ذلك، فمن الذي يعي المسئولية حتى يوجد هذا التوازن في الواجبات الكثيرة؟!

الجواب

هو صاحب البيت، فهو أدرى بحاله، وبأي شيء يضحى وبأي شيء لا يضحى، فهو الوحيد الذي يسأل أمام الله عن الموازنة بين واجباته، وأنا لا أقصد شخصاً معيناً، فإن هذا الغيرة موجودة عندنا، وأغلب الناس الآن ليس عندهم الفقه بهذه الحقيقة، فالاستئذان هو عن كون الوقت مناسباً أم لا، فإن قال لك صاحب البيت: ارجع -ولو بصوته- فلا تقل له شيئاً.

والحقيقة مريرة جداً في هذا الأمر، ولا أريد أن أخرج عن الموضوع، ولكن لكون المشكلة موجودة، وكثرت شكاوي الإخوة والأخوات في هذا الباب تعرضنا لها.

وقد حدث بعض إخواننا في الدعوة أنه هجم بعض الإخوة على بيته بالطرق الشديد على الباب في منتصف الليل أو بعد منتصف الليل، وكان طرقاً شديداً، مع أن الناس العاديين غير الملتزمين قد لا يقعون في مثل هذا، فالطرق الشديد على الباب يفزع أهل البيت، ويظنون الظنوناً، وهذا -بلا شك- أذى، وهذا تفزيع وترويع للمؤمن وللمسلم، فأين هذا من السلف الذين كانوا يطرقون أبواب الشيوخ بالأظافر؟! أين هذا من ذاك؟! وقد تجد إنساناً امتحان في الصباح، فيقول لضيوفه الذين أتوا إلى البيت في الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة: عندي امتحان في الصباح.

ومع ذلك لا يبالون بالساعة، ويوقعون الضرر بالأخ حتى يعيد سنة كاملة بسبب هذه الزيارة التي آذته وأثقلته وأرهقته وعطلته عن مصالحه! فهذه أمثلة من الإضرار، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (لا ضرر ولا ضرار).

وبعض الإخوة يكونون فتنة لآبائهم، فبعضهم يقول: أبي يقول لي: لا تصل في مساجد الإخوة.

أو: لا تخرج إلى المساجد.

فما هو السبب؟! إنك تشتكي من أبيك أنه يمنعك عن الصلاة في الجماعة وأنت الذي فتنته، فلو أنك عودته أنك إذا أذن المؤذن خرجت إلى الصلاة، ثم رجعت فوراً بعد الصلاة لأداء واجبك أو استذكار واجبك، أو لعمل أي شيء من واجباتك لما حصل هذا الوضع؛ لأنه يحصل للإخوة مؤتمرات بعد الصلاة، وهذا يوصل هذا، وهذا يذهب مع هذا بطريقة عشوائية، وكأن الوقت لا قيمة له، فلو أن أباك أو صاحب العمل الذي يتخذ معك هذا الموقف رأى منك أنك تخرج إلى الصلاة وتعود فوراً لما ضغط عليك هذا الضغط، ولما حاول أن يفتنك عن صلاة الجماعة، فنحن الذين نتسبب في فتنة الناس، فالذي يعمل عند رجل لو أنه صلى الفرض وعاد إلى المكان ثم صلى هناك النافلة -

مثلاً- لما حصل عليه ضغط بترك صلاة الجماعة، ولولا الصلاة لما ترك المرء بيته وذهب إلى المسجد، فلو أنه كلما خرج إلى الصلاة يمكث -مثلاً- نصف ساعة بعد الصلاة بسبب تعطيل أحد الأخوة له، حيث يكون عنده عمل معين، كذهاب إلى طبيب أو لشغل، أو كان عنده موعد من المواعيد المهمة التي يشق تأجيلها، فكل من صرفه عطله، فأي إضرار يكون أشد من هذا الإضرار؟! فلابد من أن تكون متأكداً في البداية من أن الوقت مناسب أم لا، أما أن الإنسان يخرج للصلاة، ثم يُعطل في كل صلاة، أو يعطل الإخوة المصلون بعضهم بعضاً فهذا نوع من الإضرار الذي ينبغي أن نتركه.

وصحيح أن كثيراً من النصائح تكون مؤلمة، ولكن لابد من المصارحة بكثير من هذه الأخطاء التي تظهر منا.

والذي دفعنا إلى هذا الاستطراد هو قول هذا الإمام الجليل ابن سكينة الذي كان لا يضيع شيئاً من وقته، يقول يحيى بن القاسم: كنا إذا دخلنا عليه يقول: لا تزيدوا على: (سلام عليكم، مسألة) لحرصه على الوقت.

أما أن تخاطب الشيخ الذي تسأله في التلفون قائلاً: كيف الحال؟! وكيف الأولاد؟! وتأتي بمقدمات طويلة ثم بعد ذلك تأتي بالسؤال فلا.

وبعض الإخوة يتصلون بي من وراء البحار، والأخ المتصل حينها الظاهر أنه يدفع مبالغ كبيرة في المكالمة، ومع هذا يضيع الوقت فيما لا فائدة فيه.

فكأن هذا الشيخ يقول: وقتي أغلى عندي من هذه الدولارات التي يدفعونها في المكالمات.

فلا تضيع الوقت في الأسئلة التي لا طائل من ورائها، وركز في سؤالك مكتفياً بقولك: ما حكم كذا.

أما كثرة الثرثرة بلا طائل فهي من إنفاق الوقت بما لا يعود على العبد بفائدة.

علو همة السلف في طلب العلم بمبادرتهم الزمن وحرصهم على استغلاله

من مظاهر علو همة السلف الصالح رحمهم الله تعالى في طلب العلم مبادرتهم الأزمان حرصاً على العلم، والحقيقة أن الإنسان قد يستحيي في مثل هذه المواضع من الناس، وهذا لا يسمى حياءً، بل هذا عجز مذموم؛ لأن هناك فرقاً بين العجز والحياء، فالحياء الذي يحبه الله هو الحياء الذي يأتي بخير، أما إذا أتى بشر فليس هو الذي يحبه الله، بل هو عجز ومهانة، فعلى الإنسان أن يكون جريئاً في المحافظة على وقته؛ لأنه لن ينجز علماً إذا لم يفرغ نفسه ووقته، فلو أن العلماء ينصحون طلبة العلم بنصائح في هذا لكان هذا أمراً جيداً، ومن ذلك النصيحة بقطع العلائق إلى أن يفرغ -مثلاً- من حفظ القرآن، فيقطع العلائق بينه وبين الناس، فالإنسان يزرع في قلبه كيفية علو الهمة، وأسباب الارتفاع والارتقاء بالهمة، ومن ذلك الاحتياط والغيرة الشديدة على الوقت أن يهدر، فما المانع من أن الإخوة إذا تزاوروا أتوا بخلاصة الموضوع الذي يريدون أن يتحدثوا فيه، ثم بعد ذلك يسمع بعضهم لبعض القرآن، أو يأتون بشيء من الذكر والعلم، كما قال بعض السلف: إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب.

وطوله زيادته عما أنت محتاج إليه، فادخل في الموضوع، واتق الله في وقتك ووقت أخيك، فإذا فرغت من الموضوع وما زال لديكما وقت فاقرأ قرآناً، أو ابحث مسألة علمية.

أما أن الإخوة يتحدثون عن مباريات كرة القدم، ويخوضون في أخبار السياسة، ويشرعون في ذكر أحوال الناس فعندئذٍ ما الفرق بيننا وبين الآخرين؟! وما الذي يتميز به الملتزم الآن؟! فهذا شعبة بن الحجاج جاء إلى خالد الحذاء فقال: يا أبا منازل! عندك حديث حدثني به.

-وكان خالد عليلاً، فقال له: أنا وجع -أي: مريض.

فقال: إنما هو واحد -أي: أنا أريد حديثاً واحداً- فحدثه به، فلما فرغ قال: مت إذا شئت.

وكان يحيى بن معين شديد الحرص على لقاء الشيوخ والسماع منهم خشية أن يفوتوه.

أي أنه يمكن أن يسافر الشيخ، أو يموت، أو يحصل له أي شيء يحول بينه وبينه.

قال عبد بن حميد: سألني يحيى بن معين عن هذا الحديث أول ما جلس إلي فقلت: حدثنا حماد بن سلمة.

فقال: لو كان من كتابك.
يعني: حتى تكون مدققاً ضابطاً أحضر الورق التي كتبت فيها الحديث أو الكتاب واقرأ منها الحديث، يقول الإمام عبد بن حميد: فقمت لأخرج كتابي فقبض على ثوبي، ثم قال لي: أمله علي؛ فإني أخاف أن لا ألقاك.
خشي أنه إذا خرج لإحضار الكتاب قد يموت في الطريق، فيفوته الحديث، فقال: أمله علي من حفظك، ثم بعد ذلك أخرج هذا الكتاب وأقرأه علي مرة ثانية من الكتاب.
قال: فأمليته عليه، ثم أخرجت كتابي فقرأته عليه.
وعن ابن إسحاق قال: سمحت مكحولاً يقول: طفت الأرض في طلب العلم.
وروى أبو وهب عن مكحول قال: أعتقت بمصر -أي أن مكحولاً كان عبداً- فلم أدع بها علماً إلا حويته فيما أرى، ثم أتيت العراق، ثم أتيت المدينة، فلم أدع بهما علماً إلا حويت عليه فيما أرى، ثم أتيت الشام فغربلتها.
أي: بعدما جمع كل هذه العلوم وهذه الأحاديث أتى الشام وغربل هذه الأحاديث، وبدأ يميز الصحيح من الضعيف، وهذا هو عين الفطنة، وهذا هو الذي حدا بكثير من علمائنا إلى التفريق بين مرحلة التقميش ومرحلة التفتيش فمرحلة التقميش أن يدون كل ما يستطيعه، فما دام الحديث بإسناد فإنه يدون؛ لأن الشيخ يمكن أن يسافر، أو يمرض، أو تختل ذاكراته، أو يختل حفظه، فتؤثر هذه في الرواية، فلذلك يبادر الفرصة بأن يدون ما يستطيع تدوينه عن المشايخ، ثم بعد ذلك إذا كان معه الحديث والإسناد فالأداة والوسيلة التي يمكن من خلال دراستها التحقق من صحة الحديث موجودة معه، وحينئذٍ يتفرغ بعد ذلك إلى التفتيش، وهذا هو سر وجود الأحاديث الضعيفة في المراجع، فلا نظن -نحن طلبة العلم المساكين- أن هؤلاء العلماء كانوا مقصرين، وأنهم لم يكونوا يعرفون الحديث الضعيف من الصحيح، وأنه توجد في كتب كثيرة من كتب الحديث المسندة، حتى في الترمذي وفي النسائي، فضلاً عن ابن ماجه أو غير ذلك من الكتب والمسانيد التي توجد فيها أحاديث تحتاج إلى تحقيق، فهل العلماء ما كانوا يعرفون تحقيق هذه الأحاديث في تلك الأعصار الذهبية لعلم الحديث؟!

الجواب

لا، بل كانوا يعرفون، ولكن كانوا يدونون؛ لأن هذا السند حتى لو كان ضعيفاً فإنه يمكن أن توجد له طرق أخرى مع كثرة التفتيش تقوي هذا السند، وهذا هو عين الفقه؛ لأن الواحد منهم يقيد العلم أولاً، ثم بعد ذلك يفتش وراء الأسانيد، ويجمع الطرق، فيرتقي الضعيف إلى الحسن لغيره، أو الصحيح لغيره، وهكذا، ثم إنه بهذا يكون قد اغتنم الفرصة ولم يفوتها، فالشيخ قد يسافر، وقد يرحل، وقد يموت، وقد يختل حفظه، أو هو نفسه قد يحصل له شيء، فلذلك كانوا أولاً يجمعون، ثم وظيفة التحقيق بعد ذلك تكون أسهل، لوجود الوسيلة إليها، وقد برئت عهدتهم من الأحاديث الضعيفة؛ لأنهم لم يكونوا في وقت في ليل ولا نهار إلا وهم في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتى إن الإمام النووي كان يقرأ في ذهابه في الطريق، وقال: إنه بقي على التحصيل على هذا الوجه ست سنين متصلة، وكان النووي -أيضاً- أول طلبه يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً، درسين في الوسيط، وثالثاً في المهذب، ودرساً في الجمع بين الصحيحين، وخامساً في صحيح مسلم، ودرساً في اللمع لـ ابن جني في النحو، ودرساً في اصلاح المنطق لـ ابن السكيت في اللغة، ودرساً في التصريف، ودرساً في أصول الفقه، تارة في اللمع لـ أبي إسحاق وتارة في المنتخب للفخر الرازي، ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في أصول الدين.
أي: التوحيد.
قال النووي: وكنت أعلق -أي: أكتب- جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل وإيضاح عبارة وضبط لغة، وبارك الله لي في وقتي واشتغالي وأعانني عليه.
وطالع الشيخ عبد الله بن محمد بن أبي بكر الحنبلي (المغني) للموفق ابن قدامة رحمه الله ثلاثاً وعشرين مرة، حتى كاد يستحضره.

ومن ذلك -أيضاً- علو همتهم في حفظ العلم الشريف، فقد قال أبو زرعة: كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث -يعني مليون حديث، والمراد بذلك الأسانيد والمتون- فقيل له: ما يدريك؟ قال: ذاكرته، وأخذت عليه الأبواب.

وقال سليمان بن شعبة: كتبوا عن أبي داود أربعين ألف حديث وليس معه كتاب. يعني: أملى على تلامذته أربعين ألف حديث بالإسناد والمتن، وليس معه كتاب ينظر فيه.

وقال أبو زرعة الرازي: أحفظ مائتي ألف حديث كما يحفظ الإنسان: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص:1]، وفي المذاكرة ثلاثمائة ألف حديث.

وقال هشام الكلبي: حفظت ما لم يحفظه أحد، ونسيت مالم ينسه أحد، كان لي عم يعاتبني على حفظ القرآن، فدخلت بيتاً وحلفت أن لا أخرج حتى أحفظ القرآن، فحفظته في ثلاثة أيام، ونظرت في المرآة فقبضت على لحيتي لآخذ ما دون القبضة فأخذت ما فوقها.

ولما قدم البخاري بغداد سمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا، وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا أسانيدها ومتونها، فجعلوا متن هذا الإسناد لهذا، وإسناد هذا المتن لهذا، ودفعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقيها على البخاري في المجلس، فاجتمع الناس، وانتدب أحدهم فسأله عن حديث فقال: لا أعرفه.

وسأله عن حديث آخر فقال: لا أعرفه.

حتى فرغ من عشرته، وكل حديث يتلوه على البخاري يقول له البخاري فيه: لا أعرفه.

والذين كانوا واقفين يقولون: من هذا البخاري الذي انخدع به الناس، فكل الأحاديث لا يعرفها ولا واحداً منها! فكأن كلما قال: لا أعرفه يقل في نظر العوام ويرتفع في نفس الوقت في عيون العلماء، فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض، ويقولون: الرجل فهم.

ومن كان لا يدري قضى على البخاري بالعجز، ثم انتدب آخر ففعل كما فعل الأول، والبخاري يقول: لا أعرفه.

ثم الثالث، إلى تمام عشرة أنفس، وهو لا يزيدهم على (لا أعرفه)، فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال: أما حديثك الأول فكذا، والثاني كذا، والثالث كذا، إلى عشرة أحاديث، بنفس الترتيب وبنفس الأخطاء، أي: تلا العشرة الأحاديث كما رواها، وقد خلطت الأسانيد وقلبت المتون، وبعدما فرغ من سردها أعادها مصححة، وأعاد الإسناد إلى متنه والمتن إلى إسناده، وهكذا، فرد كل متن إلى إسناده، وفعل بالتسعة الآخرين مثل ذلك، فأقر له الناس بالحفظ، فكان ابن صاعد إذا ذكره يقول: ذلك الكبش النطاح.

أي: يمدح الإمام البخاري بالكبش النطاح، يعني: الذي يغلب في المصاولة والمحاورة.

وقال ابن النجار: سمعت شيخنا عبد الوهاب بن الأمين يقول: كنت يوماً مع الحافظ أبي القاسم ابن عساكر وأبي سعد ابن السمعاني نمشي في طلب الحديث ولقاء الشيوخ، فلقينا شيخاً، فاستوقفه ابن السمعاني ليقرأ عليه شيئاً، وطاف على الجزء الذي هو سماعه في خريطته.

أي أنه لما وجد الشيخ قال: أتلو عليك هذه الأحاديث التي عندي عنك.

فقرأها عليه من حفظه كأنه يقرؤها من كتاب!

علو همة ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى

ويروي الخطيب البغدادي أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة.

فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه.

يعني: أن عنده من العلم في التفسير ما يملأ ثلاثين ألف ورقة، فلما وجد هؤلاء الطلبة أو هؤلاء الأصحاب غير نشطين اختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، فكم الفرق بين ثلاثة آلاف وثلاثين ألف ورقة؟! إنه عشرة أضعاف، وهو الآن يقع في ثلاثين مجلداً، ولو كان هؤلاء الطلاب أو الأصحاب أكثر همة لكان الثلاثون مجلداً ثلاثمائة مجلد! ثم حاول معهم مرة ثانية، فقال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟! أي: هل عندكم

همة أملي عليكم تاريخ العالم منذ إهباط آدم الأرض إلى يومنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحو ما ذكره في التفسير وقال: ثلاثون ألف ورقة.
فردوا مثل ذلك، فقال: إنا لله! ماتت الهمم.
ثم إنه جعله على نحو قدر التفسير، وهو تاريخ الطبري المعروف.
وألف الإمام البيهقي ألف جزء كلها محررة نادرة المثال، كثيرة الفوائد، وأقام يصوم ثلاثين سنة.
(12/10)

_____

علو همة الإمام أبي الوفاء بن عقيل الحنبلي رحمه الله

الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي البغدادي المتوفى سنة (513هـ) هو الذي يقول فيه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: إنه من أذكياء العالم.
بلغ في محافظته على الزمن مبلغاً أثمر أكبر كتاب عرف في الدنيا لعالم، وهو كتاب (الفنون) في ثمانمائة مجلد، وفيه اختلاف في عدد المجلدات، وبعضهم يجزم بأنه ثمانمائة مجلد، فتخيل عالماً يؤلف كتاباً في ثمانمائة مجلد! وهذا الكتاب جمع فيه التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه وأصول التوحيد والنحو واللغة والشعر والتاريخ والحكايات، وفيه مناظراته ومجالسه التي وقعت له، وخواطره ونتائج فكره.
يقول ابن الجوزي: وكان له الخاطر العاطر، والبحث عن الغوامض والدقائق، وجعل كتابه المسمى بالفنون مناطاً لخواطره، وواقعاً فيه، ومن تأمل فيه عرف غور الرجل.
وقال سبط ابن الجوزي: واختصر منه جدي -أي: ابن الجوزي - عشرة مجلدات، فرقها في تصانيفه، وقد طالعت منه في بغداد في وقت المأمونية نحواً من سبعين، وفيه حكايات ومناظرات وغرائب وعجائب وأشعار.
وقال الشيخ أبو حكيم النهرواني: وقفت على السفر الرابع بعد الثلاثمائة من كتاب الفنون.
وقال الحافظ الذهبي: وعلق كتاب الفنون، وهو أزيد من أربعمائة مجلد، حشد فيه كل ما كان يجري له مع الفضلاء والتلامذة، وما يسنح له من الدقائق والغوامض، وما يسمعه من العجائب والحوادث.
وقال الذهبي أيضاً: لم يصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب، حدثني من رأى منهم المجلد الفلاني بعد الأربعمائة.
وقال الحافظ ابن رجب: إن بعض مشايخه قال: هو ثمانمائة مجلد.
وصنف الحافظ ابن عساكر تاريخ دمشق في ثمانين مجلدة كبيرة.
وصنف الإمام أبو حاتم الرازي كتابه المسند في ألف جزء.
(12/11)

_____

علو همة الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى

والإمام ابن الجوزي هو تلميذ ابن عقيل، يقول سبطه أبو المظفر عنه: سمعته يقول على المنبر في آخر عمره: كتبت بأصبعي هاتين ألفي مجلد، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألف يهودي ونصراني= وهذا من التحدث بالنعم-، ولو قلت: إني قد طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعد في الطلب، فاستفدت من نظري فيها من ملاحظتي سير القوم وقدر هممهم وحفظهم وعبادتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت استزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب، ولله الحمد!
يعني أنه قرأ وهو يطلب العلم في مرحلة الطلب فقط عشرين ألف مجلد، ولو قلنا: إن المجلد ثلاثمائة صفحة لكان ما قرأه هو ستة ملايين صفحة، قرأها وهو في مرحلة طلب العلم رحمه الله تعالى.
فما مقدار ما كتب وما صنف الإمام ابن الجوزي؟! يقول الإمام ابن تيمية: كان الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي مفتياً كثير التصنيف والتأليف، وله مصنفات في أمور كثيرة، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك له ما لم أر.
ويقول الحافظ الذهبي: وما علمت أحداً من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل، ولم يدع ابن الجوزي فناً من الفنون إلا وصنف فيه، منها ما هو عشرون مجلداً، ومنها ما هو في رسالة صغيرة.

فكيف اجتمع له هذا كله؟

الجواب
لا يمكن أن يجتمع له هذا إلا إذا كان بجانب علو الهمة عنده محافظة على الوقت، ومحافظة على رأس المال الذي هو الوقت.
يقول الموفق عبد اللطيف: إنه كان لا يضيع من زمانه شيئاً.
ويقول ابن الجوزي وهو يحدث عن سياسته في عدم تضييع الوقت، وحماية الوقت ممن يعتدون عليه: لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة -أي أنه خدمة ومحبة لهذا العالم- ويطلبون الجلوس، وينزلون فيه أحاديث الناس وما لا يعنيهم، ويتخلله غيبة، وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوق إليه واستوحش من الوحدة، وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض.
فـ ابن الجوزي يحكي عن موضوع الزيارات في الأعياد، وينظر إلى أن هذه الزيارات تضييع للوقت، فالشخص له أن يهنئ إخوانه في العيد، أما كثرة الزيارة مع كثرة الإخوان والأحباب وكذا فلا تنبغي، ونحن الآن ضاعفنا أيام العيد، فعيد الفطر هو يوم واحد، وأما الآن فصار ثلاثة أيام، فمن أين صار عيد الفطر ثلاثة أيام؟! إنه لا بأس بأن يكون عيد الأضحى خمسة أيام: يوم عرفة ويوم الأضحى وأيام التشريق، لكن من أين أتينا لعيد الفطر بهذه الثلاثة أيام؟! وأين الدليل عليها؟! ليس إلا حب البطالة، وتضييع الوقت، والتهريج، والإجازات، فبين كل عيد وعيد إجازة، والناس مع ذلك تتأذى، فلماذا تضييع الوقت؟! وكأن الوقت ليس له قيمة، وللأسف الشديد أن الشعب الياباني في وقت من الأوقات عمل تظاهرات ضد الحكومة لأنها أعطتهم إجازات زائدة، فبسبب أنهم أعطوا إجازات عملوا تظاهرات، فانظر إلى عباد الدنيا من هؤلاء الوثنين الذين يعبدون الدنيا كيف يتظاهرون لأجل إلغاء الإجازات؛ لأنهم يستمتعون بالعمل وبالكدح في طلب الدنيا، فكيف تكون غيرة طالب العلم على وقته ممن لا يقدر هذا الوقت حق قدره؟! يقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان.
يقول: فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير كرهت ذلك، وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لمواضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء جهدي أي: يهرب بقدر المستطاع من اللقاء، كما حكى بعض العلماء عن السلف فقال: إن العلماء إذا علموا عملوا، فإذا عملوا شغلوا، فإذا شغلوا طلبوا، فإذا طلبوا هربوا، فمن ثمَّ يقول الإمام ابن الجوزي: فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غلبت قصرت في الكلام لأتعجل الفراق، ثم أعددت أعمالاً لا تمنع من المحادثة.
أي: ترك وظائف معينة لم يعملها في بيته، فإذا حصلت زيارة من هذه الزيارات التي تضيع الوقت في الكلام الذي لا يفيد فقد خصص هذا الوقت للأفعال التي تحتاج وقتاً ولا تحتاج إلى تركيز ذهني، فلذلك يقول: ثم أعددت أعمالاً لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم؛ لئلا يضيع الزمان فارغاً، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد -أي: تقطيع الأوراق- وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لابد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم؛ لئلا يضيع شيء من وقتي.

علو همة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله
وصنف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ما يربو على أربعمائة مصنف من كنوز العلم ودقائقه، قال ابن القيم: وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه وكلامه وإقدامه وكتابته أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر.

وقد كنت قرأت منذ مدة للشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله تعالى يحكي عن العناء الذي لقيه في نسخ مخطوطة كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى بخطه، فيقول: إن ابن تيمية ما كان يرفع قلمه عن الورق.
يعني أن الكلام كله متصل ببعضه، ولا ينقطع إلا في نهاية السطر؛ لحرصه على الوقت، أي أنه عندما يكتب لم يكن يترك مسافات بين الكلمات، أو يرفع يديه حتى يكتب الكلمة الجديدة، بل كان القلم يظل منحدراً كالسيل، والكلام وراء بعضه، ولا يتوقف إلا في نهاية السطر حتى يبدأ سطراً جديداً، فهذا ما رآه محب الدين الخطيب بعينيه من خط شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.
(12/13)

_____

علو همة الطبيب ابن النفيس رحمه الله

وعلى سنن من سبق مضى شيخ الطب في زمانه ابن النفيس رحمه الله، يقول عنه الإمام التاج السبكي: وأما الطب فلم يكن على وجه الأرض مثله، قيل: ولا جاء بعد ابن سيناء مثله.
قال: وكان في العلاج أعظم من ابن سيناء.
هذا الطبيب الرائد ابن النفيس صنف كتاباً في الطب سماه: (الشامل)، يقول فيه التاج السبكي: لو تم لكان ثلاثمائة مجلد، تم منه ثمانون مجلداً، وكان -فيما يذكر- يملي تصانيفه من ذهنه.
فكيف تم له ذلك؟ ومن أين له هذه المنزلة؟! لقد كان -رحمه الله تعالى- إذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مبرية، ويدير وجهه إلى الحائط، ويأخذ في التصنيف إملاءً من خاطره، ويكتب مثل السيل إذا انحدر، فإذا كل القلم وحفي فليس عنده وقت يبري القلم، وإنما يرمي القلم ويتناول غيره؛ لئلا يضيع زمانه في بري القلم.
(12/14)

_____

علو همة الإمام السيوطي رحمه الله

وكان السيوطي رحمه الله تعالى يلقب بابن الكتب، طلب أبوه إلى أمه أن تأتيه بكتاب من المكتبة، فذهبت أم الإمام السيوطي إلى المكتبة حتى تحضر الكتاب لأبيه، فأجاءها المخاض في المكتب، فولدته بين الكتب، فلذلك لقب بابن الكتب، ولقد طبق عليه ذلك اللقب حتى صار رحمه الله أبا الكتب، ووصلت مصنفات الإمام السيوطي نحو ستمائة، غير ما رجع عنه ومحاه من الكتب.
(12/15)

_____

عالي الهمة لا تعوقه العوائق

إن عالي الهمة لا يعوقه عائق عن مقصده وعن مأربه، قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه: وقد تعلم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في كبر سنهم.
وعنه عن ابن حماد قال: قيل لـ ابن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟! قال: حتى الممات إن شاء الله.
وعن ابن معاذ قال: سألت أبا عمرو بن العلاء: حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟! قال: مادام تحسن به الحياة.
ويحدث الإمام ابن عقيل عن همته وهو في عشر الثمانين من عمره فيقول رحمه الله: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين -أي: في العقد الثامن من عمره- أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين.
يقول الشاعر في هذا: ما شاب عزمي ولا حزمي ولا خلقي ولا ولائي ولا ديني ولا كرمي وإنما اعتاض رأسي غير صبغته والشيب في الرأس غير الشيب في الهمم يعني: كل القضية أنها تحولت صبغة رأسه من الأسود إلى الأبيض، لكن هل همته -أيضاً- شابت- واعتراها هذا الشيب؟!

الجواب
كلا، ولذا يقول: إذا كان شاب شعر رأسي ولحيتي فما شابت همتي.
وقال الحافظ الذهبي في ترجمة أبي الفرج بن الجوزي ما نصه: وقد قرأ وهو ابن ثمانين سنة بالعشر.
أي: كان الإمام ابن الجوزي له ثمانون سنة، ومع ذلك قرأ القراءات العشر، فقرأ القرآن الكريم بالقراءات العشر كلها على ابن الباقلاني، فتلا معه ولده يوسف، نقل ذلك ابن نقطة عن القاضي محمد بن أحمد بن الحسن.
وهذا الإمام ابن الجوزي هو الذي يقول في بعض الأشعار معبراً عن هذه الهمة العالية، وأنه كان يستزيد من الطلب ويدعو أن يزيد الله سبحانه وتعالى في عمره حتى يغتنم أقصى ما يستطيع في طلب العلم، يقول: الله أسأل أن يطول مدتي وأنال بالإنعام ما في نيتي لي همة في العلم ما من مثلها وهي التي جنت النحول هي التي كم كان لي من مجلس لو شبهت حالاته لتشبهت بالجنة وذهب الإمام القفال -وقيل له: القفال لأنه كان ماهراً في صناعة الأقفال- يطلب العلم وعمره أربعون سنة -أي: بدأ في طلب العلم وعمره أربعون سنة-، فقال لنفسه: كيف أطلب العلم؟! ومتى أحفظ؟! ومتى أفهم؟! ومتى أعلم الناس؟! فرجع، فمر بصاحب ساقية يسوق على البقر، وكان رشاء هذا الحبل يقطع الصخر من كثرة ما مر، أي أن الحبل الذي يدور به البقر على الساقية يحتك في أثناء دورانه بصخرة، فلطول الوقت أثر الحبل في الصخرة، حتى قطعها، فالحبل اللين أثر في الصخرة بالمثابرة والاستمرار والمداومة، فاتخذ من هذا عبرة ودرساً، فلما رأى الغشاء يقطع الصخر من كثرة ما مر قال: اطلب ولا تضجرن من مطلب فآفة الطالب أن يضجرا أما ترى الحبل بطول المدى في الصخرة الصماء قد أثرا أي: أليس الحبل مع المداومة قد أثر على الصخر الصلب؟ وليس هذا فحسب، بل الماء ألين من الحبل بلا شك، ومع ذلك فإن تساقط الماء قطرة قطرة على صخرة يحدث فيها أثراً بسبب المداومة والمثابرة.
واستمر الإمام القفال يطلب العلم، وصار إماماً من كبار الأئمة ومن جهابذة الدنيا.
ويروى أن الإمام أبا محمد ابن حزم رحمه الله تعالى طلب العلم وهو في السادسة والعشرين من عمره، قال أبو محمد بن العربي: وأقام أبو محمد في الوزارة من وقت بلوغه إلى انتهاء سنه ستاً وعشرين سنة، وقال: إنني بلغت إلى هذا السن ولا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات! وقال في رواية أخرى: أخبرني الشيخ الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه، فدخل المسجد قبل صلاة العصر والخلق فيه، فجلس ولم يركع، فقال له أستاذه المربي بإشارة: قم فصل تحية المسجد.
فلم يفهم، فقال له بعض المجاورين له: أبلغت هذا السن، ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة؟! وهي واجبة في الحقيقة عند أهل الظاهر، أما جمهور العلماء فيقولون: هي سنة.
وكان قد بلغ حينئذٍ ستة وعشرين عاماً، قال: فقمت وركعت، وفهمت إشارة الأستاذ لي بذلك، قال: فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد مشاركة للأحباء من أقرباء الميت دخلت المسجد -أي: بعدما انتهوا من الجنازة رجعوا إلى المسجد-، وكان الوقت بعد العصر، وحتى لا يتكرر الموقف المحرج مرة أخرى قال: وانصرفنا إلى المسجد مشاركة للأحباء من أقرباء الميت، ودخلت المسجد، فبادرت في الركوع، فقيل لي: اجلس اجلس؛ ليس هذا وقت وصلاة! فانصرفت عن الميت وقد خزيت، ولحقني ما هانت علي به نفسي، فقلت للأستاذ: دلني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبد الله بن دحون فدلني، فقصدته من ذلك المشهد، وأعلمته بما جرى، وسألته الابتداء بقراءة العلم، واسترشدته، فدلني على كتاب الموطأ لـ مالك بن أنس، فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالي لذلك اليوم، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام، وبدأت المناظرة.
وكان يحيى النحوي في أول أمره ملاحاً يعبر الناس في سفينته، وكان يحب العلم كثيراً، فلما قويت رويته في العلم فكر في أمره، وقال: لقد بلغت نيفاً وأربعين سنة من العمر، وما ارتضيت بشيء، وما عرفت غير صناعة الملاحة، فكيف يمكنني أن

أتعرض لشيء من العلوم؟ وفيما هو يفكر إذ رأى نملة قد حملت نواة تمرة، وهي دائبة تصعد بها.

وأظن أن النمل هو المخلوق الوحيد الذي يحمل أضعاف وزنه، ولكن لا أدري هل ذلك حقيقة علمية أم لا؟ فهو لما نشطت همته لطلب العلم وجد عمره قد جاوز الأربعين بعدة سنوات، وأثناء ما كان يفكر رأى نملة قد حملت نواة تمرة، وهي دائبة تصعد بها، فوقعت منها، فعادت وأخذتها، ولم تزل تجاهد مراراً حتى بلغت بالمجاهدة غرضها، فقال: إذا كان هذا الحيوان الضعيف قد بلغ غرضه بالمجاهدة والمراقبة فأولى بي أن أبلغ غرضي بالمجاهدة.

فخرج من وقته، وباع سفينته، ولزم دار العلم، وبدأ يتعلم النحو واللغة والمنطق، فبرع في هذه الأمور؛ لأنه أول ما ابتدأ بها، فنسب إليها، واشتهر بها فقيل: يحيى النحوي ووضع كتباً كثيرة، ويحيى هذا لقي عمرو بن العاص، وأعجب عمرو رضي الله تعالى عنه به.

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء الذي ملأ الأرض علماً وعظمة نفس في أول أمره فقيراً ولم يشتغل بطلب العلم إلا على كبر.

واشتغل الشيخ أحمد بن إبراهيم بن الحسن القنائي في العلم وهو ابن ثلاثين سنة، وتفقه، وقرأ النحو وغيره، حتى مهر، وأم الناس ببلده، وكان يحفظ أربعمائة سطر في يوم واحد، ثم أقبل على الطاعة، ولازم الطاعة حتى توفي سنة (728هـ)، وهذه السنة هي التي مات فيها شيخ الإسلام ابن تيمية.

وعُمِّر الشيخ يوسف بن رزق الله طويلاً حتى قارب التسعين، وثقل سمعه، لكن بقيت حواسه كلها سليمة، وهمته همة ابن ثلاثين، ومات وهو يباشر التوقيع، في صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة من الهجرة.

وطلب الشيخ أحمد بن عبد القادر القيسي الحنفي النحوي العلوم الكثيرة، وبرع فيها، فأقبل على طلب الحديث في آخر عمره، فتكلم بعض الناس عليه، أي أن بعض الناس سخروا منه، وقالوا: إن هذا الرجل الكبير يوشك على الموت، وبينه وبين القبر خطوات قليلة، فكيف يطلب العلم الآن؟! فأنكر عليهم بأبيات جميلة قال فيها: وعاب سماعي للأحاديث بعدما كبرت أناس هم إلى العيب أقرب وقالوا إمام في علوم كثيرة يروح ويغدو سامعاً يتطلب فقلت مجيباً عن مقالتهم وقد غدوت لجهل منهم أتعجب إذا استدرك الإنسان ما فات من علا بالحزم يعزى لا إلى الجهل ينسب وروى المعافى بن زكريا عن بعض الثقات أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقل منها، فذكر له دعاء من الأدعية عن جعفر بن محمد، فالإمام ابن جرير وهو يجود بروحه في آخر لحظات حياته رحمه الله تعالى استدعى محبرة وصحيفة، فكتب هذا الدعاء الذي سمعه من أحد العواد، فقيل له: أفي هذه الحال؟! أي: أنت الآن تموت، وتأتي بالورق وتكتب هذا الدعاء؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتى الممات، فكانت همته في طلب العلم قوية إلى آخر رمق في الحياة.

وعن فرقد إمام مسجد البصرة أنهم دخلوا على سفيان في مرض موته، فحدثه رجل بحديث فأعجبه، فضرب سفيان يده إلى تحت فراشه، فأخرج ألواحاً، فكتب هذا الحديث، فقالوا له: على هذه الحال منك؟! فقال: إنه حسن، إن بقيت فقد سمعت حسناً، وإن مت فقد كتبت حسناً.

وعن الفقيه أبي الحسن علي بن عيسى الولوالجي قال: دخلت على أبي الريحان البيروني وهو يجود بنفسه، قد حشرج نفسه، وضاق به صدره، وروحه بلغت إلى الحلقوم، فقال لي في تلك الحال: كيف قلت لي يوماً حساب الجدات الفاسدات؟! يعني: كيف ترث الجدة الفاسدة؟ وهي الجدة التي من قبل الأم؛ فإنها تسمى في اصطلاح علماء الفرائض بالجدة الفاسدة، فقال له: كيف قلت لي يوماً حساب الجدات الفاسدات؟ قال: فقلت له إشفاقاً عليه: أفي هذه الحالة وأنت تموت؟! فقال لي: يا هذا! أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة.

ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها؟! فأعدت ذلك عليه -أي: أعدت عليه المسألة- وحفظه، وعلمني ما وعدني أن يعلمني، وخرجت من عنده وأنا في الطريق فسمعت الصراخ.

يعني: البكاء؛ لأن روحه كانت قد خرجت، فرحمه الله تعالى.
وقال القاضي إبراهيم ابن الجراح الكوفي تلميذ الإمام أبي يوسف القاضي
(12/16)

_____

علو الهمة [13]
الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الدين، وهو أعظم ما ينبغي لعالي الهمة أن يحرص عليه، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ((وجاهدوا في الله حق جهاده))، وقال عليه الصلاة والسلام: ((جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم)).
وفي أخبار السلف ومن تبعهم ما يشحذ الهمم للجهاد في سبيل الله.
(13/1)

_____

علو همة السلف في الجهاد في سبيل الله
حديثنا -بإذن الله تعالى- سيكون عن أمرين هما من ميادين علو الهمة: الأول: علو همة السلف ومن اتبعهم من الخلف في الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى.
الثاني: علو الهمة في البحث عن الحق.
ثم بعد ذلك يأتي الكلام عن حال الأمة عند سقوط الهمة، ثم الكلام على أسباب الارتقاء بالهمة وأسباب انحطاط الهمة.
أما ما يتعلق بعلو الهمة في الجهاد سبيل الله تبارك وتعالى فنحن نعلم أن الرعيل الأول من صفوة المسلمين قد علموا حينما رباهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن في الجهاد فضلاً لا يضاهى، وخيراً لا يتناهى، فأيقنوا أن الجنة تحت ظلال السيوف، وأن الري العظيم في شرب كئوس الحتوف، فشمروا للجهاد عن ساق الاجتهاد، ونفروا إلى ذوي الكفر والعناد من شتى أصناف العباد، وجهزوا الجيوش والسرايا، وبذلوا في سبيل الله العطايا، وأقرضوا الأموال لمن يضاعفها ويزكيها، ودفعوا سلع النفوس من غير مماطلة لمشتريها، وضربوا الكافرين فوق الأعناق، واستعذبوا من المنية مر المذاق، وباعوا الحياة الفانية بالعيش الباق، ونشروا أعلام الإسلام في الآفاق.
فمن ثم كان في الإشارة إلى بعض مناقبهم وخبر بلائهم ما عساه يوقظ الهمم الرقد، وينهض العزم المقعد، ومن لم تروه الإشارة فكتب التراجم -خاصة تراجم الصحابة رضي الله تعالى عنهم والفاتحين- مبسوطة فيها أخبار هؤلاء العظماء.
(13/2)

_____

علو همة النبي عليه الصلاة والسلام في الجهاد
كان إمامهم الأوحد ورائدهم الأول في باب الجهاد -كما هو رائدهم في كل باب من أبواب الخير- خير من وطئ الحصى، رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:21].
ولا شك في أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان أعلى البشر همة على الإطلاق؛ لأنه حاز من الكمال البشري أعلى قمة في كل وصف من صفات الكمال البشري.
كان أشجع الناس، وأقواهم قلباً، وأثبتهم جناناً، وقد حضر المواقف الصعبة المشهورة، وفر الكماة والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح، صلى الله عليه وسلم.
وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة أو فترة، أما هو صلى الله عليه وسلم فلم يفر قط، وحاشاه من ذلك ثم حاشاه صلى الله عليه وآله وسلم، قال الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:4]، فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وكان أجود الناس وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لـ أبي طلحة عري، وفي عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا) يعني: يطمئنهم أنه بمجرد سماع هذا الصوت

كان أسبقهم إلى الخروج ليراه، ثم رجع وهم بعد لم يشرعوا في الخروج ليستكشفوا ويستطلعوا هذا الصوت.

وعلي رضي الله عنه من أشجع فرسان العرب على الإطلاق، يحكي شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحروب فيقول: (كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً) صلى الله عليه وسلم.

وقيل: كان الشجاع هو الذي يقرب منه صلى الله عليه وسلم إذا دنا العدو لقربه منه.

وقال عمران بن حصين رضي الله عنهما: ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب الأعداء.

(13/3)

_____

علو همة الخلفاء الراشدين في الجهاد

الشجعان في أمته صلى الله عليه وسلم والأبطال لا يحصون عدة، ولا يحاط بهم كثرة، لاسيما أصحابه المؤيدين، الممدوحين في التنزيل بقول الله تبارك وتعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح:29].

إن الصحابة رضي الله تعالى عنهم كلهم شجعان، فالشجاعة من الكمالات التي تحلى بها الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

فأشجع الصحابة -وكلهم رضي الله عنهم شجعان- أفضل البشر جميعاً بعد الأنبياء، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، هكذا شهد له علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أشجع الناس، وصدق رضي الله عنه، فقد كان أثبتهم قلباً وأقواهم جناناً، وحسبك من ذلك ثبات قلبه يوم بدر، ويوم أحد، ويوم الخندق، ويوم الحديبية، ويوم حنين، بل ثبات قلبه وتثبيته المسلمين عند الخطب الأعظم والأمر الأفخم بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلا يرتاب عاقل على الإطلاق في أن أشد مصيبة وقعت بالمسلمين على الإطلاق هي وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذه أشد قاصمة تعرض لها الإسلام، فإذا ما استحضرت أحداث هذا اليوم العصيب الذي هو أفظع مصيبة عاناها المسلمون -ولن يبتلوا أبداً بأشد منها- كما قال عليه الصلاة والسلام: (ليعزي المسلمين في مصائبهم المصيبة بي) يعني: إذا مات لأي مسلم بعد رسول الله عليه السلام أي إنسان مهما كان عزيزاً عليه فليتذكر موت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يعزي نفسه- فإذا راجعنا أحداث هذا اليوم عرفنا كيف ثبت أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثباتاً لا نظير له، حتى عمر الفاروق لم يثبت، بل حصل له ما حصل من الاهتزاز والزلزلة حينما بلغه نبأ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا شك في أن هذا من قوة إيمانه وثبات جنانه رضي الله تعالى عنه.

وكذلك عزمه في قتال من ارتد حينئذ، فتلك الشريعة التي تضاءلت لها فرسان الأمم، والهمة التي تنازلت لها أعالي الهمم.

ومنهم الفاروق ناصر الدين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، الذي بلغ من الشجاعة والهمة الكبرى أقصى الغايات وأعلى النهايات، والأخبار في قوته في الدين وشدته على المشركين كثيرة مشهورة، ولو أفضنا في الكلام على مواقف عمر رضي الله تعالى عنه وشجاعته لاستوعب ذلك وقتاً كثيراً جداً.

وهذا الليث الحفصاص، والغيث المدرار، ومفرق كتائب المشركين، والآتي من أنواع الشجاعة بما أوجب تحير المتحيرين، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، كان درعه صدراً لا ظهر له، فقيل له: ألا تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك؟! ينصحونه بأن يتخذ درعاً على ظهره، حتى إذا ما جاءه أحد الأعداء من قبل ظهره لا يتمكن أن يطعنه أو يصيبه، فقال علي رضي الله عنه: إن أمكنت عدوي من ظهري فلا أبقى الله عليه إن أبقى علي.

يعني أنه لا يمكن عدواً من أن يناله أبداً من ظهره، وفيه إشارة إلى أنه لا يفر أبداً ولا يولي الدبر؛ لأن العدو لن يقابل ظهره إلا إذا ولى الدبر.

وذكر ابن عبد البر في صفة علي رضي الله عنه أنه من شدة بأسه وشجاعته كان إذا أمسك بذراع رجل لم يستطع أن يتنفس.
أي: يتوقف الرجل عن التنفس من شدة الخوف والبأس وقوة قبضة علي رضي الله تعلى عنه.
وأخبار شجاعته وعلو همته رضي الله عنه كثيرة مشهورة.
(13/4)

_____

علو همة الصحابة في الجهاد في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام
لما استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم في القتال في غزوة بدر الكبرى قال له المقداد بن الأسود رضي الله عنه: (يا رسول الله! امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة:24]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معك مقاتلون).
وقال سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه في نفس الموقف: (فامض لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غداً، إننا صبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله).
وعن أنس رضي الله عنه قال: (انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، فجاء المشركون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه.
فدنا المشركون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض.
قال عمير بن الحمام: يا رسول الله! جنة عرضها السماوات والأرض؟! قال: نعم.
قال: بخ بخ -وهي كلمة تقال عند الرضا وعند الإعجاب والاستحسان للشيء-! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يحملك على قولك بخ بخ؟! قال: لا -والله- إلا رجاء أن أكون من أهلها.
قال: فإنك من أهلها.
فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: إن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طولية -أي: كيف ينتظر في الدنيا حتى يفرغ من أكل تمرة أو تمرتين أو ثلاث؟! - فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل) رضي الله تعالى عنه.
وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله! غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع.
فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون -أي: انهزموا - قال: اللهم! أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه-، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -يعني المشركين-.
ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ! الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها دون أحد - يحلف أنه يشم رائحة الجنة من جهة جبل أحد - قال سعد: فما استطعت -يا رسول الله- ما صنع.
قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه - أي: مثلوا بجثته ومزقوها، حتى تلاشت جميع ملامح بدنه، فلم يستطع أحد أن يميزه إلا أخته بطرف أصبعه، وعرفت أن هذه هي جثة أنس بن النضر رضي الله تعالى عنه-، قال أنس: كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه رضي الله تعالى عنه وفي أشباهه: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب:23]).
أما في سرية مؤته فقد روي أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أخذ اللواء بيمينه فقطعت يمينه، فأخذها بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه بعدما قطعت الذراعان، حتى قتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء.

ويقال: إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربه فقطعه نصفين، فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية، فتقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد.

أي: حصل عنده شيء من التردد في منازلة الأعداء، ثم جزم بعد ذلك وهتف بهذه الأبيات: أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزلنه أو لتكرهنه إن أجلد الناس وشدو الرنة مالي أراك تكرهين الجنة إلى أن قال: يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت وما تمنيتي فقد أعطيتي إن تفعلي فعلهما هديت وإن تأخرت فقد شقيتي وقوله: (إن تفعلي فعلهما) يعني فعل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما.

ثم نزل، فأتاه ابن عم له بعرق لحم فقال: شد بهذا صلبك؛ فإنك قد لقيت يومك هذا ما لقيت.

فأخذه من يده فانتهش منه نهشة، ثم سمع الحطمة في ناحية الناس -أي: سمع صوت القتال في ناحية الناس- فقال: وأنت في الدنيا؟! -يعني: الناس يجاهدون وأنت تأكل هذا اللحم؟! - فألقاه من يديه، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله تعالى عنه.

وعن شداد بن الهاد رضي الله تعالى عنه: (أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك.

فأوصى به النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه، فلما كانت غداة غنم النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فقسم فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي صلى الله عليه وسلم - أي: هذا نصيبك وحظك من الغنيمة- فأخذه، فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما هذا؟! قال: قسمته لك.

قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا -وأشار إلى حلقه- بسهم فأموت فأدخل الجنة.

فقال: إن تصدق الله يصدقك.

فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به النبي صلى الله عليه وسلم يحمل قد أصابه سهم حيث أشار - أي: في حلقه - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أهو هو؟! فقالوا: نعم.

قال: صدق الله فصدقه.

ثم كفنه النبي صلى الله عليه وسلم في جبته، ثم قدمه فصلى عليه، فكان مما ظهر من صلاته - يعني: من الدعاء- اللهم! هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً، أنا شهيد على ذلك)، وهذا الحديث صحيح، رواه النسائي.

(13/5)

علو همة الصحابة في جهاد المرتدين بعد وفاة رسول الله

عن جعفر بن عبد الله بن أسلم قال: لما كان يوم اليمامة واصطف الناس كان أول من جرح أبو عقيل، رمي بسهم فوقع بين من منكبيه وفؤاده في غير مقتل، فأخرج السهم، ووهن له شقه الأيسر في أول النهار، وجر إلى الرحل، فلما حمي القتال يوم اليمامة وانهزم المسلمون وولوا رحالهم سمع معد بن عدي يصيح: يا للأنصار! الله الله، والكرة على عدوكم.

فقال: عبد الله بن عمر: فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد؟! ما فيك قتال - يعني: أنت لا تستطيع القتال! - قال: قد نوه المنادي باسمي-! إذ هو من الأنصار، فلما سمع كلمة: (يا للأنصار) قال: المنادي يناديني باسمي -.

فقال ابن عمر: فقلت له: إنما يقول: يا للأنصار.

ولا يعني الجرحى! قال أبو عقيل: أنا من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبواً.

قال ابن عمر: فتحزم أبو عقيل وأخذ السيف بيده اليمنى، ثم جعل ينادي: يا للأنصار! كرة كيوم حنين، فاجتمعوا رحمكم الله جميعاً، تقدموا فالمسلمون دريئة دون عدوهم.

حتى أقحموا عدوهم الحديقة فاختلطوا واختلطت السيوف بيننا وبينهم، قال ابن عمر: فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب، فوقعت إلى الأرض، وبه من الجراح أربعة عشر جرحاً كلها قد خلصت إلى مقتل، وقتل عدو الله مسيلمة، قال ابن عمر: فوقفت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق، فقلت: يا أبا عقيل.

فقال: (لبيك) بلسان ملتاث -يعني: بلسان منكسر، فقد كان ضعيف الكلام لأنه تفيض روحه-، ثم قال: لمن الدبرة؟! يعني: لمن النصر أو على من الهزيمة؟ يريد أن يطمئن على نتيجة القتال، قال: قلت: أبشر قد قتل عدو الله.
فرفع أصبعه إلى السماء يحمد الله، ومات يرحمه الله.
ومنهم البراء بن مالك أخو أنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما، فعن ابن سيرين رحمه الله أن المسلمين انتهوا إلى حائط فيه رجال من المشركين، فقعد البراء على ترس وقال: ارفعوني برماحكم فألقوني إليهم.
فألقوه وراء الحائط، قال: فأدركوه وقد قتل منهم عشرة -يعني: دخل على جيش الأعداء داخل الحديقة وقتل منهم عشرة- وجرح البراء يومئذ بضعاً وثمانين جراحة ما بين رمية وضربة، فأقام عليه خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه شهراً حتى برئ من جراحته رضي الله تعالى عنه.
وعن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري قال: لما انكشف المسلمون يوم اليمامة قال سالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.
أي: ما أعجبه قتال أصحابه في ذلك اليوم، فماذا فعل؟! فحفر لنفسه حفرة ودخل فيها، ومعه راية المهاجرين يومئذ، فقاتل حتى قتل يوم اليمامة شهيداً سنة اثنتي عشرة.
وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مررت يوم اليمامة بـ ثابت بن قيس بن شماس وهو يتحنط.
يعني: يضع الحنوط الذي هو نوع من الطيب مخصوص للموتى، وكان السلف يفعلون ذلك إذا خرجوا للجهاد من باب حث النفوس على الموت وتصميم العزم على نيل الشهادة في سبيل الله تبارك وتعالى.
قال أنس: فقلت: يا عم! ألا ترى ما يلقى المسلمون وأنت هاهنا؟! يعني: المسلمون في الجهاد والقتال شديد وأنت هنا تتحنط بهذا الطيب؟! قال: فتبسم، ثم قال: الآن يا ابن أخي.
فلبس سلاحه وركب فرسه حتى أتى الصف، فقال: أف لهؤلاء وما يصنعون.
وقال للعدو: أف لهؤلاء وما يعبدون، خلوا عن سبيله -يعني: افسحوا الطريق عن الفرس- حتى أصلى بحرها.
فحمل فقاتل حتى قتل رضي الله تعالى عنه.
وعن عبد الله بن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف) فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى! أأنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا؟! قال: نعم.
قال: فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام.
ثم كسر جفن سيفه -أي: الغمد- ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل رضي الله تعالى عنه.

علو همة خالد بن الوليد في الجهاد

وهذا سيف الله تعالى وفارس الإسلام وليث المشاهد قائد المجاهدين أبو سليمان خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه وأرضاه لما حضرته الوفاة قال: لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وهأنا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.
يعني: وما قتلت مع ذلك.
فيدعو على الجبناء الذين يجبنون عن الجهاد خوفاً من الموت بأن لا يناموا، وأن يزيد الله من فزعهم من الموت.
وروى عاصم بن بهدلة عن أبي وائل قال: لما حضرت خالداً الوفاة قال: لقد طلبت القتل مظانه، فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بتها وأنا متترس، والسماء تهلني، ننتظر الصبح حتى نغير على الكفار.

ثم قال: إذا مت فانظروا إلى سلاحي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل الله.
فلما توفي خرج عمر على جنازته، فذكر قوله: ما على آل الوليد أن يسفحن على خالد من دموعهن ما لم يكن نقعاً أو لقلقة.

فهذه الأمة حينما بنيت هذا البناء المتين الذي طبق مشارق الأرض ومغاربها، والذي يستعصي على الاقتلاع حتى اليوم إنما هو أثر من آثار وبركة من بركات جهاد الصحابة الأوائل رضي الله تعالى عنهم، فكل ما نحن فيه من نعمة الإسلام في آفاق الأرض إنما هو بسبب جهاد الصحابة، فالصحابة لو قطنوا في جزيرة العرب، ولو اعتزلوا وناموا لما انتشر الإسلام، ولما وصلتنا هذه النعمة العظيمة التي هي أجل النعم على الإطلاق في هذا الوجود، أي: نعمة الإسلام.

فتباً لهؤلاء الذين يريدون أن يطفئوا النور الذي أضاء الصحابة به ربوع الأرض كلها، من أعداء الله من العلمانيين الملحدين، وأعداء الدين الذين كل جهدهم الآن أن يطفئوا نور الله، وأن يمحوا ويقتلعوا ويجففوا منابع الإسلام، جفف الله الدم في عروقهم أجمعين.

فانظر إلى هذه الشجاعة، إنها شيء لا يكاد يتصور ولا يتخيل من قائد عسكري هو أعظم قواد الإسلام على الإطلاق، فماذا فعل خالد في إحدى المعارك؟ لقد بلغ من شجاعة خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه أن جيش الأعداء كان واقفاً يصطف في الصفوف، ويقف قائد الفرس لينظم صفوفهم، وإذا بـ خالد ينطلق كالبرق ليحتضن القائد ويخطفه، ويعود به من وسط جيوشه إلى جيش المسلمين أسيراً! شيء لا يكاد يتخيله إنسان، فهل هناك قلب يكون عنده مثل هذه الشجاعة وهذه السرعة وهذا الإنجاز؟! انطلق إليه بدون حراسة معه، وبدون قوات معه، ولا شك في أن هذا أثار ذهول الأعداء، وما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً أمام هذه الشجاعة النادرة، فرضي الله تعالى عن خالد وعن سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

علو همة الصحابة في جهاد الروم

روي عن عبد الله بن حذافة رضي الله تعالى عنه أنه أسرته الروم، فحبسه طاغية في بيت، ووضع له في هذا البيت ماءاً ممزوجاً بخمر ولحم خنزير مشوي؛ ليأكل الخنزير ويشرب الخمر، وتركه ثلاثة أيام، فلا هو شرب الماء؛ لأن فيه خمراً، ولا أكل لحم الخنزير المشوي مع جوعه، ثم أخرجوه حين خافوا من موته من الجوع، فقال: والله لقد كان أحله الله لي؛ لأني مضطر، ولكن لم أكن لأشمتكم بدين الإسلام.

وعبد الله بن حذافة السهمي صحابي توفي بمصر ودفن بمقبرتها في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وله قصة مشهورة حكاها أبو رافع قال: وجه عمر جيشاً إلى الروم، فأسروا عبد الله بن حذافة، فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا: إن هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

فقال: هل لك أن تتنصر وأعطيك نصف ملكي؟! وفي بعض الروايات أنه عرض عليه أن يزوجه ابنته أيضاً.

فقال: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملك العرب ما رجعت عن دين محمد طرفة عين.

قال: إذن أقتلك.

قال: أنت وذاك، فأمر به فصلب، وقال للرماة: ارموه قريباً من بدنه.

وأراد إرهابه فقط، وهو يعرض عليه أثناء ذلك النصرانية ويأبى، فأنزله ودعا بقدر فصب فيه ماء يغلي، ودعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما فألقي في القدر وهو يعرض عليه النصرانية يأبى، ثم بكى، فقيل للملك: إنه بكى لما رأى الأسير الذي أدخلوه في ذاك الإناء الذي يغلي فخرج وهو عظام تلوح قد ذاب لحمه وشحمه في هذا الماء المغلي.

فظن أنه قد جزع وخاف، فقال: ردوه.

ثم سأله: ما أبكاك؟ قال: قلت: هي نفس واحدة، تلقى الساعة فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون بعدد شعري أنفس تلقى في النار في الله.

فقال له الطاغية: هل لك أن تقبل رأسي وأخلي عنك؟ فقال له عبد الله: عن جميع الأسارى؟ قال: نعم.

فقبل رأسه.

وعدو الله أراد أن يقبل رأسه ليرضي غروره، فحينما وازن الأمرين وجد أن إنقاذ إخوانه المسلمين أهم، وما قبل أن يفرج عنه وحده، وأقبل بالأسارى على عمر رضي الله عنه فأخبره خبره، فقال عمر رضي الله عنه: حق على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة، وأنا أبدأ، فقبل المسلمون رأسه رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

يقول الشاعر: أجدر الناس بالكرامة عبد تلفت نفسه ليسلم دينه ولقد استوصى عابدٌ من العباد صاحباً له عمَّا يفعل من العبادات والطاعات فقال: هو بذل الروح، وإلا فلا تشتغل بالترهات.

يعني: أعظم ما تتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى بذل روحك، وما عدا ذلك فترهات، يقول الشاعر: الجود بالمال جود فيه مكرمة والجود بالنفس أقصى غاية الجود وعن العلاء بن سفيان الحضرمي قال: غزا بسر بن أبي أرطأة الروم، فجعلت ساقه لا تزال تصاب -والمراد ساقة الجيش- فيكمن لهم الكمين فيصاب الكمين فلما رأى ذلك تخلف في مائة من جيشه، فانفرد يوماً في بعض أودية الروم، فإذا براذين مربوطة -جمع برذون، والبرذون يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، وهو عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوي الأرجل، عظيم الحافر- فإذا براذين مربوطة نحو ثلاثين، والكنيسة إلى جانبهم -يعني: هؤلاء الفرسان هم الذين كانوا دائماً يصيبون ساقته في الكمائن- فنزل عن فرسه فربطه، وقد انفرد عن إخوانه المائة الذين كانوا معه، فلما رأى ثلاثين برذوناً عرف أن في الكنيسة ثلاثين فارساً، فدخل الكنيسة فأغلق عليه وعليهم بابها، فجعلت الروم تعجب من إغلاقه -أي: كيف تصل به الشجاعة إلى أن يغلق الباب عليهم أجمعين، مع أنه واحد- فما استقلوا إلى رماحهم حتى صرع منهم ثلاثة، وفقده أصحابه في ذلك الوقت، فطلبوه، فوجدوا الفرس الخاص به مربوطاً إلى جوار تلك البراذين، فعرفوه، وسمعوا الجلبة والأصوات من داخل الكنيسة، فأتوها فإذا بابها مغلق، فقلعوا بعض الخشب من السقف ونزلوا عليهم، وبسر ممسك طائفة من أمعائه بيده قد أصابه هؤلاء الفرسان، وقد قتل منهم ثلاثة وبقي سبعة وعشرون، وظل يقاتل سبعة وعشرين وهو وحده، فجرحوا منه بطنه فانزلقت أمعاؤه، فأخذ يقاتلهم وهو ممسك الأمعاء بيده حتى لا تسقط، ونزلوا عليهم وبسر ممسك طائفة من أمعائه بيده، والسيف بيده اليمنى، فلما تمكن أصحابه في الكنيسة سقط بسر مغشياً عليه، فأقبلوا على أولئك فأسروا وقتلوا، فأقبلت الأسارى فقالوا: ننشدكم الله، من هذا؟ قالوا: بسر بن أبي أرطأة.

فقالوا: والله ما ولدت النساء مثله.

فعمدوا إلى أمعائه فردوها إلى جوفه، ولم ينخرط منها شيء، ثم ربطوه بعمائمهم وحملوه، ثم خاطوه فسلم وعوفي رحمه الله تعالى.

علو همة الصحابة في جهاد الفرس

إن كبيري الهمم من المجاهدين يهوون رفع الثقيل من الأمور، وخوض المخاطر، واقتحام العقبات، فأولئك النخعيون الذين تسابقوا على الاستشهاد في معركة القادسية قال واحد منهم: أتينا القادسية، فقتل منا كثير من النخعيين ومن سائر الناس قليل، فسئل عمر رضي الله عنه عن ذلك فقالوا: إن النخع ولو أعظم الأمر وحدهم.

يعني: هم الذين تجردوا للجهاد في هذه الوقعة.

ورفع الله سبحانه وتعالى الحرج عن المعذورين، فقال عز من قائل: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة:91]، وقال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ} [النور:61]، فعذر الحق سبحانه وتعالى أصحاب الأعذار، لكن ما صبرت القلوب، فالأبدان معذورة لكن القلوب لا تصبر ولا تتعاطى الرخصة، فخرج ابن أم مكتوم إلى أحد، وطلب أن يعطى اللواء، مع أنه أعمى، فأخذه مصعب بن عمير، فجاء رجل من الكفار فضرب يده التي فيها اللواء فقطعها، فأمسكه بيده الأخرى، فضرب اليد الأخرى، فأمسكه بصدره وقرأ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ

الرُّسُلُ} [آل عمران:144] فهذه عزائم القوم، والحق يقول: {لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ} [النور:61]، وهو من هؤلاء المعذورين.

وعمرو بن الجموح من كبار الأنصار كان أعرج، وكان في أول الجيش، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله قد عذرك) فقال: والله إني لأرجو أن استشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة.

وكر الفرس كرة على غرة، فرجع المسلمون متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة؛ لأنه يجوز الفرار إذا كان لأجل الكر والفر أثناء القتال، فيفر المجاهد من أمام العدو حتى يأتيهم من جهة أخرى، أو يعود إلى كتيبة المسلمين يتزود منها ثم يعود، فالمسلمون لما بوغتوا وفوجئوا بهذه الحملة من الكفار رجعوا حتى يرتبوا أنفسهم ويعودوا للقتال، فطاردهم هؤلاء المشركون الفرس، فلم يستطيعوا أن يأسروا منهم أحداً إلا أضعف الناس سيراً وقت الانسحاب أو التقهقر، فاختطفوه أسيراً وعادوا به.

فتصور الآن أضعف واحد في الجيش الإسلامي كيف كان مفهوم الجهاد في سبيل الله في حسه، هذا هو الأضعف الذي لم يستطع الجري ومن ثم أسر، فانظر إلى مستوى الوعي والفهم لحقيقة رسالته في هذه الحياة.

قال له رستم قائد جيش الفرس: ما جاء بكم، وما تطلبون؟! فقال له هذا المسلم: جئنا نطلب موعود الله.

قال: وما موعود الله؟ قال: أرضكم وديياركم وأبناؤكم إن أبيتم أن تسلموا، ومن قتل منا أدخله الله الجنة، وأنجز لمن بقي منا وعده، فنحن على يقين.

قال: قد وضعنا إذاً في أيديكم! فقال له المسلم: ويحك يا رستم! إن أعمالكم وضعتكم، فأسلمكم الله بها، فلا يغرنك ما ترى من حولك؛ فإنك لست تحارب الإنس، وإنما تحارب قضاء الله وقدره، ونحن قضاء الله وقدره.

فهذا الرجل هو أضعف مجاهد في جيش المسلمين، فانظر إلى فهمه لغايته في الجهاد.

ولقد أوجز خالد بن الوليد وأبلغ حين وصف جنود الإسلام وهو يخاطب الفرس بقوله: قد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة.

فهذا وصف صادق باختصار شديد، وهذا ما يعرفه كل أعداء الإسلام في شتى الأعصار والأزمان.

علو همة التابعين في الجهاد

لقد كان التابعي الجليل أبو وائل شقيق بن سلمة الأزدي -رحمه الله- من نتاج تربية الأربعة الخلفاء الراشدين وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وغيرهم رضي الله تعالى عنهم.

عاف التجارات والبيوت لانشغاله بالجهاد، لم يكن له بيت يدخل فيه، ولم يكن يشتغل في تجارة، وما كان يعرف أي شيء عن هذه الأشياء، بنى له في الكوفة خصاً صغيراً يسعه هو وفرسه وسلاحه فقط، فمساحة الخص الذي اتخذه تسع جسده والفرس والسلاح فقط.

وبقي طول عمره متحفزاً للجهاد، يخرج للجهاد ويعود إلى هذا الحصن، حتى لم يعد يعرف موازين السوق التي يتعامل بها الناس؛ لأنه لم يمارس هذه الأشياء أبداً، وإنما عاش كل حياته من الجهاد وإلى الجهاد.

وكان إذا خلا ينشج -أي: يبكي بصوت وتوجع- من خشية الله سبحانه وتعالى، ولو جعلت له الدنيا على أن يفعل ذلك وأحد يراه لم يفعل، وكان له خص يكون فيه هو وفرسه، فإذا غزا نقضه، وإذا رجع بناه.

هكذا كانوا يمضون نحو غايتهم الكبرى لا يلتفتون إلى الوراء، ويقول أحدهم غير وجل ولا آسف: وأراني أسمو بسعيي ووعيي عن جزاء من معدن الأرض بخس حسب نفسي من الجزاء شعوري أنني في الإله أبذل نفسي يعني: يسمو ويتعالى عن أن يكون هدفه من الجهاد في سبيل الله عن جزاء من معدن الأرض بخس من ذهب أو فضة أو مال.

وقال ابن المبارك رحمه الله تعالى وهو الإمام المجاهد الكبير: بغض الحياة وخوف الله أخرجني وبيع نفس بما ليست له ثمناً إني وزنت الذي يبقى ليعدله ما ليس يبقى فلا

والله ما اتزنا وعن موسى بن أبي إسحاق الأنصاري أن علي بن أسد كان قد قتل وصنع أموراً عظاماً -أي: من الظلم والخطايا- فمر ليلة بالكوفة، فإذا برجل يقرأ من جوف الليل: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر:10]، فلما سمع الآية قال علي: أعد.

فأعاد، ثم قال: أعد.

فأعاد، ثم قال: أعد، فأعاد، فعمد فاغتسل، ثم غسل ثيابه فتعبد حتى عمشت عيناه من البكاء، وصارت ركبتاه كركبتي بعير، فغزا في البحر فلقي الروم، واقتربت مراكبهم من مراكب العدو، قال علي: لا أطلب الجنة بعد اليوم أبداً -يعني: هذه الفرصة لن أضيعها؛ لأني لا أعيش بعد اليوم، بل أطلب الشهادة الآن وهي توصلني إلى الجنة-.

فاقتحم بنفسه في سفائنهم، فمازال يضربهم وينحازون -أي: ينحازون كلهم إلى جانب واحد- حتى مالوا في شق واحد فانكفأت بهم السفينة فغرق وعليه درع حديد رحمه الله تعالى.

ويروى أن عقبة بن نافع وقف على شاطئ المحيط الأطلسي وخاض في مياهه بفرسه قائلاً: والله -أيها البحر- لو أعلم أن وراءك أرضاً لخضتك وفتحتها بإذن الله.

فانظر إلى الهمة في بلوغ غاية الإمكان؛ لأن هذا أقصى ما استطاع أن يصل إليه، فلكي يمعن في التعبير عن هذا الإصرار خاض في البحر خطوات، وكان لا يعرف أن هناك أرضاً وراء هذا البحر.

(13/10)

_____

علو همة السلاجقة في الجهاد

في عام (463) من الهجرة سار ملك الروم أرمنوس إلى بلاد المسلمين بمائتي ألف مقاتل على أقل تقدير للمؤرخين، كان هذا الجيش كثيفاً يضم أخلاطاً من الروم والفرنجة والروس والصرب والأرمن والبوشناق، واتخذ طريقه إلى العراق، وقبل أن ينطلق من أوروبا أقطع بطارقته الأرض حتى بغداد، فالأرض من المكان الذي هو فيه إلى بغداد قسمها كلها على البطارقة، فكان يقول لكل منهم: أنت ستملك كذا، وأنت ستحكم كذا.

ونحو ذلك، فجعلها إقطاعات لهم كأنه ضامن أنه سيستولي على هذه الأرض كلها.

فأقطع بطارقته الأرض حتى بغداد، وعين له نائباً على بغداد قبل أن يسير، واستوصى نائبه بالخليفة خيراً.

وقد عزم أرمنوس أن يبيد الإسلام وأهله، وإذا انتهى من العراق وخراسان مال على الشام ميلة واحدة فأباد المسلمين فيها أيضاً.

خرج أرمنوس من القسطنطينية متجهاً نحو الشرق، فوصل إلى ملاذكرت في شرقي تركيا اليوم على مقربة من بحيرة (وان)، وأتى الخبر إلى ألب أرسلان السلطان السلجوقي وهو في أذربيجان وقد عاد من حلب، فلم يتمكن من جمع الجند لبعده عن مقر حكمه، ولقرب العدو منه، فسار بمن معه وهم خمسة عشر ألفاً.

أي أن خمسة عشر ألفاً يواجهون مائتي ألف.

وسار متوكلاً على الله سبحانه وتعالى للقاء هذا العدو، وقال: إنني أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمت فنعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإن ابني ملك شاه ولي عهدي.

وجد في السير وأرسل مقدمته أمامه، فالتقت عند مدينة خلاط بمقدمة الروم، وكان عددهم عشرة آلاف، فهزم الروم بإذن الله وأسر قائدهم.

واقترب الجمعان بعضهما من بعض، وأرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه الهدنة، فقد خافه لكثرة من معه؛ إذ يفوق جند ملك الروم جند المسلمين بخمسة عشر ضعفاً، غير أن ملك الروم قد أخذته العزة بالإثم فقال: لا هدنة إلا في الري.

ومدينة الري هي طهران، ولم يدر أنه يقدم قومه إلى الهاوية، فتأثر السلطان من هذا الرد المتغطرس، فاستشار إمام جنده أبا نصر محمد بن عبد الملك البخاري، فأجابه: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله

تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر؛ فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة.
وكان يومها يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة، وجاء يوم الجمعة، وحان وقت الزوال، فصلى أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بالناس، فبكى السلطان وبكى الناس لبكائه ودعوا معه بعد الصلاة، وقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف، فما هاهنا سلطان يأمر وينهى، وإنما الجهاد والرغبة في لقاء الله.
ثم ألقى القوس وأخذ السيف، ولبس البياض وتحنط، وقال: إن قتلت فهذا كفني.
وزحف إلى الروم، وزحفوا إليه، فلما اقترب منهم ترجل -أي: نزل عن الفرس- ومرغ وجهه في التراب وبكى، وأكثر من الدعاء وطلب النصر من الله سبحانه وتعالى.
ثم ركب وحمل على الروم، وحمل المسلمون حتى وصلوا إلى وسط الروم، وحجز الغبار بينهم، وما هي إلا جولة حتى أنزل الله نصره، وهزمت الروم، ومنحوا المسلمين أجسادهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً حتى امتلأت الأرض بالجثث، وقدر عدد القتلى بمائة وخمسين ألفاً، أي أن كل مسلم قد قتل عشرة من الروم، ووقع ملك الروم أرمنوس وبطارقته جميعاً أسرى بأيدي المسلمين، وحمل أرمنوس إلى السلطان ألب أرسلان، فلما وقف بين يديه ضربه على رأسه بالعصا ثلاث مرات، وقال: لو كنت أنا الأسير بين يديك ما كنت تفعل؟ قال: كل قبيح قال: فما ظنك بي؟! قال: إما أن تقتل بعد أن تشهر بي في بلادك، وإما أن تعفو وتأخذ الفداء وتعيدني.
قال: ما عزمت على غير العفو والفداء، فافتدى نفسه بمليون ونصف من الدنانير، فقام بين يدي السلطان، وسقاه شربة من ماء، وقبل الأرض بين يديه، وقد ترك له السلطان عشرة آلاف دينار ليتجهز بها، وأطلق معه جماعة من البطارقة الأسرى.
(13/11)

_____

علو همة يعقوب المراكشي في الجهاد

من علو همة السلطان المنصور أبي يوسف يعقوب بن السلطان يوسف بن السلطان عبد المؤمن بن علي المغربي المراكشي الظاهري أنه كتب إليه الأذفونش يهدده، -والأذفونش هو القائد من الكفار في الأندلس- فكتب إليه الأذفونش يهدده ويعنفه، ويطلب منه بعض البلاد، ويقول: ما لك تتباطأ، أنا أتخذ حداً للقتال وأنت تتباطأ، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فما أدري الجبن بطأ بك أو التكذيب بما وعد نبيك؟! يعني: لو كنت تعتقد أن هناك جنة ثواباً، وأنك إذا قتلت ستدخل الجنة فما الذي يمنعك من أن تأتي حتى تقاتلني؟! فلما قرأ الكتاب تنمر وغضب ومزقه، وكتب على رقعة منه بعدما مزقه: {ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ} [النمل:37] الجواب ما ترى لا ما تسمع: ولا كُتْب إلا المشرفية عندنا ولا رسُل إلا الخميس العرمرم.
أي: الجيش.
ثم استنفر سائر الناس، وحشد وجمع، حتى احتوى ديوان جيشه على مائة ألف، ومن المطوعة مثلهم، وذهب إلى الأندلس، فتمت الملحمة الكبرى، ونزل النصر والظفر، فقيل: غنموا ستين ألف درع.
وقال ابن الأثير: قُتِل من العدو مائة ألف وستة ألفاً، ومن المسلمين عشرون ألفاً.
(13/12)

_____

علو همة صلاح الدين الأيوبي

إننا إذا أردنا أن نتكلم عن حال الأمة عند صدق الهمم لا نحتاج إلى الكلام؛ لأنه واقع نعيشه بكل مرارته، فيكفي أن القدس تضيع رسمياً بهذه الصورة، والناس ليس على بالهم على الإطلاق موضوع القدس التي ضاعت أو كادت بصورة مذلة ومهينة، حتى كأنه لم تعد تتحرك شعرة في بلاد المسلمين لهذه المصيبة ولهذه المذلة ولهذا الهوان.
فانظر إلى صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، يقول القاضي ابن شداد: كان رحمه الله عنده من أمر القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال، فهو كالوالدة الثكلى -أي: الأم التي مات ابنها- من الحزن على بيت المقدس، يجول بنفسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد، وينادي: يا للإسلام! وعيناه تذرفان الدموع.

ونظر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله إلى أمواج البحر الهادرة، ثم التفت إلى القاضي ابن شداد وقال: ألا أخبرك شيئاً في نفسي: إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد ووطيت ووسعت، وركبت هذا البحر إلى جزائله، وأتبعتهم - يعني: الصليبيين - فيها - يعني: في ديارهم في أوروبا - حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت.

فهذه هي همة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى.

وبعد وقعة حطين التي هزم فيها صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- هؤلاء الصليبيين هزيمة منكرة باع بعض الفقراء من المسلمين أسيراً بنعل، فقيل له في ذلك فقال: أردت هوانهم.

يعني أن الأسير الكافر يساوي عندي نعلاً.

ويمكن أن يأخذ فيه مالاً أكثر من ذلك إذا بيع عبداً، لكن قال: أردت هوانهم.

فتأمل ذلك المشهد المرير الذي حصل أثناء حرب الخليج، حيث وقف الجندي العراقي يقبل حذاء الجندي الأمريكي، والله أعلم بحقيقة هذا الأمر، في كونه تمثيلاً أو غير تمثيل، لكن يكفي هذا الأمر الأليم، حيث يقبل قدم الجندي الأمريكي، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وحكى بعضهم بعد حطين أنه لقي بحوران رجلاً واحداً ومعه صلب خيمة -أي: عمود خيمة- قد ربط فيه نيفاً وثلاثين أسيراً يجرهم وحده، فهو وحده أسر ثلاثين من الصليبيين يجرهم في هذه الخشبة وقد ربطهم بها للخذلان الذي وقع عليهم.

وقال عماد الكاتب في حصاد موقعة حطين: فمن شاهد القتلى يومئذ قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل.

يعني من كثرة أعداد الأسرى والقتلى.

علو همة السرماري في الجهاد

من منازل علو الهمة في الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى علو همة فارس الإسلام السرماري وهو الذي قال الإمام الذهبي رحمه الله تعالى في وصفه: الإمام الزاهد العابد المجاهد فارس الإسلام أبو إسحاق، يقول الذهبي: وكان أحد الثقاة، وبشجاعته يضرب المثل.

وقال أيضاً في موطن آخر: أخبار هذا الغازي تسر قلب المسلم.

وقال: قال إبراهيم بن عفان البزاز: كنت عند أبي عبد الله البخاري، فجرى ذكر أبي إسحاق السرماري فقال: ما نعلم في الإسلام مثله.

فخرجت فإذا أحمد رئيس المطوعة، فأخبرته بما قاله أبو عبد الله البخاري في السرماري، فلما سمع أحمد بذلك غضب، ودخل على البخاري وسأله، فقال: ما كذا قلت! بل ما بلغنا أنه كان في الإسلام ولا في الجاهلية مثله.

يعني: في الشجاعة.

وعن أحمد بن إسحاق السرماري قال: ينبغي لقائد الغزاة أن يكون فيه عشر خصال: أن يكون في قلب الأسد لا يجبن، وفي كبر النمر لا يتواضع للأعداء، وفي شجاعة الدب يقتل بجوارحه كلها، وفي حنة الخنزير لا يولي دبره، وفي غارة الذئب إذا أيس من وجه أغار من وجه، وفي حمل السلاح كالنملة تحمل أكثر من وزنها، وفي الثبات كالصخر، وفي الصبر كالحمار، وفي الوقاحة كالكلب لو دخل صيده النار لدخل خلفه، وفي اقتناص الفرصة كالديك.

قال إبراهيم بن شماس: كنت أكاتب أحمد بن إسحاق السرماري فكتب إلي: إذا أردت الخروج إلى بلاد الغزية في شراء الأسرى فاكتب إلي.

فكتبت إليه، فقدم سمرقند، فخرجنا، فلما علم جعبويه استقبلنا في عدة من جلوسه -وهو قائد جيش الكفار- فأقمنا عنده، فعرض يوماً جيشه -وهو الاستعراض العسكري- فمر رجل، فعظمه وخلع عليه -أي: أن هذا جندي في جيش الكفار أخذ جعبويه يمدحه ويعظمه، وخلع عليه من الهدايا والهبات- فسألني عن السرماري فقلت: هذا رجل مبارز يعد بألف فارس.

قال: أنا أبارزه.

فسكت، فقال: جعبويه: ما يقول هذا؟ قلت: يقول كذا وكذا.

قال: لعله سكران لا يشعر، ولكن غداً نركب.
فلما كان الغد ركبوا، فركب السرماري ومعه عمود خبأه في كمه، فقام بإزاء المبارز الذي هو مقدم عندهم، فقصده فهرب أحمد حتى باعده من الجيش، فظل يتراجع ويظهر التراجع أمامه حتى يبعده عن باقي الجيش، ثم كر عليه وضربه بالعمود فقتله، فتبعه إبراهيم بن شماس -لأنه كان سبقه- فلحقه، وعلم زيغويه فجهز في طلبه خمسين فارساً نقاوة فأدركوه، فثبت تحت تل من الرمال مختفياً، حتى مروا كلهم واحداً بعد واحد، وجعل يضربهم بعموده من ورائهم، إلى أن قتل تسعة وأربعين من الوراء، وأمسك واحداً، فقطع أنفه وأذنيه وأطلقه حتى يرجع ويخبر بما حدث؛ لأنه شاهد عيان.
ثم بعد عامين توفي أحمد، وذهب ابن شماس في الفداء فقال له جعبويه: من ذاك الذي قتل فرساننا؟! قال: ذلك أحمد السرماري.
قال: فلم لم تحمله معك؟ قلت: توفي.
فصك في وجهي -أي: ضربه في وجهه- وقال: لو أعلمتني أنه هو لكنت أعطيته خمسمائة برذون وعشرة آلاف شاة.
وعن عبيد الله بن واصل قال: سمعت أحمد السرماري يقول وأخرج سيفه: أعلم يقيناً أني قتلت به ألف تركي، وإن عشت قتلت به ألفاً آخر، ولولا خوفي أن يكون بدعة لأمرت أن يدفن معي.
فانظر إلى غاية اتباعه وورعه في أدق الأشياء، يعني: لولا خوفه أن يكون بدعة لأوصى أن يدفن سيفه معه في قبره، مع أن هذا السيف استعمله في الجهاد، فيا عجباً ممن يوصي أن يدفن معه العود -آلة الموسيقى- في قبره! وعن محمود بن سهل الكاتب قال: كانوا في بعض الحروب يحاصرون مكاناً، ورئيس العدو قاعد على صفة -يعني: على ظلة وعلى بهو واسع وسقفه عال-، فرمى السرناري سهماً فغرزه في الصفة، فأومأ الرئيس إلى أحد الجند لينزعه، فرماه بسهم آخر فأصاب يده فثبتها في الخشبة، فتطاول الكافر لينزعه من يده فرماه بسهم ثالث في نحره، فانهزم العدو وكان الفتح.
وعن عمران بن محمد المطوعي قال: سمعت أبي يقول: كان عمود السرناري ثمانية عشر مناً، والمن رطلان، فلما شاخ جعله اثني عشر مناً، وكان يقاتل بالعمود رحمه الله تعالى.
(13/14)

_____

علو همة اللؤلؤ العادلي في الجهاد

من هؤلاء الأبطال اللؤلؤ العادلي، كان يلقب بالحاجب، يقول الذهبي: من أبطال الإسلام، وهو كان المندوب لحرب فرنج الكرك الذين ساروا لأخذ طيبة، وساروا في البحر المالح.
فسمع اللؤلؤ العادلي الحاجب رحمه الله تعالى بسرية من الكفار من فرنج الكرك أو عدد منهم يقولون: نحن ذاهبون إلى طيبة -المدينة النبوية- لاستخراج جسد الرسول.
فسمع بخبرهم، فلم يسر لؤلؤ إلا ومعه قيود بعدد هؤلاء الذين خرجوا في هذه الحملة، فأدركهم عند الفحلتين، فأحاط بهم، فسلموه نفوسهم وهو لوحده، فقيدهم، وكانوا أكثر من ثلاثمائة مقاتل، وأقبل بهم إلى القاهرة، فكان يوماً مشهوداً.
(13/15)

_____

من علو الهمة في الجهاد

هذا مجاهد آخر ينتدب نفسه للمهمة الجسيمة، ويمضي نحو همته، ويلح سائلاً مولاه يقول: فيا رب إن حانت وفاتي فلا تكن على شرجع يعلى بخضر المطارف ولكن قبري بطن نسر مقيله بجو السماء في نسور عواسف وأمسي شهيداً خاوياً في عصابة يصابون في فج من الأرض خائف فوارس من بغداد ألف بينهم تقى الله نزالون عند التزاحف إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف فقوله: فيا رب إن حانت وفاتي فلا تكن على شرجع يعلى بخضر المطارف يعني أنه يدعو الله سبحانه وتعالى بأن لا يموت موتاً عادياً كما يموت سائر الناس، فلا يحب أن يحمل على

نعش، فانظر إلى الهمة العالية بدرجة غريبة جداً، فيدعو الله بأن لا تكون وفاته بحيث يحمل على نعش.

فقوله: (يعلى بخضر المطارف) هي أطراف الأيدي، يريد أن علو النعش بجسد وجثته بعد موته يرتفع على أيدي الناس، يقول: هذا دنو همة، فلا أقبل أن أموت على فراشي حتى يرفعني الناس بأيديهم.

يقول: ولكن قبري بطن نسر مقيله بجو السماء في نسور عواسف أي: اجعل قبري بطن النسور، حتى تحلق بي إلى أعلى آفاق السماء، ولا أدفن في الأرض.

يعني أن يكون شهيداً فتأكله النسور وتتخطفه، فترتفع جثته بأيدي النسور إذا أكلتها لا بأيدي الرجال إذا حملوه في النعش، فهو لا يحلق بروحه السامية في فلك الشموخ فحسب، بل بجسده أيضاً، بحيث إن الكفار لا يستطيعون أن يصلوا إلى جثته؛ لأنه استقر في بطون النسور، فيراغم الكفار ويغيظهم ميتاً كما راغمهم حياً.

وهذا بلا شك حري بقول الشاعر: علو في الحياة وفي الممات لحق تلك إحدى المكرمات فهو يبحث عن علو في الحياة وهو حي، وأيضاً إذا مات يبحث عن العلو حتى لا يتمكن الكفار من أن ينالوا جثته، بل ترتفع إلى آفاق السماء في داخل بطون النسور.

ثم يقول: وأمسي شهيداً خاوياً في عصابة يصابون في فج من الأرض خائف يعني: مطمئن منخفض.

فوارس من بغداد ألف بينهم تقى الله نزالون عند التزاحف أي: شجعان في مقاتلة الأعداء.

إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف وهي الجنة التي بشر بها الشهداء.

وعن أحمد بن إبراهيم قال: نظر يونس إلى قدميه عند موته فبكى، فقيل له: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟! قال: قدماي لم تغبرا في سبيل الله عز وجل.

وهذا الإمام الجليل عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالى- يعقد مقارنة بين من تخلى للعبادة ومن آثر الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى في قصيدة أرسلها إلى عابد الحرمين الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول له: يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب أو كان يجري خيله في باطل فخيولنا يوم الكريهة تتعب ريح العبير لكم ونحن عبيرنا رهج السنابك والغبار الأطيب والسنابك: جمع سنبك، وهو طرف السيوف.

ولقد أتانا عن مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب لا يستوي غبار خيل الله في أنف امرئ ودخان نار تلهب هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكذب والإمام ابن حزم الأندلسي رحمه الله تعالى يعبر عن علو همته في الحياة فيقول: مناي من الدنيا علوم أبثها وأنشرها في كل باد وحاضر دعاء إلى القرآن والسنن التي تناسى رجال ذكرها في المحاضر وألزم أطراف الثغور مجاهداً إذا هيعة سارت فأول نافري لألقى حمامي مقبلاً غير مدبر بسمر العوالي والرقاق البواسل كفاح مع الكفار في حومة الوغى وأكرم موت للفتى قتل كافر فيا رب لا تجعل حبالي بغيرها ولا تجعلني من قتيل المقابر يعني: من سكان المقابر.

وهذا الإمام الجليل أبو القاسم محمد بن أحمد المالكي رحمه الله تعالى المتوفي سنة (741) من الهجرة يقول قبل أن يستشهد مباشرة: قصدي المؤمل في جهري وإسراري ومطلبي من إلهي الواحد الباري شهادة في سبيل الله خالصة تمحو ذنوبي وتنجيني من النار إن المعاصي رجس لا يطهرها إلا الصوارم في أيمان كفار فبعد أن أنشد الأبيات قال: أرجو الله أن يعطيني ما سألته في هذه الأبيات.

فأعطاه الله ما تمنى، وقتل في نفس اليوم وهو يقاتل النصارى، بعد أن أبلى في قتالهم بلاء حسناً، رحمه الله وأعلى درجته في الشهداء.

فهذا ما تيسر من النماذج من جهاد السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم في إعزاز هذا الدين وعلو همتهم في الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى.

ولولا هذه الهمة العالية لما ذاع الإسلام وشاع في أقطار الأرض بهذه الطريقة، ولما وصلتنا هذه النعمة، ولما تشرفنا بهذا الشرف العظيم الذي هو شرف الانتماء إلى دين الحق وإلى أمة التوحيد.

علو الهمة في البحث عن الحق

بقي الكلام في ميدان آخر من ميادين علو الهمة، وهو علو الهمة في البحث عن الحق، وفيه شيء من الطول، ونقتصر في هذه الكلمات على قصة واحدة من قصص علو الهمة في البحث عن الحق، ونكمل بقية ذلك فيما سيأتي بإذن الله.

حفل التاريخ الإسلامي قديمه وحديثه بنماذج رائعة من المهتدين الذين ارتفعت همتهم في البحث عن الدين الحق، وبذلوا في سبيل ذلك النفس والنفيس، فصاروا مضرب الأمثال، وحجة لله على خلقه أن من انطلق باحثاً عن الحق مخلصاً لله تعالى فإن الله يهديه إليه، ويمن عليه بأعظم نعمة في الوجود، وهي نعمة الإسلام.

ومن هذه النماذج -بل أشهرها- قصة سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه، فقد جلس يوماً تحت داره المتواضعة في المدائن، وأحاط به جلساؤه ينصتون لحديثه ولقصته في البحث عن الحقيقة، وروى لهم كيف ترك دين قومه -الفرس- إلى النصرانية ثم إلى الإسلام، وكيف ضحى في سبيل البحث عن الحقيقة الكبرى بثراء أبيه الباذخ، ورمى نفسه في أحضان الفاقة بحثاً عن خلاص عقله وروحه.

كيف بيع في سوق الرقيق في طريق بحثه عن الحقيقة، كيف التقى برسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف آمن به، إنه سلمان الفارسي أو سلمان الخير صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يقول وهو يحكي قصته: كنت رجلاً من أهل أصفهان من قرية يقال لها جي، وكان أبي دهقان أرضها -أي: رئيس القرية-، وكنت من أحب عباد الله إليه، وقد اجتهدت في المجوسية حتى كنت قاطن النار الذي يوقدها ولا يتركها تخمد.

والمجوس الذين يعبدون النار يتركونها مشتعلة باستمرار في مكان العبادة، بحيث لا تنطفئ أبداً، فكان سلمان الفارسي قاطن النار، أي: كان هو القيم على النار، وكان هو موقدها.

يقول: وكان لأبي ضيعة أرسلني إليها يوماً، فخرجت فمررت بكنيسة للنصارى، فسمعتهم يصلون، فدخلت عليهم لأنظر ما يصنعون، فأعجبني ما رأيت من صلاتهم، وقلت لنفسي: هذا خير من ديننا الذي نحن عليه.

فما برحتهم حتى غربت الشمس، ولا ذهبت إلى ضيعة أبي ولا رجعت إليه حتى بعث في أثري.

وسألت النصارى حين أعجبني أمرهم وصلاتهم عن أصل دينهم، فقالوا: في الشام.

وقلت لأبي حين عدت إليه: إني مررت على قوم يصلون في كنيسة لهم فأعجبتني صلاتهم، ورأيت أن دينهم خير من ديننا، فحاورني وحاورته، ثم جعل في رجلي حديداً وحبسني.

وأرسلت إلى النصارى أخبرهم أني دخلت دينهم، وسألتهم إذا قدم عليهم ركب من الشام أن يخبروني قبل عودتهم إليها لأرحل إلى الشام معهم، ففعلوا، فحطمت الحديد، وخرجت وانطلقت معهم إلى الشام، وهناك سألت عن عالمهم، فقيل لي: هو الأسقف صاحب الكنيسة.

فأتيته وأخبرته خبري، فأقمت معه أخدمه وأصلي وأتعلم، وكان هذا الأسقف رجل سوء في دينه، إذ كان يجمع الصدقات من الناس ليوزعها، ثم يكتنزها لنفسه، ثم مات.

وجاءوا بآخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً على دينه خير منه، ولا أعظم رغبة في الآخرة وزهداً في الدنيا، ودأباً على العبادة، وأحببته حباً ما علمت أني أحببت أحداً مثله قبله، فلما حضره قدره -يعني أجله- قلت له: إنه قد حضرك من أمر الله ما ترى، فبم تأمرني؟ وإلى من توصي بي؟ قال: أي بني! ما أعرف أحداً من الناس على مثل ما أنا عليه إلا رجل من الموصل، فلما توفي أتيت صاحب الموصل، فأخبرته الخبر، وأقمت معه ما شاء الله أن أقيم، ثم حضرته الوفاة فسألته، فدلني على عابد في نصيبين، فأتيته فأخبرته خبري، ثم أقمت معه ما شاء الله أن أقيم، فلما حضرته الوفاة سألته، فأمرني أن ألحق برجل في عمورية من بلاد الروم، فرحلت إليه، وأقمت معه، واصطنعت لمعاشي بقرة وغنيمة، ثم حضرته الوفاة.

فانظر إلى الدأب، فكلما يموت واحد يسأله عن غيره ممن يعرفون الحق، كما جاء في الحديث: (إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم كلهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب).

قال: ثم حضرته الوفاة، فقلت له: إلى من توصي بي؟ فقال لي: يا بني! ما أعرف أحداً على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي يبعث بدين إبراهيم حنيفاً عليه الصلاة والسلام، مهاجره إلى أرض ذات نخل بين حرتين - والحرة: الجبال ذات الحجارة السوداء - فإن استطعت أن تخلص إليه فافعل، وإن له آيات - علامات - لا تخفى، فهو لا يأكل الصدقة، ويقبل الهدية، وبين كتفيه خاتم النبوة، إذا رأيته عرفته.

ومر بي ركب ذات يوم فسألتهم عن بلادهم، فعلمت أنهم من جزيرة العرب، فقلت لهم: أعطيكم بقراتي هذه وغنمي على أن تحملوني معكم إلى أرضكم؟ قالوا: نعم. واصطحبوني معهم، حتى قدموا بي وادي القرى، وهناك ظلموني وباعوني إلى رجل من اليهود، وظفرت بنخل كثير بوادي القرى، فطمعت أن تكون هي البلدة التي وصفت لي، والتي ستكون مهاجر النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنها لم تكنها، وأقمت عند الرجل الذي اشتراني، حتى قدم عليه يوماً رجل من يهود بني قريظة، فابتاعني منه، ثم خرج بي حتى قدمت المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها حتى أيقنت أنها البلد التي وصفت لي.

وأقمت معه أعمل له في نخله في بني قريظة، حتى بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم، وحتى قدم المدينة ونزل بقباء في بني عمرو بن عوف، وإني لفي رأس نخلة يوماً وصاحبي جالس تحتها إذ أقبل رجل من يهود من بني عمه فقال يخاطبه: قاتل الله بني قيلة -يقصد الأنصار-! إنهم ليتخاطفون.

يعني: يتتابعون ويجتمعون ويتزاحمون استعداداً لحدث خطير جداً وهو استقبال الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: قاتل الله بني قيلة! إنهم ليتخاطفون على رجل بقباء قادم من مكة يزعمون أنه نبي.

فوالله ما هو إلا أن قالها حتى أخذتني العرواء -رعشة الحمى- فرجفت النخلة -أي: من الارتعاش الذي أصابه- حتى كدت أسقط فوق صاحبي.

ثم نزلت سريعاً وقلت: ما الخبر؟! فرفع سيدي يده ولكزني لكزة شديدة، ثم قال لي: مالك ولهذا، أقبل على عملك.

فأقبلت على عملي، ولما انتهيت جمعت ما كان عندي من التمر، ثم خرجت حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء، فدخلت عليه ومعه نفر من أصحابه، فقلت له: إنكم أهل حاجة وغربة، وقد كان عندي طعام نذرته للصدقة، فلما ذكر لي مكانكم رأيتكم أحق الناس به، فجئتكم به.

ثم وضعته، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه: كلوا باسم الله، وأمسك هو فلم يبسط إليه يده.

فقلت في نفسي: هذه -والله واحدة-، إنه لا يأكل الصدقة.

ثم رجعت وعدت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في اليوم التالي أحمل طعاماً، فقلت للرسول صلى الله عليه وسلم: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وقد كان عندي شيء أحب أن أكرمك به هدية، ووضعته بين يديه، فقال لأصحابه: كلوا باسم الله.

وأكل معهم، فقلت لنفسي: هذه -والله- الثانية، إنه يأكل الهدية.

ثم رجعت، فمكثت ما شاء الله، ثم أتيته، فوجدته في البقيع قد تبع جنازة وحوله أصحابه، وعليه شملتان مؤتزراً بواحدة، ومرتدياً الأخرى -كان يلبس إزاراً ورداء على كتفه كلبس الحجاج في الإحرام- فسلمت عليه، ثم استدرت لأنظر أعلى ظهره، فعرف أني أريد ذلك -أي: عرف الرسول عليه السلام أن سلمان يبحث عن خاتم النبوة بين كتفيه- فألقى بردائه عن كاهله، وكشف له ظهره صلى الله عليه وآله وسلم، قال: فإذا العلامة بين كتفيه خاتم النبوة كما وصفه لي صاحبي، فأكببت عليه أقبله وأبكي.

ثم دعاني صلى الله عليه وسلم فجلست بين يديه، وحدثته حديثي كما أحدثكم الآن.

فمن أين عرف ذلك الأسقف؟! عرف ذلك من كتبهم، ومازالت علامة خاتم النبوة مذكورة في التوراة وفي الإنجيل إلى اليوم رغم التحريف الذي وقع، والنص موجود في كتاب النصارى المقدس فيه إخبار عن شخص يأتي بالنبوة علامته بين كتفيه، فربما

تكون هذه النسخ حذفت فيها العلامات المفصلة؛ لأن فيه تفصيلات أخرى، مثل كونه كبيض الحجلة وعليه شعيرات قليلة.

ثم يقول سلمان: ثم أسلمت، وحال الرق بيني وبين شهود بدر وأحد، وفي ذات يوم قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (كاتب سيدك حتى يعتقك، فكاتبته)، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة أن يعاونوني، وحرر الله رقبتي، وعشت حراً مسلماً، وشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزة الخندق والمشاهد كلها.

فبهذه الكلمات تحدث سلمان الفارسي عن رحلته الزكية النبيلة العظيمة في سبيل بحثه عن الحقيقة العظمى التي تصله بالله وترسم له دوره في الحياة، فأي إنسان شامخ كان هذا الإنسان! أي تفوق عظيم أحرزته روحه الطيبة، وفرضته إرادته الغلابة على المصاعب، فقهرت المستحيل فجعلته ذلولاً! أي تمثل للحقيقة وأي ولاء لها هذا الذي أخرج صاحبه طائعاً مختاراً من متاع أبيه وثرائه ونعمائه إلى المجهول بكل أعبائه ومشاقه، ينتقل من أرض إلى أرض، ومن بلد إلى بلد، ناصباً كادحاً عابداً! تفحص بصيرته الناقدة الناسَ والمذاهبَ والحياةَ، ويظل في إصراره العظيم وراء الحق، وتضحياته النبيلة من أجل الهدى حتى يباع رقيقاً، ثم يثيبه الله ثوابه الأوفى فيجمعه بالحق، ويلاقيه برسوله صلى الله عليه وسلم، ثم يعطيه من طول العمر ما يشهد معه بكلتا عينيه رايات الله تخفق في كل مكان من الأرض، وعباده المسلمين يملئون أركانها وأنحاءها هدى ورحمة وعدلاً.

_____

الأسئلة

_____

حكم قول: (واسطتي الله تعالى)

السؤال

بعض الناس يقول عند تقديم معاملة: أنا واسطتي الله تعالى فما حكم هذا؟

الجواب

هذا التعبير لا يجوز؛ لأن الله يتوسل إليه ولا يتوسل به، والله سبحانه وتعالى ليس وكيلاً إلى غيره، فالله تعالى لا يكون واسطة، ولا يستشفع بالله على أحد، لكن يستشفع إلى الله عز وجل، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له بعض الصحابة: يا رسول الله! إنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك.

فغضب من ذلك وقال: إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه).

فالشاهد أن هذا التعبير غير صحيح، ولا يجوز إذا قيل لك: (من واسطتك)، أن تقول: الله؛ لأن الله ليس واسطة، وليس وسيلة، إنما الله سبحانه وتعالى يتوسط إليه ويتوسل إليه، كما قال تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} [الإسراء:57].

_____

علو الهمة [14]

لقد جعل الله سبحانه وتعالى هداية الدلالة بيد الأنبياء والعلماء والدعاة، وأما هداية الإلهام والتوفيق فهي بيده سبحانه، فيضل الله من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله، وهناك نماذج من أولئك الرجال الذين هداهم الله حين قطعوا حياتهم في البحث عن الحق والنور، فمن أراد شيئاً واجتهد وأخلص في طلبه بلغه الله إياه، ومن أولئك الرجال بعض القساوسة النصارى الذين كانوا يوماً ما رءوساً في أقوامهم، فتركوا هذه الحياة الدنيا، وأقبلوا على الله وآثروا ما عنده.

_____

علو همة الشيخ أبي محمد الترجمان في البحث عن الحق

القصص في علو الهمة في عصر الصحابة أو من بعدهم كثيرة جداً، ونحن لا نقصد الاستقصاء، وإنما نريد ذكر نماذج من كل عصر من العصور، وسننقل في حديثنا إلى أواخر القرن الثامن الهجري وأوائل القرن التاسع، ونذكر علو همة الشيخ: أبي محمد الترجمان الذي توفي سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة من الهجرة.

فهذا الرجل كان يدعى القسيس إنسلم ترميدا، وكان من أكبر علماء النصارى في القرن الثامن الهجري.

وفي الوقت الذي كان الصليبيون يكرسون جهودهم -بعد طرد المسلمين من ربوع الأندلس- في نشر النصرانية المحرفة في ربوع بلاد الأندلس، بعدما نفي المسلمون من هذا الفردوس المفقود وفي نفس ذلك الوقت شرح الله سبحانه وتعالى صدر رجل من أكبر علماء النصرانية في ذلك الزمان إلى الإسلام، فأسلم وجهه لله، واستقام على طاعة الله عز وجل، وجاهد بيده ولسانه وقلمه في سبيل الله عز وجل، أنه الشيخ: أبو محمد عبد الله بن عبد الله الترجمان، كان قسيساً -كما ذكرنا- يدعى إنسلم ترميدا، اشتهر بـ: الترجمان؛ لأنه لما مضت خمسة أشهر على إسلامه قدمه السلطان في الديوان لقيادة البحر، وكان يقصد من ذلك أن يتعلم اللغة العربية بالتردد على علم الترجمة هناك، أي: في البحر والمناوشات العسكرية الحربية أو التجارية، حتى العلاقات التجارية بين الأسبان وبين العرب كانت تحتاج إلى الترجمة من إحدى اللغتين إلى الأخرى، وكانت تكثر الاحتكاكات بين النصارى والمسلمين.

فأرسله السلطان ليكون مسئولاً في قيادة البحر لأجل أن يتعلم اللغة العربية هناك من خلال هذه الترجمة، فأتقن اللغة العربية في سنة واحدة، وعينه السلطان رئيساً لشئون الترجمة، وكان من ألقابه عند عوام الناس في بلاد المغرب: (سيدي تحفة)، وذلك نسبة إلى كتابه الشهير الذي ألفه بعد إسلامه، وهو الآن مطبوع وموجود، ويسمى (تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب) فالعوام اختصروا هذا الموضوع ونسبوا المؤلف إلى هذا الكتاب، فقالوا: سيدي تحفة.

نسبة إلى كتابه (تحفة الأريب)، وأعتقد أن هذه التسمية عند العوام فيها إصابة، فقد أصابوا فيها الحق، بخلاف ما يحصل أحياناً من العوام من انفعالات غريبة جداً، أو أنها تعكس أكثر الألقاب التي يلقونها، ففي أثناء الحرب العالمية كان هتلر يعد أهل مصر خيراً لو تعاونوا معه ضد الإنجليز، فبمجرد أن بدأ هتلر يغازل الشعب المصري ببعض العبارات اللطيفة صار له لقب عند العوام في مصر، حيث سموه (الحاج محمد هتلر) تعبيراً عن أنهم تفاعلوا مع هذه العاطفة التي أبداها تجاههم، فالناس يتحولون بين يوم وليلة! فالسفاح الذي كان بالأمس يقتل ويده ملوثة بالدماء، وتاريخه أسود، وإلى آخر لحظات من عمره وهو في محاربة لله ورسوله وللمؤمنين أصبح يدعى (الحاج محمد هتلر)، ومع ذلك نجد بعض من انحطت هممهم وسفلت نفسيتهم ينقادون ويقادون إلى مثل هذه المهازل التاريخية في الحقيقة، والله المستعان! فالشاهد أن العوام في بلاد المغرب الإسلامي قد أصابوا حينما سموه سيدي تحفة؛ لأنه كان أعظم ما أنجزه هذا الرجل الجليل هو هذا الكتاب الرائع: (تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب)، وكان ذلك الكتاب يمثل ضربة قوية لبنيان النصرانية، كتبه عالم من أكبر علماء النصرانية في عصره باعتراف أهلها وشهادتهم، وافتتح هذا الكتاب بذكر قصة إسلامه، وسوف أتلو عليكم هذه القصة كما حكاها هو بنفسه رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه.

أبو محمد الترجمان في بداية طلبه لعلم النصرانية

قال رحمه الله تعالى: اعلموا -رحمكم الله- أن أصلي من مدينة ميورقا وهي جزيرة في البحر الأبيض المتوسط جنوب شرق أسبانيا اليوم، فتحها المسلمون سنة تسعين ومائتين للهجرة، إلى أن تغلب عليها العدو البرشلوني وخربها سنة (508) للهجرة.

يقول: اعلموا -رحمكم الله- أن أصلي من مدينة ميورقا أعادها الله للإسلام، وهي مدينة كبيرة تقع على البحر بين جبلين، يشقها واد صغير، وهي مدينة لها مرساتان عجيبتان ترسو بهما السفن الكبيرة للمتاجر الجليلة، والمدينة في جزيرة تسمى باسم المدينة ميورقا، وأكثر غاباتها زيتون وتين، وكان والدي محسوباً من أهل حاضرة (ميورقا)، ولم يكن له ولد غيري، ولما بلغت ست سنين من عمري أسلمني إلى معلم

من القسيسين قرأت عليه الإنجيل حتى حفظت أكثر من شطره في مدة سنتين، ثم أخذت في تعلم لغة الإنجيل وعلم المنطق في ست سنين، ثم ارتحلت من بلدي (ميورقا) إلى مدينة لاردا من أرض القصطلان.

وهذه المدينة تسمى الآن كستلون، و (قصطلة) مدينة بالأندلس، فهذه المدينة -مدينة القصطلان- مدينة العلم عند النصارى في ذلك القطر، وفي هذه المدينة يجتمع طلبة العلم من النصارى، وينتهون إلى ألف وخمسمائة، ولا يحكم فيهم إلا القسيس الذي يقرءون عليه، فقرأت فيها علم الطبيعيات والفلك مدة تسع سنين، ثم تصدرت فيها أقرأ الإنجيل ولغته ملازماً لذلك مدة أربع سنين، ثم ارتحلت إلى مدينة جلونيا من أرض الأندلس، وهي مدينة كبيرة جداً، وهي مدينة علم عند جميع أهل ذلك القطر، ويجتمع بها كل عام من الآفاق أكثر من ألفي رجل يطلبون العلوم ولا يلبسون إلا الملف، وهو لحاف يلتحف به، ويسمي هذا الملف -كما يقول- صباغ الله.

ولعلهم يقصدون بذلك أنهم يلبسون لباساً معيناً يصبغ بصبغة -في زعمهم- مقدسة، كما يفعلون في التعميد، ولو كان طالب العلم منهم سلطاناً أو ابن سلطان فلا يلبس إلا ذلك؛ ليمتاز الطلبة عن غيرهم، ولا يحكم فيهم إلا القسيس الذي يقرءون عليه.

(14/3)

_____

أبو محمد الترجمان في بداية بحثه عن الدين الحق

قال: فسكنت في كنيسة لقسيس كبير السن عندهم، وكبير القدر اسمه نقلاو مرتيل، وكانت منزلته فيهم بالعلم والدين والزهد رفيعة جداً، انفرد بها في زمنه عن جميع أهل دين النصرانية، فكانت الأسئلة في دينهم ترد عليه من الآفاق من جهة الملوك وغيرهم، ويصحب الأسئلة من الهدايا الضخمة ما هو الغاية -يعني النهاية- في بابه، ويرغبون في التبرك به وفي قبوله لهداياهم، ويتشرفون بذلك، فقرأت على هذا القسيس علم أصول النصرانية وأحكامه.

ولم أزل أتقرب إليه بخدمته والقيام بكثير من وظائفه حتى صيرني من أخص خواصه، وانتهيت في خدمتي له وتقربي إليه إلى أن دفع إلي مفاتيح مسكنه وخزائن ملكه ومأكله ومشربه، وصير جميع ذلك كله على يدي، ولم يستثن من ذلك سوى مفتاح بيت صغير بداخل مسكنه كان يخلو فيه بنفسه، والظاهر أنه بيت خزانة أمواله التي كانت تهدى إليه، والله أعلم.

فلازمته على ما ذكرت من القراءة عليه، والخدمة له عشر سنين، ثم أصابه مرض يوماً من الدهر، فتخلف عن حضور مجلس طلابه، وانتظره أهل المجلس وهم يتذاكرون مسائل من العلوم، إلى أن أفضى بهم الكلام إلى قول الله عز وجل على لسان نبيه عيسى عليه السلام في الإنجيل: إنه يأتي من بعده نبي اسمه (الفارقليط).

وهو -أعني أبا محمد الترجمان - هنا ليس مخطئاً عندما قال: (قول الله عز وجل على لسان نبيه عيسى في الإنجيل)؛ لأن هذا قد علمنا قطعاً ما يؤيد صحته، وأنه مما لم تتناوله أيدي التحريف، فكلمة (الفارقليط) الترجمة الحرفية لها بالضبط هي (أحمد) صيغة أفعل التفضيل من (حمد)، ونحن نعلم أن المسيح عليه السلام بشر بالرسول عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف:6]، فلذلك ما جاوز الصواب في قوله: (قول الله عز وجل على لسان نبيه عيسى عليه السلام في الإنجيل: إنه يأتي من بعده نبي اسمه: (الفارقليط)).

وهذه الكلمة -في الحقيقة- تستحق بحثاً مفرداً، لكن باختصار شديد نقول: إن هذه الكلمة أزعجت النصارى جداً، حتى إنهم انتهى الأمر بهم في التراجم المتأخرة في العصور الأخيرة إلى أن يحرفوها تماماً إلى معانٍ أخرى مثل (المعزي) أو (المخلص) أو غير ذلك من هذه العبارات المعروفة عندهم الآن؛ لأنهم يعرفون تماماً أن كلمة الفارقليط يستدل بها المسلمون على أن معناها في اللغة اليونانية القديمة (أحمد) بنفس الحرف الذي في اسمه، فأرهقتهم الكلمة كثيراً، وكما هي عادتهم في التحريف في الطبعات الجديدة نزعوا كلمة (الفارقليط) ووضعوا مكانها لفظاً آخر يزعمون أن معناه (المعزي) أو (المخلص) إلى غير ذلك، ومعروف أن كلمة (الفارقليط) قالها المسيح عليه السلام في اللحظات الأخيرة قبل أن يرفع إلى السماء؛ لأنه قال: (لابد

أن أمضي؛ لأني إذا لم أمض لم يأتكم الفارقليط) ووصف الرسول الذي سيأتي بعده بصفات دقيقة لا تنطبق إلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فحرفت هذه الكلمة إلى لفظ (فيركليتوس)، وقد حصل نقاش بين الأستاذ عبد الوهاب النجار والدكتور: كلرون بينو حول هذه الكلمة، فيحكي الدكتور: عبد الوهاب النجار في كتابه (قصص الأنبياء) فيقول: ثم قلت له وأنا أعلم أنه حاصل على شهادة الدكتوراة في آداب اللغة اليونانية القديمة ما معنى (فير كليتوس)؟! فأجابني بقوله: إن القسس يقولون: إن هذه الكلمة معناها (المعزي).

فقلت: إني أسأل الدكتور: كلرون بينو الحاصل على الدكتوراة في الآداب اليونانية القديمة ولست أسأل قسيساً.

يعني: أنا أسألك بصفتك خبيراً باللغة اليونانية القديمة، ولست أسأل عن رأي القساوسة في ترجمة هذه الكلمة.

فقال: إن معناها: الذي له حمد كثير.

فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد؟! فقال: نعم.

فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسمائه أحمد! فقال: يا أخي! أنت تحفظ كثيراً.

يعني أنه اكتسب هذا التعليم.

(14/4)

_____

أبو محمد الترجمان يسأل سيده عن معنى الفارقليط فكانت هدايته للحق

فلما تخلف القسيس بسبب مرضه في ذلك اليوم عن حضور مجلس أقرانه وانتظره الناس، ولم يحضر أقرانه من القساوسة اضطروا إلى أن يتناقشوا في مسائل من العلوم، إلى أن أفضى بهم الكلام في مناقشة قول الله عز وجل حكاية عن المسيح عليه السلام: (إنه يأتي من بعدي نبي اسمه الفارقليط)، وقد ترجموا هذه الكلمة، ومن المعلوم أن الأعلام لا تترجم، فلو أن شخصاً اسمه سعيد ففي أي لغة يبقى اسمه كما هو، سواءٌ أكانت الكتابة بالعربي، أم بالإنجليزي، أم بالفرنسي، فهم ترجموا كلمة (الفارقليط) إلى معنى آخر غير ما دلت عليه، وفي بداية الأمر ترجموا معناها إلى اللغة اليونانية وجعلوها كلمة (فارقليط) التي تساوي (أحمد)، فهي أفعل تفضيل من صيغة (حمد).

فناقشوا هذه المسألة فيما ناقشوه لما تخلف كبيرهم القسيس، فبحثوا في تعيين هذا النبي من هو من الأنبياء، وقال كل واحد منهم بحسب علمه وفهمه، فعظم بينهم في ذلك مقالهم، وكثر جدالهم، ثم انصرفوا من غير تحصيل فائدة ومن غير الاتفاق على معنى معين لهذه الكلمة، ثم لما رجع إلى القسيس الكبير الذي كان مريضاً قال له: ما الذي كان عندكم اليوم من البحث في غيبتي عنكم، فأخبرته باختلاف القوم في اسم (الفارقليط) وأن فلاناً قد أجاب بكذا، وأجاب فلان بكذا، وسردت له أجوبتهم، فقال لي: وبماذا أجبت أنت؟! فقلت: بجواب القاضي فلان في تفسيره للإنجيل.

فقال: قصرت وقربت! وفلان أخطأ، وكاد فلان أن يقارب، ولكن الحق خلاف هذا كله؛ لأن تفسير هذا الاسم الشريف لا يعلمه إلا العلماء الراسخون في العلم، وأنتم لم يحصل لكم من العلم إلا القليل.

فبادرت إلى قدميه أقبلهما، وقلت له: يا سيدي! قد علمت أني ارتحلت إليك من بلد بعيد، ولي في خدمتك عشر سنين، حصلت عنك فيها من العلوم جملة لا أحصيها، فلعل من جميل إحسانكم أن تمنو علي بمعرفة هذا الاسم، فبكى الشيخ وقال لي: يا ولدي! والله لأنت تعز علي كثيراً من أجل خدمتك لي وانقطاعك إلي، وفي معرفة هذا الاسم الشريف فائدة عظيمة، لكني أخاف أن يظهر ذلك عليك، فتقتلك عامة النصارى في الحين -فوراً سوف يقتلونك- فقلت له: يا سيدي! والله العظيم وحق الإنجيل ومن جاء به لا أتكلم بشيء مما تسره إلي إلا عن أمرك، فقال لي: يا ولدي! إني سألتك في أول قدومك علي عن بلدك، وهل هو قريب من المسلمين، وهل يغزونكم أو تغزونهم، لأختبر ما عندك من المنافرة للإسلام، يعني: حتى أكتشف حساسيتك وعداءك ونفورك من دين الإسلام.

فاعلم يا ولدي أن (الفارقليط) هو اسم من أسماء نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وعليه نزل الكتاب الرابع المذكور على لسان دانيال عليه السلام، وأخبر أنه سينزل هذا الكتاب عليه، وأن دينه هو دين الحق، وملته هي الملة البيضاء المذكورة في الإنجيل، فطبعاً واضح جداً من هذا الكلام أن هذا القسيس يؤمن برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ويعرف أوصافه الموجودة في التوراة والإنجيل.

وهذه من الحقائق المعروفة أن علماء أهل الكتاب يعرفون جيداً الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم، ولذلك قال تبارك وتعالى: {فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} [يونس:94]، وأشار الإمام الجويني رحمه الله تعالى حينما تكلم على هذه الآية الكريمة إلى قول صاحب الكشاف الذي قال: والمعنى أن الله تعالى قدم ذكر بني إسرائيل وهم قراء الكتاب، ووصفهم بأن العلم قد جاءهم؛ لأن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم إلى آخر القول.

فالغرض: وصف الأحباب بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المهم قال هذا الرجل: اعلم يا ولدي أن (الفار قليط) هو اسم من أسماء نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وعليه نزل الكتاب الرابع، المذكور على لسان دانيال عليه السلام.

ورؤية دانيال هذه من الرؤى المشهورة جداً، ولها شأن عظيم، الكلام فيها يطول لكن باختصار شديد فيها أوصاف تنطبق في منتهى الدقة على شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأخبر أنه سينزل هذا الكتاب عليه، وأن دينه هو دين الحق، وملته هي الملة البيضاء المذكورة في الإنجيل، قلت له: يا سيدي! وما تقول في دين هؤلاء النصارى؟! فقال لي: يا ولدي! لو أن النصارى أقاموا على دين عيسى الأول لكانوا على دين الله؛ لأن عيسى وجميع الأنبياء دينهم دين الله عز وجل، ولكنهم بدلوا وكفروا، فقلت له: يا سيدي! وكيف الخلاص من هذا الأمر؟! فقال: يا ولدي! بالدخول في دين الإسلام، فقلت له: وهل ينجو الداخل فيه؟ قال لي: نعم ينجو في الدنيا والآخرة، فقلت: يا سيدي! إن العاقل لا يختار لنفسه إلا أفضل ما يعلم، فإذا علمت فضل دين الإسلام فما يمنعك منه؟! فقال لي: يا ولدي! إن الله تعالى لم يطلعني على حقيقة ما أخبرتك به من فضل الإسلام وشرف نبي أهل الإسلام إلا بعد كبر سني، ووهن جسمي، ولا عذر لنا فيه بل هو حجة الله علينا قائمة، ولو هداني الله لذلك وأنا في سنك لتركت كل شيء ودخلت في دين الحق، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وأنت ترى ما أنا فيه عند النصارى من رفعة الجاه والعز، والترف، وكثرة عرض الدنيا، ولو أني ظهر علي شيء من الميل إلى دين الإسلام لقتلتني العامة في أسرع وقت، وهب أني نجوت منهم وخلصت إلى المسلمين فأقول لهم: إني جئتكم مسلماً فيقولون: قد نفعت نفسك بنفسك بالدخول في دين الحق فلا تمن علينا بدخولك في دين خلصت به نفسك من عذاب الله، فأبقى بينهم شيخاً كبيراً فقيراً ابن تسعين سنة لا أفقه لسانهم، ولا يعرفون حقي، فأموت بينهم جوعاً، انظر كيف ثقلت همته بسبب هذا التلبيس من الشيطان الرجيم؟! لاشك أن ما قاله وما فكر فيه هو خيال فاسد وسوء ظن بخير أمة أخرجت للناس، وجهل أيضاً بسماحة الإسلام ونظامه الاجتماعي الرائع المبني على التكافل والرحمة والإحسان إلى الخلق.

ولو كان كان هؤلاء الخلق باقون على دينهم فيكونون أهل ذمة فلهم من الحقوق ما هو معلوم، فكيف إذا تحول الكافر عن دينه إلى دين الإسلام، هل يظن أن المسلمين يظلمونه أو يحقرونه أو لا يوفونه حقه؟! تأمل ما حكاه أبو عبيد عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حينما كتب إلى عدي بن أرطأة بالبصرة قال له: وانظر من عندك من أهل الذمة من قد كبر سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب -يعني: لا يستطيع التكسب- فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه، فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقوده حتى يفرق بينهما موت أو عتق، وذلك أنه بلغني أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس يتسول فقال: ما أنصفناك إن

كنا أخذنا منك الجزية في شيبتك ثم ضيعناك يعني: وهو شاب ثم ضيعناك في كبرك، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه.

وأقوى رد على هذا الظن الفاسد الذين ظنه هذا القسيس هو ما لقيه الترجمان نفسه حينما أسلم من حفاوة ومن تقدير، ومن تكريم من المسلمين، فهذا من تلبيس إبليس على هذا الرجل حينما قال: إذا خلصت من النصارى من محاولتهم قتلي واستطعت أن أصل إلى المسلمين سيقول لي المسلمون: قد نفعت نفسك بنفسك بالدخول في دين الحق، فلا تمن علينا بدخولك في دين خلصت به نفسك من عذاب الله، فأبقى بينهم شيخاً كبيراً فقيراً ابن تسعين سنة، لا أفقه لسانهم، ولا يعرفون حقي فأموت بينهم جوعاً، وأنا والحمد لله على دين عيسى، وعلى ما جاء به يعلم الله ذلك مني يعني: أن عيسى رسول وليس هو الله.

فقلت له: يا سيدي! أفتدلني على أن أمشي إلى بلاد المسلمين وأدخل في دينهم؟ فقال لي: إن كنت عاقلاً طالباً للنجاة فبادر إلى ذلك تحصل لك الدنيا والآخرة، ولكن يا ولدي هذا أمر لم يحضره أحد معنا الآن، فاكتمه بغاية جهدك، وإن ظهر عليك شيء منه قتلتك العامة لحينك، ولا أقدر على نفعك إذا قتلوك أو حاولوا أن يؤذوك، أنا لا أستطيع أن أدفع عنك، ولا ينفعك أن تنقل ذلك عني.

يعني: إذا قلت لهم حينئذ إن الذي دلني على هذا هو القسيس فلان فإنك لن ينفعك أن تنقل ذلك عني، فإني أجحده إذا ذكرت ذلك عني وقولي مصدق عليك، وقولك غير مصدق علي، طبعاً سيقبل الناس قولي أنا ويرفضون قولك، وأنا بريء من ذلك إن فهت بشيء من هذا.

(14/5)

_____

بداية رحلة محمد الترجمان إلى بلاد المسلمين

فقلت: يا سيدي! أعوذ بالله من سريان الوهم لهذا وعاهدته بما يرضيه.

ثم أخذت في أسباب الرحلة وودعته، فدعا لي عند الوداع بخير، وزودني خمسين ديناراً ذهباً، وركبت البحر منصرفاً إلى بلدي مدينة ميورقا، فأقمت بها مع والدي ستة أشهر، ثم سافرت منها إلى جزيرة صقلية، وأقمت بها خمسة أشهر وأنا أنتظر مركباً يتوجه لأرض المسلمين، فحضر مركب يسافر إلى تونس، فسافرت فيه من صقلية، وأقلعنا عنها قرب مغيب الشفق، فوردنا مرسى تونس قرب الزوال، فلما نزلت بجوار تونس، وسمع بي الذين بها من أحبار النصارى في تونس -يعني: سمعوا بمقدمه، وأنه حاضر عندهم، وقد كان هو أكبر علماء النصارى في ذلك الوقت- أتوا بمركب وحملوني عليه معهم إلى ديارهم، وصحبت بعض التجار الساكنين -أيضاً- بتونس، فأقمت عندهم في ضيافتهم على أرغد عيش مدة أربعة أشهر.

(14/6)

_____

إعلان أبي محمد الترجمان إسلامه أمام سلطان تونس

ثم بعد ذلك سألتهم: هل بدار السلطان أحد يحفظ لسان النصارى؟ وكان السلطان آنذاك مولانا أبو العباس أحمد رحمه الله، فذكر لي النصارى أن بدار السلطان المذكور رجلاً فاضلاً من أكبر خدامه اسمه يوسف، وكان طبيبه ومن خواصه، ففرحت بذلك فرحاً شديداً، وسألت عن مسكن هذا الرجل الطبيب، فدخلت عليه واجتمعت به، وذكرت له شرح حالي وسبب قدومي للدخول في الإسلام، فسر الرجل بذلك سروراً عظيماً بأن يكون تمام هذا الخير على يديه.

ثم ركب فرسه وحملني معه إلى دار السلطان، ودخل عليه فأخبره بحديثي واستأذنه لي، فأذن له، فمثلت بين يديه، فأول ما سألني السلطان عن عمري، فقلت له: خمسة وثلاثون عاماً.

ثم سألني عما قرأت من العلوم فأخبرته، فقال لي: قدمت قدوم خير، فأسلم على بركة الله.

فقلت للترجمان -وهو الطبيب المذكور-: قل لمولانا السلطان: إنه لا يخرج أحد من دينه إلا ويكثر أهله القول فيه، يعني: أهل الدين الذي كان عليه سيطعنون فيه ويشنعون عليه.

يقول: فقلت للترجمان: قل لمولانا السلطان: إنه لا يخرج أحد من دينه إلا ويكثر أهله القول فيه والطعن فيه، فأرغب من إحسانكم أن تبعثوا إلى الذين بحضرتكم من تجار النصارى وأحبارهم وتسألوهم عني، وتسمعوا ما يقولون في جنابي، وحينئذ أسلم إن شاء الله تعالى.

فقال لي بواسطة الترجمان: أنت طلبت ما طلب عبد الله بن سلام رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم حين أسلم.

فقصة إسلام الترجمان تتشابه مع إسلام الصحابي الجليل عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه، فكون يهودي يسلم شيء نادر؛ إذ قليل من اليهود الذين أسلموا في عصور كثيرة، فاليهود من أقسى خلق الله قلوباً، والعياذ بالله! فكون يهودي يسلم علامة اصطفاء من الله سبحانه وتعالى، فـ عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه من بني إسرائيل، ومن ولد يوسف بن يعقوب نبي الله عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ولما جاء قالوا: جاء نبي الله، فاستشرفوا ينظرون إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يختلس منها بعض البلح، فعجل أن يضع التي يختلس لهم فيها.

يعني: حين سمع أن الرسول عليه السلام أقبل إلى المدينة وهو يجمع البلح لأهله في طبق ليأكلوا منه ما شعر بنفسه، وانصرف إلى الرسول عليه السلام فوراً وهو يحمل هذا الطبق من شدة اهتمامه برؤية الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يجد وقتاً لأن يوصل الطبق إلى أهله أو يضعه في مكان معين، لكن انصرف بسرعة وهو يحمله إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فسمع من نبي الله صلى الله عليه وسلم، ثم رجع إلى أهله.

قال: فلما خلا نبي الله جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله حقاً، وأنك جئت بحق، ولقد علمت اليهود أني سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فأسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت؛ فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا في ما ليس في فأرسل نبي الله صلى الله عليه وسلم إليهم فدخلوا عليه، فقال لهم نبي الله صلى الله عليه وسلم: (يا معشر اليهود! ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق، أسلموا.

قالوا: ما نعلمه) أي: هذا الكلام الذي تقوله ما نعلمه (فأعادها عليهم ثلاثاً وهم يجيبونه كذلك، قال: فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا! قال: أفرأيتم إن أسلم؟! قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم! فقال: يا ابن سلام! اخرج عليهم.

فخرج إليهم فقال: يا معشر اليهود! ويلكم! اتقوا الله، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله حقاً، وأنه جاء بالحق.

فقالوا: كذبت! فأخرجهم النبي صلى الله عليه وسلم).

فلأجل هذا قال له السلطان: أنت طلبت ما طلب عبد الله بن سلام من النبي صلى الله عليه وسلم حين أسلم.

ثم قال: أرسل إلى أحبار النصارى وبعض تجارهم، وأدخلني في بيت قريب من مجلسه، فلما دخل النصارى عليه، قال لهم: ما تقولون في هذا القسيس الجديد الذي قدم في هذا المركب؟ قالوا له: يا مولانا! هذا عالم كبير في ديننا، وقالت شيوخنا: إنهم ما رأوا أعلى من درجته في العلم والدين في ديننا.

فقال لهم: وما تقولون فيه إذا أسلم؟! قالوا: نعوذ بالله من ذلك! ما يفعل ذلك أبداً.

فلما سمع ما عند النصارى بعث إلي فحضرت بين يديه وشهدت شهادة الحق بمحضر النصارى، فصلبوا على وجوههم.

وهذا معروف -والعياذ بالله- عند النصارى، فإنهم إذا أرادوا التعوذ من شيء رفعوا أصابعهم مضمومة على جباههم ثم أشاروا بعلامة في الصليب مروراً بالكتف الأيمن فالأيسر فالوسط.

وقد تتعدى هذه الإشارة من التعوذ إلى التبرك؛ حيث إن من يسمى (البابا) يطلب ذلك، ويطنون أنه بذلك يلقي عليهم البركات بإشارة التصليب والعياذ بالله! فالمهم أنهم لما سمعوا ذلك صلبوا على وجوههم، وقالوا: ما حمله على هذا إلا حب التزويج؛ فإن القسيس عندنا لا يتزوج.
وخرجوا مكروبين محزونين.
وتحريم الزواج هو في الكنيسة الكاثوليكية؛ لأن الكاثوليكية حرمت على القسس والرهبان والراهبات الزواج، وهذا أدى إلى الفساد الشديد في أوساط هؤلاء القوم، حتى إنهم كانوا يأتون الفواحش ويقولون: هذا نوع من المساكنة الروحية.
وكان هذا أحد أسباب قيام مرتن لوثر بثورته على الكنيسة في القرن السادس عشر، وكان ضمن آرائه فيما يسمى بالإصلاح الكنسي أن جزءاً من فساد الدين يرجع إلى عدم الزواج، ورأى أن المنع منه لم يكن في النصرانية في عصورها الأولى، فقرر حقهم في الزواج، وتزوج هو فعلاً من راهبة مع أنه من رجال الدين.
المهم أنهم قالوا: ما حمله على أن يدخل في الإسلام إلا أنه يريد أن يتزوج، والقسس عندنا لا يتزوجون.
وخرجوا مكروبين محزونين.
قال: فرتب لي السلطان -رحمه الله- ربع دينار في كل يوم في دار مختص، وزوجني ابنة الحاج محمد الصفار، فلما عزمت على البناء بها أعطاني مائة دينار ذهباً، وكسوة جيدة كاملة، فبنيت بها وولد لي منها ولد سميته محمداً على وجه التبرك باسم نبينا صلى الله عليه وسلم.
(14/7)

_____

خدمة أبي محمد الترجمان للإسلام في بيان بطلان دين النصرانية

ثم شرع الشيخ الترجمان في ذكر طرف من أخبار الدولة الحفصية التي خدم في ديوانها، ثم أردفها بأبواب تسعة في الكتاب تكلم فيها عن كتب الأناجيل الأربعة متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، وأكد فيها أنهم ليسوا من حواري المسيح عليه السلام بأدلة علمية دقيقة، ثم ناقش قضايا التعميد الذي هو التغطيس، والأقانيم، والخطيئة الأولى، والعشاء الرباني، وصك الغفران، وقانون الإيمان، وفندها كلها بنصوص الأناجيل وبأدلة العقل والمنطق.
ثم أثبت بشرية المسيح عليه السلام، ونفى إلاهيته المزعومة، ثم عرض التناقضات في نصوص الأناجيل المحرفة، ثم تعرض لما يعيبه النصارى على المسلمين، كزواج العلماء والصالحين، والختان، والنعيم الحسي في الجنة، ثم ختم كتابه بإثبات نبوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان فضله ومنزلته بنصوص من التوراة والإنجيل.
فهذا باختصار مرور عابر على سيرة هذا الشيخ، وجهاده بقلمه ولسانه في سبيل الله عز وجل، أما جهاده بيده فقد اشترك رحمه الله تعالى في جهاد بني جلدته من الكافرين في حملة الصور الحفصي على جزيرة صقلية سنة ست وتسعين من الهجرة، فقد كان يتولى منصب القائد البحري، حتى إنه روي أنه استشهد أثناء الغارة الصليبية على تونس، فإن صحت هذه الرواية فهذا شرف عظيم يضاف إلى سجله الناصع في خدمة دين الحق والجهاد في سبيله، ولا شك في أن سيرة الشيخ الترجمان منار ينير الدرب للتائهين في لجج الظلام ودياجير الجهل، ويحرر عقولهم من أسر التقليد الأعمى لمن لا يملكون لهم رزقاً ولا أجلاً.
فرحم الله الشيخ الترجمان وأعلى درجته في المهديين.
(14/8)

_____

علو همة القسيس رحمة برلومو في البحث عن الحق

وننطلق الآن إلى العصور المتأخرة من هذا الزمان لنتعرض لنموذج من نماذج علو الهمة في البحث عن الدين الحق، وصاحب هذه القصة هو الأخ: رحمة برلومو، وهو رجل ينتسب إلى أب هولندي وأم أندونيسية من مدينة أنبول الواقعة في جزيرة صغيرة في أقصى الشرق من جزر إندونيسيا، والنصرانية هي الدين الموروث لأسرته أباً عن جد، كان جده قسيساً ينتمي إلى مذهب البروتستانت، وكان أبوه أيضاً قسيساً، وكانت

والدته معلمة الإنجيل للنساء، أما هو نفسه فقد كان قساً ورئيساً للتبشير في كنيسة بيجن إنجلتلوا.
(14/9)

_____

شدة عداوة النصارى لمحمد ودينه

قال وهو يحكي سبب إسلامه: لم يخطر ببالي ولو للحظة واحدة أن أكون من المسلمين؛ إذ إنني منذ نعومة أظفاري تلقيت التعليم من والدي الذي كان يقول لي دائماً: إن محمداً رجل بدوي صحراوي، ليس له علم ولا دراية، ولا يقرأ، وإنه أمي.

وهذا من جهلهم الفاحش وعدوانهم؛ لأن الكتابة لا تتعين سبيلاً لتحصيل العلم، فهناك سبل أخرى خاصة، كالوحي من الله سبحانه وتعالى، فهذا أعظم منبع يستقى منه العلم.

يقول: هكذا علمني أبي، بل أكثر من ذلك، فقد قرأت للبروفيسور الدكتور: ريكونجي النصراني الفرنسي قوله في كتاب له -وهي عبارة شنيعة جداً -والعياذ بالله- من كذب وافتراء هؤلاء المجرمين وعدوانهم على الله وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم- يزعم فيه أن محمداً رجل كذاب والعياذ بالله! يعني: ينسبونه إلى الكذب حاشاه عليه الصلاة والسلام، ويزعم هذا الكافر أنه يسكن في الدرك السابع من النار، فلعنة الله على قائل ذلك.

هكذا كانت تساق المفتريات الكثيرة لتشويه شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، ولا شك في أن التضليل الإعلامي اليهودي خاصة على مستوى العالم يعتبر سبباً كبيراً جداً في صد الناس عن دين الإسلام، وإلا فهناك ملايين من البشر -والله تعالى أعلم- لو أزيلت عنهم الحجب والحواجز والتشويه والتشنيع على الإسلام ووصلت إليهم الصورة الحقيقية لأسلم منهم عدد هائل، لكن الحقائق مغيبة ومزيفة في نظرهم بفعل اليهود -لعنهم الله- وإخوانهم من النصارى، وهذا ما أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام في حديث عن الميت: (إذا وضع في قبره أنه يسأل عن ثلاثة أمور: من ربك؟ وما دينك؟ وما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟).

أما المؤمن فيشهد شهادة الحق، وأما الكافر فعندما يقال له: وما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم فلا يهتدي لاسمه، ولا يدري من هو هذا الرجل، فيقال له: محمد. يذكر باسم محمد عليه الصلاة والسلام، فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

فهذا غاية ما عند هؤلاء الكفار، أي: أنهم يرددون ما يقوله الآخرون دون تمحيص ودون تحرٍ أو تحقق وتثبت من صدق هذا الكلام، وهو متعلق بأخطر قضية في الوجود، وهي علاقة المرء بربه سبحانه وتعالى ودينه الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

فنحن -بلا شك- نقطع ونجزم بأن كل إنسان بلغته دعوة الإسلام، وسمع عن الإسلام أو عن القرآن أو عن محمد عليه الصلاة والسلام ثم لم يسلم فلن يدخل الجنة، فمن بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام سدت كل الطرق المؤدية إلى الجنة، وبقي طريق واحد فقط يدخل الناس منه الجنة هو طريق محمد صلى الله عليه وسلم، فلا يتصور أبداً أن أي كافر من أي دين سمع عن الإسلام أو عن الرسول والقرآن ثم لم يسلم أن تكون له نجاة، والعجب كل العجب مما يفعله السفهاء والزنادقة من قولهم: إسحاق رابين رحمه الله! وإسحاق رابين صانع السلام.

فماذا حصل في عقول الناس؟! بل إنه لما قتل كان الملك حسين يتمنى موتة مثل موتته، فقد قال: أتمنى أن أموت بنفس الميتة، وربنا كريم! والله إن الإنسان ليعجب من هذه الرقة والعذوبة واللين والحب والبكاء، إن زوجة الملك حسين بقيت قرابة أربع ساعات تبكي بكاء متصلاً، وقيل: بل شهرين أو ثلاثة! فهل العلاقات الودية وصلت إلى هذا الحد! وهذا الخبيث الهالك لما عقد معاهدة السلام مع الأردن قال الملك حسين: أما آن اليوم لعلاقاتنا أن تصبح علانية؟! فالشاهد أن هؤلاء رضوا بأن ينحازوا إلى معسكر أعداء الله وأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن نجزم ونقطع قطعاً كما أننا نقطع بأن الشمس -إن شاء الله- ستشرق من المشرق غداً أن هذا الرجل مات على الكفر، فهو هالك، ونسأل الله إن كان كذلك أن يملأ قبره عليه ناراً، وأن يلحق به كل من يحبونه ويعتبرونه صانعاً للسلام، فهذه في الحقيقة كانت جنازاتهم

وليست جنازته هو، فالإنسان يعجب مما يحصل في هذه العقول من الافتتان بهذه الصورة! والرجل هو الذي كان يقول: إن إسرائيل عليها أن تستعد لحرب ضد مصر أو ضد العرب.

وأيام ذلك حصلت أزمة كبيرة معروفة.

فما زالوا حتى الآن يسنون لنا السكين، ونحن نقول عن إسحاق رابين: إنه صانع السلام.

ويده هي التي تلوثت بقتل فتحي الشقاقي في جزيرة مالطا، فأخذه الله سبحانه وتعالى أخذ عزيز مقتدر، وبيد خبيث من خبثائهم أيضاً، والشخص الذي قتله تجد الكلام عليه في منتهى الاحترام، فإنه لم يوصف هذا اليهودي القاتل -على زعمهم- بأنه إرهابي متطرف، فما هو السر؟ إن السر هو أنه متدين، وقد قال: أنا فعلت ذلك عن عقيدة، فهذا رجل خان إسرائيل، وفرط في أرض إسرائيل.

ومع ذلك ما جرؤ أحد أبداً أن يقول عنه: إنه إرهابي.

لم يشتم بالشتائم، ولو أن مسلماً فل أهون من ذلك بكثير لرموه بالإرهاب والتطرف، أن كل يهودي متطرف، وكل نصراني متطرف، وكل من حاد عن الإسلام وعن منهج أهل السنة هو المتطرف في الحقيقة، لكن المسألة عبارة عن أدوار تتوزع بينهم، فمن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه يسلط بعض الظالمين على بعض، ويخرج المؤمنين الموحدين من بينهم سالمين، فلاشك في أن هذه من آيات الله سبحانه وتعالى.

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يلحق بـ إسحاق رابين كل من يترحم عليه، وكل من يحبه، والمرء يحشر مع من أحب.

وكلنتون يمدحه بالزهد في الدنيا، وأنه كان رجلاً زاهداً مكث طول عمره لا يعرف ربطة العنق (الكرفته).

ومن الغرائب العجيبة أن هذا الخبيث الهالك قبل موته بفترة قليلة أصدر أمراً بمنع ياسر عرفات من دخول القدس، فلذلك منع من حضور الجنازة، وإلا فقد كان أول الناس الذين سيقومون بما يرونه واجباً بالنسبة لهم، لكن هذا الخبيث الهالك كان قد أصدر أمراً بمنع عرفات من دخول مدينة القدس، فقد كان في بيئة شديدة التعصب لهذه الملة المحرفة.

فالمهم: أن رحمة برلومو كان قسيساً، بل رئيساً للتبشير في كنيسة بيجن إنجلتلوا، قال وهو يحكي سبب إسلامه: لم يخطر ببالي ولو للحظة واحدة أن أكون من المسلمين.

ويقول: وهكذا كانت تساق المفتريات الكثيرة لتشويه شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنذ ذلك الحين تولدت لدي فكرة مغلوطة راسخة تدفعني إلى رفض الإسلام وعدم اتخاذه ديناً لي.

ثم يقول: والواقع أنه لم يكن من أهدافي بحال من الأحوال أن أبحث عن دين الإسلام، ولكني قررت بأن أهتدي إلى الحق، ولكن لما كنت أبحث عن الحق المجهول كنت أتساءل: لماذا كنت أبحث عن الحق المجهول؟! ولماذا تركت ديني رغم أنني كنت أتمتع فيه بمكانة مرموقة بين قومي؟! حيث كنت رئيس التبشير المسيحي في الكنيسة، وكنت أحيا حياة كلها رفاهية ويسر، إذاً: لماذا اخترت الإسلام؟!

(14/10)

مدرس تحفيظ يشكك القسيس رحمة برلومو في عقيدته

يقول: في يوم من الأيام أرسلتني قيادة الكنيسة للقيام بأعمال تبشيرية لمدة ثلاثة أيام ولياليها في منطقة دايدي التي تبعد عن العاصمة الواقعة في شمال جزيرة سومطرة بضع مئات من الكيلومترات، يقول: ولما انتهيت من أعمال التبشير والدعوة، وآويت إلى دار مسئول الكنسية في تلك المنطقة، وكنت في انتظار وصول سيارة تقلني إلى موقع عملي، وإذا برجل يطلع علينا فجأة، لقد كان معلماً للقرآن، وهو ما يسمى في إندونيسيا مطوِّع في الكتّاب، وهو بهذه الهيئة المتواضعة، لقد كان الرجل ملفتاً للأنظار، كان نحيف الجسم، دقيق العود، يرتدي كوفية بيضاء بالية خَلِقة، ولباساً قد تبدل لونه من كثرة الاستعمال، حتى إن نعله كان مربوطاً بأسلاك ليصد قدمه، اقترب الرجل مني، وبعد أن بدأني بالتحية بادرني بالسؤال التالي، وكان سؤالاً غريباً من نوعه،

قال: لقد ذكرت في حديثك أن عيسى المسيح إله، فأين دليلك على إلاهيته؟! فقلت له: سواء أكان هناك دليل أم لا فالأمر لا يهمك، إن شئت فلتؤمن وإن شئت فلتكفر. وهنا أدار الرجل ظهره لي وانصرف.

يقول: ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فقد أخذت أفكر في قرارة نفسي وأقول: هيهات هيهات أن يدخل هذا الرجل الجنة؛ لأنها مخصصة فقط لمن يؤمن بإلاهية المسيح فحسب، هكذا كنت أعتقد جازماً آنذاك! ولكن عندما عدت إلى بيتي وجدت أن سؤال الرجل يزلزل فروعي، ويدق بقوة في أسماعي، مما دفعني إلى الرجوع إلى كتب الإنجيل بحثاً عن الجواب الصحيح على سؤاله، ومعلوم أن هناك أربعة أناجيل مختلفة: أحدها: متى، والثاني: مرقس، والثالث: لوقا، والرابع: إنجيل يوحنا، وهذه أسماء من ألف كل إنجيل منها، أي أن الأناجيل الأربعة المشهورة هي من صنع البشر، وهذا غريب جداً! ثم سألت نفسي: هل هناك قرآن بنسخ مختلفة من صنع البشر؟! وجاءني الجواب الذي لا مفر منه: لا يوجد. فهذه الكتب وبعض الرسائل الأخرى هي فقط مصدر تعليم الديانة المسيحية المعتمدة.

وأخذت أدرس الأناجيل الأربعة، فماذا وجدت؟! هذا إنجيل متى نقرأ فيه ما يلي: إن عيسى المسيح ينتسب إلى إبراهيم وإلى داود إلى آخره.

إذاً: من هو عيسى؟! أليس من بني البشر؟ نعم.

إذاً: فهو إنسان.

وهذا إنجيل لوقا يقول: ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية.

وهذا إنجيل مرقس يقول: هذه سلسلة من نسب عيسى المسيح إلى آخر الكلام البشع الذي يزعمون فيه أنه ابن الله.

وأخيراً: ماذا يقول إنجيل يوحنا عن عيسى المسيح عليه السلام؟! إنه يقول: في البدء كان الكلمة عند الله، وكانت كلمة الله.

ومعنى هذا النص أنه في البدء كان المسيح عند الله، والمسيح هو الله.

فقلت لنفسي: إذاً: هناك خلاف بين هذه الكتب الأربعة حول ذات المسيح عليه السلام، أهو إنسان، أم ابن الله، أم ملك، أم هو الله؟ لقد أشكل علي ذلك، ولم أعثر له على جواب، وهنا أحب أن أسأل إخواني النصارى: هل يوجد في القرآن الكريم تناقض بين آية وأخرى؟! لا، لماذا؟! لأن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى، أما هذه الأناجيل فهي من تأليف البشر، إنكم تعرفون -ولاشك- أن عيسى عليه السلام كان طيلة حياته يقوم بأعمال الدعوة إلى الله هنا وهناك، ولنا أن نتساءل: ترى ما هو المبدأ الأساسي الذي كان يدعو إليه المسيح عليه السلام؟ هذا إنجيل مرقس يقول: فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه -يعني المسيح- أجابهم حسناً سأله: أية وصية هي الأولى؟ أي أن هذا الرجل سأل المسيح: ما هي أهم وصية؟ فأجابه اليسوع قائلاً: إن أولى الوصايا هي: (اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد، فهذا اعتراف صريح من عيسى عليه السلام.

إذاً: لو كان عيسى قد اعترف أن الله هو الإله الواحد الأحد فمن هو عيسى إذاً؟ ولو كان عيسى هو الله أيضاً فلن تكون هناك وحدانية لله، أليس كذلك؟! ثم واصلت البحث فوجدت في إنجيل يوحنا نصوصاً تشير إلى دعاء المسيح عليه السلام وتضرعه إلى الله سبحانه وتعالى، فقلت لنفسي: لو كان عيسى هو الله فهل يحتاج إلى هذا التضرع والدعاء؟! إذاً: عيسى ليس إلهاً، بل هو مخلوق، استمع معي إلى الدعاء الذي ورد في إنجيل يوحنا، وهذا هو نص الدعاء، يقول المسيح في نهايته: (أيها الرب البار! إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتك، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني وعرفتهم اسمك، وسأعرفهم ليكون فيه الحب الذي أحببتني به).

هذا الدعاء يمثل اعترافاً من عيسى عليه السلام بأن الله هو الواحد الأحد، وأن عيسى هو رسول الله المبعوث إلى قوم معينين، وليس إلى جميع الناس، وأن هذه الحقيقة ظاهرة مثل الشمس أن المسيح نفسه لم يدع غير بني إسرائيل، حتى منع الحواريين من أن يبلغوا غير بني إسرائيل رسالته، فمن زعم بأن النصرانية دين عالمي تكذبه التوراة، ويكذبه الإنجيل نفسه؛ لأن عيسى نفسه قال: (لم أبعث إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة).

وكما قال تعالى: {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [آل عمران:49]، فالمسيح ما دعا إلى عالمية دعوته؛ لأنه لا توجد رسالة عالمية إلا الإسلام، فهذه من خصائص رسولنا صلى الله عليه وسلم، فقد كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى الناس عامة.

فموضوع التبشير أصله الخروج عن حقيقة النصرانية؛ لأنها دين لقوم معينين، وهم بنو إسرائيل.

يقول: إن عيسى هو رسول الله المبعوث إلى قوم معينين، وليس إلى جميع الناس، فأي قوم هم هؤلاء يا ترى؟! نقرأ جواب ذلك في إنجيل متى حيث يقول: (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة) إذاً: لو ضممنا هذه الاعترافات إلى بعضها لأمكننا أن نقول: إن الله هو الواحد الأحد، وأن عيسى عليه السلام هو رسول الله إلى بني إسرائيل.

يقول: ثم واصلت البحث.

وانظر إلى كل هذا الحوار بينه وبين نفسه نتيجة سؤال واحد سأله رجل احتقره وازدراه، وقال: هذا لا يمكن أن يدخل الجنة بسبب هيئته ومنظره، ولكونه مسلماً.

لكن لما عاد إلى البيت وتفكر في الكلمة أحس أن الإنسان حينما يدعو الناس إلى الهداية لا يملك شيئاً، فاستحضر أنك أنت لا تملك شيئاً، فالقلب لا يملكه إلا الله سبحانه وتعالى، عليك أن تضع البذرة في التربة بكلمة، أو بنصيحة، أو بموقف، أو بمجرد أن تصلي أمام الكافر.

فلا تجهل أبداً في أن تضع البذرة في أماكن النماء، قال تعالى {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} [الواقعة:64]، الله هو الذي يزرع شجرة الإيمان في القلب، لكن في البداية لابد من أن يكون هناك بذرة توضع في القلب، ثم إذا كانت أرض هذا القلب تربة صالحة وطويلة فإنها تثمر وتنمو وتترعرع إلى أن تنبت فيها شجرة الإيمان.

أما إذا كانت أرضاً غير صالحة فقد قامت حجة الله على هذا الكافر، وقلبه حينئذ كأرض لا تنبت ولا تمسك الماء ولا تنبت فيها هذه البذرة، فهذا أمره إلى الله سبحانه وتعالى.

يقول: ثم واصلت البحث فتذكرت أنني حين أكون في صلاتي أقرأ دائماً العبارات الآتية التالية: الله الأب! الله الابن! الله روح القدس! ثلاثة في شخص واحد، قلت لنفسي: أمر غريب حقاً، فلو سألنا طالباً في الصف الأول الابتدائي: هل واحد مع واحد مع واحد يساوي ثلاثة لقال: نعم.

ثم إذا قلنا له: ولكن هل الثلاثة تساوي الواحد لما وافق على ذلك، إذ إن هناك تناقضاً صريحاً فيما نقول؛ لأن عيسى عليه السلام يقول في الإنجيل: إن الله واحد لا شريك له.

ولذلك فالنصارى دائماً يحاولون أن يلبسوا على الناس، ويتكلمون باعتبار أنهم من أهل الديانات التوحيدية، ويقولون: نحن وسائر الديانات التوحيدية.

فهم يعرفون أن هذه عورة، بل أقبح عورة في ديانتهم تدل على أنهم -في الحقيقة- مدلسون مشركون، ثم يتظاهر أحدهم بأنه موحد، وإذا حاولت أن تناقش أحدهم وتسأله: كيف يتم الجمع بين هذا التناقض فإنه يهرب من هذه الحقيقة دائماً، كما حصل مع هذا الرجل أيضاً، وهذا فيه إشارة إلى أن الديانات الإبراهيمية بريئة من هؤلاء وهؤلاء، وإبراهيم كان حنيفاً مسلماً ولم يك من المشركين، وكذلك المسيح بريء منهم، وكذلك موسى بريء منهم، فلا اليهودية ديانة توحيدية، ولا النصرانية ديانة توحيدية، صحيح أن اليهود يدعون إلى عبادة رب واحد، لكنهم يصفون هذا الإله بأوصاف تجعلهم كافرين به وغير موحدين، ثم أنهم كفروا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وكفروا بعيسى، فهم لذلك -أيضاً- كفار، وكذلك الأمر بالنسبة للنصارى.

يقول: لقد حدث تناقض صريح بين العقيدة التي كانت راسخة في نفسي منذ أن كنت طفلاً صغيراً -وهي: ثلاثة في واحد- وبين ما يعترف به المسيح عيسى بنفسه في كتب الإنجيل الموجودة أن الله واحد أحد لا شريك له، فأيهم هو الحق؟! لم يكن بوسعي أن أقرر آنذاك، والحق يقال بأن الله واحد أحد، فأخذت أبحث في الإنجيل مرة أخرى لعلي أقع على ما أريد، فوجدت فيه النص التالي: (اذكروا الأوليات منذ القديم؛ لأني أنا الله الإله، وليس آخر، وليس مثلي).

ولقد كانت دهشتي عظيمة حين اعتنقت الإسلام فوجدت في سورة الإخلاص قول الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص:1 - 4].

نعم، ما دام أن الكلام كلام الله فهو لا يختلف حيثما وجد، فهذا هو التعليم الأول أو البدهية الأولى في ديانة المسيحية السابقة، فعقيدة أن الثلاثة في واحد لم يعد لها وجود في نفسي.

_____

القضية الهامة التي حولت القسيس من النصرانية إلى الإسلام

ثم ينتقل الأخ رحمة برلومو الأندونيسي إلى نقطة جوهرية أخرى جعلته يختار الإسلام ديناً، فهو يقول: أما البدهية الثانية في الديانة المسيحية فتقول بأن هناك ما يسمى بالخطيئة الأولى التي هي الخطيئة الأصلية، وهذه من أعمدة الديانة النصرانية، ويقصد بهذا أن الذنب الذي اقترفه آدم عليه السلام عندما أكل الثمرة المحرمة عليه من الشجرة في الجنة، فهذا الذنب سوف يرثه جميع بني البشر حتى الجنين في رحم أمه، فيتحمل هذا الإثم ويولد آثماً، فهذه هي الخطيئة الأصلية، وهي من أساسيات العقيدة النصرانية.

فالخطيئة الأصلية هي التي ارتكبها آدم حينما عصى الله سبحانه وتعالى في الجنة، يقولون: إن الله سبحانه وتعالى طرده من الجنة، وإن هذه الشجرة كانت شجرة المعرفة.

فيقولون: إن الله كان يخشى أن آدم لو أكل منها ستصبح عنده بصيرة، فلما أكل منها وأصبحت عنده بصيرة غضب الله عليه.

لأن هذا المفهوم الذي عندهم من التناقض بين العلم والدين انعكس في هذا الافتراء الذي افتروه فقالوا: إن الله كان حريصاً على أن لا يكون عند آدم علم أو معرفة، ولذلك حرم عليه هذه الشجرة، والعياذ بالله، فهذا كله من كذبهم! ومن ثم حصلت المعاداة بينهم وبين العلم والدين، أما نحن فعندنا أن أول كلمة نزلت في القرآن الكريم قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق:1]، ورفع شأن العلم والدليل والحجة والبرهان في الإسلام أمر غني عن التعريف.

فهم يعتقدون أن كل بني آدم صاروا ملوثين بهذه الخطيئة، فكل من يولد يولد ملوثاً بالخطيئة الأصلية! أما نحن فنؤمن قطعاً بأن الله سبحانه وتعالى قد تاب على آدم عليه السلام لما تاب وأناب إلى الله، قال تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:37] ثم تم اهباطه إلى الأرض، وهذه المصيبة كتبت على بني البشر، فهي قدر قدره الله سبحانه وتعالى، أي: قدر أن يهبط إلى الأرض لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى، فأما آدم فحينما أهبط إلى الأرض كان قد تاب الله عليه.

فهكذا كانت كل الأجيال السابقة للمسيح -بزعمهم- ملوثة بخطيئة آدم، فيجعلون الحقد والأيام السوداء يوم خروج الجنين من بطن أمه؛ لأنه خرج ملوثاً، ونحن -ولله الحمد- في الإسلام حينما نريد ضرب المثل بالنقاء والطهارة من الآثام نقول كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه)، فكلمة (كيوم ولدته أمه) تعني: أنه صفحة بيضاء لا خطيئة عليها ولا ذنب، بل على الفطرة التي هي فطرة الإسلام.

وعندهم أن من أشد الأيام سواداً أول حياة المولود؛ لأنه ولد من أول يوم وهو ملوث بخطيئة لم يرتكبها ولا عنده خبر بها.

فالشاهد أنهم يزعمون أنه لا توجد طريقة أبداً لمحو هذا الأمر عن البشرية إلا بأن ينزل ابن الله في زعمهم ويتجسد ويصلب كي يفدي البشرية! وقبل هذا الأمر أين كانت البشرية؟! كان يوجد أنبياء، كآدم عليه السلام، ونوح، وصالح، وهود، وكل هؤلاء الأنبياء -حتى موسى عليه السلام وأنبياء بني إسرائيل قبل المسيح عليه السلام- وكل المؤمنين وعامة البشر قبل المسيح -والعياذ بالله- كانوا محبوسين في سجن جهنم بسبب خطيئة آدم، وما خرجوا إلا بعملية الفداء هذه! أما بالنسبة لموضوع التعميد والتغطيس فهذا -أيضاً- من أصول دينهم، وهذا هو التناقض، فإذا كانوا يزعمون أن المسيح -والعياذ بالله- بصلبه المزعوم طهر البشرية من الخطيئة الأصلية فلماذا

يقولون: إن كل مولود يولد ملوثاً بالخطيئة الأصلية، فلذلك يحتاج إلى التعميد والتغطيس من أجل أن يزول عنه أثر هذه الخطيئة؟! ما فالمفروض أن تكون البشرية كلها قد تطهرت، وهذا من التناقض أيضاً، فإذا كان كل طفل محتاجاً إلى أن يغسل من الخطيئة بهذا التعميد وهذا التغطيس، وهذا الذنب سوف يرثه جميع بني البشر حتى الجنين في رحم أمه يتحمل هذا الإثم ويولد آثماً، فهل هذا صحيح أم لا؟! لقد أخذت أبحث عن حقيقة ذلك، فلجأت إلى العهد القديم الذي هو التوراة.

والعهد القديم لا توجد فيه أدنى إشارة إلى التثليث، فكيف بحقيقة الإله -في زعمكم- يخلو منها كتابكم المقدس أو الجزء الأول من الكتاب المقدس الذي هو العهد القديم أو التوراة؟! كيف تكون هذه الأمور مخفية؟! فالرسل بهذا كانت تأتي لتضل الناس وتكتم عنهم الحقائق! فهذا يدل على أن هذه عقيدة مخترعة وعقيدة طارئة من تحريفاتهم كما هو معلوم.

يقول: فلجأت إلى العهد القديم فوجدت في حزقيل ما يلي: (الابن لا يحمل من اسم الأب، والأب لا يحمل من اسم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون، فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحصل كل فرائضي، وفعل حقاً وعدلاً فحياة يحيا لا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه).

وهذا موجود في القرآن بصورة واضحة، قال تعالى: {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى} [النجم: 38 - 41].

ولعل من المناسب هنا أن نذكر ما يقوله القرآن الكريم في هذا المقام: {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [فاطر:18].

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (يولد ابن آدم على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، فهذه هي القاعدة في الإسلام، ويوافقها ما جاء في الإنجيل، فكيف يقال: إن خطيئة آدم تنتقل من جيل إلى جيل وأن الإنسان يولد آثماً؟! يقول الأخ رحمة برلومو الأندونيسي: إذاً: هذه التعاليم المسيحية قد اتضح بطلانها وافتراؤها بنص صحيح من الكتاب الموصوف بالمقدس نفسه.

وهناك البدهية الثالثة في التعاليم النصرانية التي تقول: إن ذنوب بني البشر لا تغفر حتى يصلب عيسى عليه السلام، ولقد أخذت أفكر في هذه البدهية وأتساءل: هل هذا صحيح؟! وكان الجواب الذي لا مفر منه: لا؛ لأن النص الآنف الذكر من العهد القديم ينفي مثل هذا الاعتقاد بقوله: (فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحصل كل فرائضه، وفعل حقاً وعدلاً فحياة يحيا لا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه).

أي أن الله يغفر ذنوبه دون حاجة إلى أية وساطة من أحد، ويمضي الأخ الأندونيسي الذي كان قساً في يوم من الأيام ضمن رحلته الطويلة من الكفر إلى الإسلام فيقول: لقد واصلت البحث في عدد من القضايا الاعتقادية الأخرى، لقد وضعت يوماً من الأيام كلاً من الإنجيل والقرآن أمامي على المنضدة، ووجهت السؤال التالي إلى الإنجيل، قلت له: يا إنجيل! ماذا تعرف عن محمد عليه الصلاة والسلام؟! فقال: لا شيء؛ لأن اسم محمد غير مذكور في الإنجيل.

ثم وجهت السؤال التالي إلى عيسى كما تحدث عنه القرآن، فقلت: يا عيسى بن مريم! ماذا تعرف عن محمد عليه الصلاة والسلام؟ فقال: لقد ذكر القرآن بما لا يدع مجالاً للشك أن رسولاً لا بد من أن يأتي من بعدي اسمه أحمد، يقول تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الصف:6] فأي ذلك حق يا ترى؟! ثم يقول: هناك إنجيل واحد هو إنجيل برنابا، وهو غير الأناجيل الأربعة التي ذكرناها من قبل، وهذا الإنجيل -للأسف- حرم رجال الدين النصارى على أتباعهم الاطلاع عليه، أتدري لماذا؟! الأرجح هو أن هذا الإنجيل هو الوحيد الذي يتضمن البشرى بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتحل فيه الإضافات والتحريفات حداً أدنى، كما أن فيه حقائق تطابق ما جاء في القرآن الكريم، فقد جاء إنجيل برنابا: (وقتئذٍ يسأل فيه التلاميذ المسيح: يا

معلم! من يأتي بعدك؟ فقال المسيح بكل سرور وفرح: محمد رسول الله، سوف يأتي من بعدي كالسحاب يظل المؤمنين جميعاً)
يقول الأخ رحمة برلومو: ثم قرأت جملة أخرى في إنجيل برنابا، وهي قوله: (وقتئذٍ يسأل التلميذ المسيح: يا معلم! حين يأتي محمد ما هي علامته حتى نعرفه؟ فقال المسيح: محمد لا يأتي في عقدنا هذا، وإنما يأتي بعد مئات السنين حين يحرف الإنجيل، والمؤمنون حينئذ لا يبلغ عددهم ثلاثين نفراً، فحينئذٍ يرسل الله سبحانه وتعالى خاتم الأنبياء والمرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم).
لقد تردد ذكر ذلك في إنجيل برنابا عدة مرات، أحصيتها فوجدت أن فيه خمسة وأربعين جملة تذكر محمداً صلى الله عليه وسلم، وقد اكتفيت بالجملتين السابقتين على سبيل الاستشهاد.
ثم قال الأخ رحمة برلومو: ومن التعاليم البدهية في الديانة المسيحية أن عيسى عليه السلام هو المنقذ المخلص للعالم، أي أنك إذا آمنت بإلهية عيسى سوف تنجو، وهذا يعني أنه يمكنك أن تفعل ما تشاء غير العمل بالذنوب والمعاصي، ما دمت تؤمن بعيسى كمنقذ لك، شريطة أن تكون على يقين بأنك من التابعين، فقلت لنفسي: لا بد من أن أبحث في الإنجيل وأعرف الحق من الباطل في ذلك، في أعمال الرسل رسالة بولس الأولى إلى أهل بولنتس يقول: (الله قد أقام الرب، وسيقيمنا نحن أيضاً بقوته).
ثم يقول: إنه جاء في القصة أيضاً في كتبهم أنهم لما قبضوا على المسيح عرضوه أمام العدالة، فحكم عليه بالصلب، ثم دفن، فهنا تأتي الآية المناسبة لتلك القصة، فيقول: لقد تأملت هذا طويلاً ثم قلت: إذا لم يتدخل الله في إقامة المسيح من القبر لبقي مدفوناً تحت التراب إلى يوم القيامة، إذاً: ما دام المسيح لم يستطع إنقاذ نفسه فكيف يكون بوسعه إنقاذ الآخرين؟ هل يليق بإله -كما يزعمون- أن ي

تنقل القسيس رحمة برلومو بين الكنائس النصرانية
ثم يقول عند ذلك عزمت على الخروج من الكنيسة وعدم الذهاب إليها، وكان ذلك سنة ألف وتسعمائة وتسعة وستين، حيث خرجت فعلاً ولم أعد أتردد على الكنيسة، وليس معنى ذلك أنني خرجت ذلك الحين من الديانة النصرانية نفسها؛ لأنه -كما هو معلوم- هناك كنائس ومذاهب شتى في الديانة النصرانية، فهناك الكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذكس، وغيرها كثير، حتى إنني أستطيع أن أقول: هناك أكثر من ستين وثلاثمائة مذهب في الديانة النصرانية، فصدق الله العظيم حيث يقول: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام:153].
ثم قال: وقد يقول قائل: إن في الإسلام أيضاً توجد مذاهب وطوائف عدة، فهناك المذاهب الأربعة المعروفة: الحنفية والشافعية والحنبلية والمالكية وغيرها؟!
و
الجواب
إن أتباع هذه المذاهب لا يختلفون في أصول الدين، بل يتفقون جميعاً على أن الله واحد لا شريك له، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يتفقون في أركان الإسلام الخمسة، وجوانب الخلاف بينهم في الفروع فقط لا في الأصول، وخلافهم رحمة، كما ورد في الأثر.
أما في الديانة المسيحية فالأمر مختلف تماماً، فالخلاف في صلب العقيدة، وهذا هو الفارق بين الإسلام والنصرانية، ومهما اختلفت المذاهب في الإسلام فإنك لن تجد مسجداً يخص مذهباً معيناً دون سائر المساجد، بل على العكس من ذلك، فإذا نادى المنادي للصلاة تجد كل مسلم يدخل أقرب مسجد ليصلي فيه، ولكن الأمر مختلف تماماً في الديانة النصرانية، فكل كنيسة تتبع مذهباً معيناً، ولا يدخلها إلا أتباع ذلك المذهب فحسب.
فالكاثوليكي لا يصلي في كنيسة الأرثوذكس، والبروتستانتي لا يصلي هو الآخر في كنيسة كاثوليكية، وهكذا.
ثم قال: وذات يوم لقيت صديقاً لي، فدعاني إلى الكاثوليكية، وأخذ يعدد مميزات هذا المذهب، ولم أجد مثلها في المذهب الفلاني، فقال صديقي: عندنا في الكاثوليكية توجد

حجرة الغفران، وهي عبارة عن غرفة في الكنيسة يجلس فيها قس ذو لحية كثيفة يرتدي لباساً أسود، ويقعد على كرسي عالٍ، ومن طلب العفو والغفران ذهب إليه وردد بعض الألفاظ غير المفهومة، وما إن يكاد يفرغ من قراءتها حتى يقال له بأنه بريء من ذنوبه ويرجع كيوم ولدته أمه، وهكذا قال لي صديقي: ويرجع كيوم ولدته أمه.

وأضاف قائلاً: كل ما تقترف يداك من الذنوب خلال أيام الأسبوع كفيلة بأن يغفر لك عند ذهابك إلى الكنيسة يوم الأحد، وحصولك على الغفران.

فأنت لا تحتاج إلى الصلاة ولا إلى العبادة، ولكن إذا تركت ذلك كله وذهبت إلى القس واعترفت أمامه غفرت ذنوبك.

يقول الأخ رحمة برلومو: لقد تذكرت ما يفترضه الإسلام في ذلك، وهو أن البشر مهما علت رتبة أحدهم لا يمكن أن يوكل إليه غفران ذنوب العباد، كما أن التوبة والمغفرة لا تسقط التكاليف والفرائض، بل لا بد للتائب من أن يؤدي الصلوات الخمس اليومية في أوقاتها، فإذا تركها فلا قيمة لتوبته، وعليه إثم كبير، ولا يمكن أن يتحمله عنه غيره من الناس، قال تعالى: {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [فاطر:18].

ثم يقول: لقد رأيت الداخلين إلى حجرة الغفران في الكنيسة عليهم أمارات الحزن والكآبة لثقل الذنوب، بينما رأيت من يخرج منها وقد علت وجهه ابتسامة الفرح؛ لاعتقاده بأن ذنوبه قد غفرت له، أما أنا فحين جربت تلك الغرفة دخلتها حزيناً وخرجت منها حزيناً؛ لأنني كنت أفكر وأتساءل: هذه ذنوبنا يتحملها القس، ولكن من يتحمل ذنوبه هو؟! وهكذا لم أقتنع بالكاثوليكية فتركتها، وبحثت عن دين آخر.

يقول: بعد ذلك تعرفت على طائفة نصرانية أخرى تسمى (شهود ياهوه) وهي مذهب آخر من مذاهب النصرانية، رأيت أحد رجالها، وسألته عن تعاليم مذهبه فقلت له: من تعبدون؟ قال: الله.

قلت: ومن هو المسيح؟ فقال: عيسى هو رسول الله.

فصادف ذلك موافقة لما كنت أؤمن به وأميل إليه، ودخلت كنيستهم فلم أجد فيها صليباً واحداً، فسألته عن سر ذلك فقال: الصليب علامة الكفر، لذلك لا نعلقه في كنائسنا.

فاقتنع بأن يبحث عن المزيد في ملة هؤلاء المسمين (شهود ياهوه).

يقول: لقد أمضيت ثلاثة أشهر كاملة أتلقى تعاليم ذلك المذهب، وفي نهايتها كان لي الحوار التالي مع رئيس الكنيسة، وكان هولندياً: قلت له: يا سيدي! إذا توفيت على هذا المذهب فإلى أين مصيري؟! قال: كالدخان الذي يزول في الهواء.

فقلت متعجباً: ولكني لست سيجارة، بل أنا إنسان ذو عقل وضمير.

ثم سألته: وأين أتجه بعد الممات؟! فقال: توضع في ميدان واسع.

قلت: وأين ذلك الميدان؟! قال: لا أعلم.

قلت: سيدي! إذا كنت عبداً مطيعاً ملتزماً بهذا المذهب فهل أدخل الجنة؟! قال: لا.

قلت: فإلى أين إذاً؟! قال: الذين يدخلون الجنة عددهم مائة وأربعة وأربعون ألف شخص فقط، أما أنت فسوف تدخل الأرض مرة أخرى.

وهنا قاطعته قائلاً: ولكن -يا سيدي- قد وقعت الواقعة، فالدنيا خربت.

يعني أن القيامة قامت والدنيا خربت.

قال: أنت لا تفهم حقيقة القيامة، لو كان لديك كرسي وفوقه حشرات مؤذية هل ستحرق الكرسي لتتخلص من الحشرات؟! قلت: لا.

قال: بل تقتل الحشرات ويبقى الكرسي سليماً، وهكذا تبقى الأرض سليمة بعد تطهيرها من الدنس والخطايا، وعندها ينتقل إليها الناس من ذلك الميدان، فليس هناك ما يسمى بالنار.

وهنا أعملت فكري جيداً، ودرست الأمر وقلبته، حتى اتخذت القرار الأخير لترك النصرانية بجميع مذاهبها رسمياً، وكان ذلك في عام ألف وتسعمائة وسبعين.

وفي أحد الأيام بينما كنت أسير في طريقي بحثاً عن الحق رأيت معبداً بوذياً جميلاً ضخماً، فاقتربت منه فوجدت فيه عدة تماثيل وصور في السقف تمثل التنين، وعلى

الجدران مثل ذلك، كما شاهدت أمام البوابة تمثالين على شكل أسد صامت، وما إن دخلت من البوابة حتى جاءني رجل فأوقفني وسأل: إلى أين؟ قلت: أريد أن أدخل.
قال: اخلع نعليك قبل أن تدخل، هذا معبد لنا، فاحترم مكان عبادتنا.
قلت في نفسي: حتى البوذية تعرف النظافة، أما الديانات السابقة فلا نظافة فيها، فأذكر أنني عندما كنت أدخل الكنيسة لم أكن أخلع نعلي عند الدخول.
وهذا الكلام خطأ، فإذا كان يقصد بالقذارة النجاسة فإن الإنسان لا يجوز أن يصلي بنعل فيه نجاسة، لكن إن كان طاهراً فإنه يجوز أن يصلي في النعل ويدخل المسجد، بشرط أن لا يكون المسجد مفروشاً، وإنما إذا كان من رمل أو حصى، فهو قرأ المعلومات المحدودة فلذلك قال هذه العبارة.
ثم يقول: لقد جربت الديانة البوذية فترة من الزمن، ولكن سرعان ما تركتها؛ لإحساسي بأني لم أجد الحق الذي أنشده، ثم اتصلت بالديانة الهندوسية التي بدأت ونشأت في الهند، والتي انتشرت تعاليمها حتى وصلت إلى بعض الجزر الأندونيسية، فأخذت أتنقل بين تلك الجزر التي يوجد فيها نشاط لاتباع هذا الدين، ومكثت فترة من الزمن تعلمت فيها الكثير، وقد نجحت في المرحلة الأولى إلى درجة أنني أخذت الخوارق كالعبور في النار، والمشي على المسامير الحادة، فهو دين معهم فيه الجن والشياطين تساعدهم على هذه الأشياء، والخوارق ليست دليلاً على أن هذا دين حق.
فوصل إلى مرحلة من المهارة في هذه الديانة الهندوسية إلى حد العبور في النار، والمشي على المسامير الحادة، وإدخال المسامير إلى أعضاء الجسم، إلى غير ذلك.
يقول: ولكن ليس هذا هو ما كنت أبحث عنه.
ثم يضيف الأخ رحمة برلومو: وذات يوم سألت رئيس المعهد الهندوسي: ماذا تعبدون؟
قال: نعبد برهما، ويسلو، وشيوا، برهما إله الخلق، ويسلو إله الخير، وشيوا إله الشر، ثلاثة آلهة تجلت في جسد إنسان واحد اسمه كرسنان الذي هو المنقذ للعالم عند الهندوس.
قلت لنفسي: إذاً: فلا فرق في أمر الألوهية بين الهندوسية والنصرانية، ولو اختلفت الأسماء، فهما ينادیان ثلاثة في واحد، فقلت للكاهن الهندوسي: اشرح لي نشأة هذا الدين.
فقال: كان في الهند سنة ألفين قبل الميلاد ملك جبار ظالم لا يرحم حتى أبناءه، فيقتل مولوده الذكر خوفاً من أن يحتل عرشه غصباً، وفي إحدى الليالي الظلماء كان الملك جالساً أمام قصره، وإذا بكوكب مضيء يطلع في السماء فوق رأسه، وكان يطير بسرعة مذهلة، ثم توقف في الفضاء وأرسل نوره الباهر على حظيرة الأبقار، فلما سأل الملك رجال العلم والدين راجعوا كتبه المقدسة فقالوا: إن ذلك دليل على تجلي الآلهة في جسم إنسان اسمه كرسنان.
فقلت في نفسي: والذي يعرف قصة النصرانية يجد نفس القصة موجودة يزعمونها في قصة ميلاد المسيح، فهذه القصة مع تغيير الأشخاص موجودة في الديانة النصرانية، وكنت أحدث الناس بها وأناقش، والفرق أن القرية المشار إليها هي بيت لحم والإنسان عندنا هو المسيح، فلا فرق إذاً بين القصتين، ولا بين العقيدتين في قضية أساسية هي قضية الإلهية، وقضية هوية المنقذ للعالم.
لقد واصلت حواري مع الكاهن الهندوسي فقلت له: يا سيدي! إذا توفيت وأنا على دينكم فإلى أين مصيري؟! قال: لا أعلم، لا أعلم، لكن عليك أن تمتنع عن قتل الحشرات من أمثال النمل والبعوض وغيرهما، فقد تكون هذه الحشرات آباءك وأجدادك الموتى، وبعض المسلمين يعتقدون هذا، فبعض الناس عندما تدخل إليهم فراشة ذهبية يقول لك أحدهم: (احذر من أن تقتلها) فهذه روح أبيك أتت البيت أو نحو ذلك.
وهذا هو نفس الاعتقاد، فالروح هي التي يقول الله تعالى عنها: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ} [الزمر:42]، وما يمسك الله فلا منقذ له، فإذا كان الله يمسكها فكيف تهرب وتأتي إلى الدنيا في صورة فراشة؟! فهذه عقائد لا تليق بأي إنسان مسلم، ولا ينبغي أن يصدقها، فهذه خرافات ما لها من أصل في دين الإسلام.
فالشاهد أن هذا الكاهن الهندوسي قال له: لا أعلم.

يعني: لا أعرف مصيرك إذا مت إلى أين تذهب، لكن احذر من أن تقتل الحشرات كالنمل والبعوض وغيرهما.

وقال: قد تكون هذه الحشرات أباءك وأجدادك الموتى.

ثم يقول في النهاية: قررت أن أترك كل تلك الديانات، ولم يكن أمامي إلا الإسلام الذي لم أكن أريد اعتناقه لما أعرف في نفسي منذ طفولتي من نفور وكراهية لهذا الدين الذي لم أكن أعرف عنه إلا الشبهات، كنت أريد البحث عن الحق المجهول، وهذا البحث يلزم الجهد والصبر، وذات يوم قلت لزوجتي: ابتداءً من هذه الليلة لا أريد أن يزعجني أحد، أريد أن أصلي وأتضرع إلى الله.

وهكذا أقفلت باب حجرتي ورفعت يدي إلى الله خاشعاً متضرعاً قائلاً: يا رب! إذا كنت موجوداً حقاً فخذ بناصيتي إلى الهدى والنور، واهدني إلى دينك الحق الذي ارتضيته للناس.

ثم يقول: والدعاء إلى الله ليس كأي طلب من الطلبات، كما أن دعائي إلى الله سبحانه وتعالى لم يكن خلال فترة وجيزة فحسب، بل استمر ذلك زمناً طويلاً قرابة ثمانية أشهر.

لقد كان يخلو بنفسه ولا يختلط بأحد، ولا يكلم أحداً، بل يسأل الله سبحانه وتعالى أن يهديه إلى الحق.

يقول: وفي ليلة الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر عام واحد وسبعين في اليوم العاشر من رمضان من نفس العام، وبعد أن فرغت من دعائي المعتاد ذهبت في نوم عميق، وعندها جاءني نور الهدى من الله عز وجل، وإذا بجسم شخص يظهر أمامي، فأمعنت النظر فيه فإذا أنا بنور حديث يشع منه يبدد الظلمة من حولي، لقد تقدم الرجل المبارك نحوي فرأيته يلبس ثوباً أبيض وعمامة بيضاء، له لحية جعدة الشعر، ووجه باك، لم أر قط مثله من قبل جمالاً وإشراقاً، لقد خاطبني الرجل بصوت مفهوم قائلاً: ردد الشهادتين، ردد الشهادتين.

وما كنت حينئذ أعلم شيئاً اسمه الشهادتان، فقلت مستفسراً: وما الشهادتان؟ فقال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

فكررتهما وراءه ثلاث مرات، ثم ذهب الرجل عني، ولما استيقظت من نومي وجدت جسمي مبللاً بالعرق، وسألت أول مسلم قابلته: ما هي الشهادتان؟! وما قيمتهما في الإسلام؟! فقال: الشهادتان هما الركن الأول في الإسلام، ما إن ينطقهما الرجل حتى يصبح مسلماً، فاستفسرت منه عن معناهما، فشرح لي المعنى، وفكرت ملياً وتساءلت: من يكون الرجل الذي رأيته في منامي؟! وكانت ملامحه واضحة المعالم بالنسبة لي، فلما وصفته لصديقي المسلم هتف على الفور قائلاً: لقد رأيت الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم! ثم يختم قصته بقوله: وبعد عشرين يوماً من ذلك الحادث -وكانت ليلة عيد الفطر- سمعت صيحات التكبير يرددها المسلمون من المساجد القريبة من دارنا، فاقشعر بدني، واهتز قلبي، ودمعت عيناي، لا حزناً على شيء، بل شكراً لله على هذه النعمة، الحمد لله الذي هداني أخيراً إلى ما كنت أبحث عنه منذ سنين، لقد تم ذلك في عام واحد وسبعين وتسعمائة وألف.

وقد خيرت زوجتي بين الإسلام والمسيحية فاختارت الإسلام، وكانت في طفولتها مسلمة ومن عائلة مسلمة، تنصرت بسبب إغراءات المبشرين، ولجهلها بأمور دينها الحنيف، كما تبعنا أبناؤنا فاعتنقوا الإسلام، ومنذ الثاني من فبراير سنة اثنين وسبعين ونحن مسلمون والحمد لله.

فهذا أنموذج من نماذج البحث عن الحقيقة، وها أنت ترى أن الإنسان إذا أخلص في البحث عن الحق فإن الله سبحانه وتعالى يهديه ويأخذ بناصيته.

فكون الإسلام هو دين الحق الوحيد أمر لا يرتاب فيه أي إنسان عاقل، ومن ثم لا يعذر الشخص إذا قال: بحثت عن الحق فوجدته في غير الإسلام.

بل يقال له: لقد قصرت في الجهد؛ لأن الأدلة والبراهين قاطعة على أحقية دين الإسلام بما لا يمكن أن يرتاب فيه أي إنسان عاقل، ولهذا لم يعذر الله سبحانه وتعالى من سمع عن دين الإسلام، أو سمع بالرسول، أو سمع عن القرآن ثم لم يبذل كل وسعه في التحري عن هذا الدين.

ونرى -أيضاً- أنه يمكن أن تكون بذرة توضع في قلب إنسان، ثم إن هذه البذرة تنمو وتترعرع إلى أن تصبح هي شجرة الإيمان القوية الراسخة في قلبه.

وهناك نماذج كثيرة أيضاً تأتي فيها الهداية منة واصطفاء واختياراً من الله سبحانه وتعالى، وقد سمعت عن رجل أندونيسي أتى إلى الإخوة الباكستانيين في المسجد فقال لهم: أريد أن أكون مسلماً.

فلما سألوه عن السبب في ذلك قال: لقد جاءني المسيح عليه السلام في المنام وقال لي: كن مسلماً.

فما كان من الرجل إلا أن شهد الشهادتين وعلمه الناس الصلاة، ثم بعد حوالى ثلاثة أيام قبض ومات ودفن مع إخوانه المسلمين، وقد زرت قبره في المقابر هناك في لندن.

وهناك قصص كثيرة لا نستطيع استيعابها، وقد ألفت فيها كتب كثيرة تتكلم عن قصص الهداية، وبداية التحاق كثير من الناس بها، والمقصود الإشارة إلى أن الإنسان إذا بحث عن الحق بإخلاص وبصدق فإن الله يأخذ بناصيته إليه، وهذه سنة الله سبحانه وتعالى الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وبذلك نكون قد مررنا على كل الأبواب المتعلقة بمجالات علو الهمة، حيث تكلمنا عن علو الهمة في طلب العلم عموماً، وعلو الهمة في العبادة، وعلو الهمة في الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى، وعلو الهمة في الدعوة إلى الله عز وجل، ثم علو الهمة في البحث عن الحق وعن دين الحق، وتبقى خواتيم هذا البحث وخلاصة الكلام في هذا الموضوع، كأسباب انحطاط الهمة، وأسباب الارتقاء بالهمة، وعلاج ضعف الهمة، والمنهج الصحيح إلى ذلك، وأثر ذلك في إصلاح حال الأفراد وحال الأمة أجمعين.

سبحانك -اللهم! - ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(14/14)

علو الهمة [15]

ما أحوج المسلم -وخاصة في هذا الزمن- إلى أن تكون همته عالية! حتى يستطيع أن يرفع ما حل به وبأمته من الذل والهوان، ولذا فإن على المسلم أن يبذل وسعه في فعل الأسباب التي تعلو بهمته، وتقوي عزيمته، كما أن عليه أيضاً أن يبتعد عن الأسباب التي تحط من همته وتدمرها وما أكثرها! لذا فيجب عليه معرفتها، والبعد عنها، والتحذير منها.

(15/1)

مرض سقوط الهمة أعراضه وصوره

حديثنا هو عن حال الأمة عند سقوط الهمة، وعن أسباب الارتقاء بالهمة، وأسباب انخفاضها.

لا شك أن سقوط الهمة مرض، وكل مرض له أعراض تشير إلى حدوثه وتمكنه من هذا الإنسان، فأصل الأمراض التي تفشت في أمتنا هو سقوط الهمة، وضعف الإرادة؛ فدائماً ما يتحالف سقوط الهمة مع الهوان والذل والصغار، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: (وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري) سواء كانت مخالفة الأمر من المسلم العاصي أو من الكافر الذي لا يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فكل من حاد عن منهج الله ومنهج رسوله صلى الله عليه وسلم فلابد له من الذل، كما قال تبارك وتعالى أيضاً: {أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [النساء:139].

وقال تبارك وتعالى أيضاً: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ} [المنافقون:8].

وقال صلى الله عليه وسلم: (ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا).

إذاً: الذل ثمرة طبيعية وعرض من أعراض مرض سقوط الهمة؛ فسقوط الهمة وضعف الإرادة هو أصل الأمراض التي تفشت في أمتنا، فنحن نجد كثيراً من الناس يريد أن يتوب -سواء على المستوى الفردي أو الجماعي- ويريد أن يستقم، ومع ذلك لا يحصل تغير في حاله؛ لضعف الهمة عنده.

ونرى رجلاً يسقط صريعاً بالتدخين أو بالإدمان أو الخمر أو غيرها من المعاصي فنفسه تؤنبه وتلومه، ويريد أن يخرج من هذا الوحل، فما الذي يمنعه من أن يخرج وهو يعرف أضرار التدخين، ويرى ضحاياه، ويرى السرطان الذي يحصل بسبب التدخين، ومع ذلك لا يتحرر من هذا الأسر، وليس هذا بسبب ضعف العلم؛ فعنده علم كاف بضرر هذه الأشياء، وعنده علم بحكمها الشرعي، ولكن ليست هناك همة، وليس هناك يقين وإرادة كافية ينهض بها من هذه الوحلة أو من هذه الحفرة.

فهذا المرض هو الذي أورث أمتنا في هذا الزمان قحطاً في الرجال، وجفافاً في القرائح، وتقليداً أعمى، وتواكلاً وكسلاً واستسلاماً لما يسمى بالأمر الواقع، فالمسلم لا يعترف بشيء اسمه الأمر الواقع، فالأمر الواقع هو شرع الله سبحانه وتعالى، أما ما يسمى بالأمر الواقع فكما أن الباطل جعله واقعاً فالحق قادر على أن يصلح هذا الأمر ويعالجه ويجعل الحق هو الأمر الواقع.

(15/2)

_____

صور من سقوط الهمة في التاريخ الماضي

لقد رأينا في التاريخ الماضي حلقاً كثيرة جداً تثبت وتجسد لنا أعراض هذا المرض الخطير، فمثلاً: كان الجندي التتري يأمر المسلم الذي سقطت همته أن يبقى في مكانه؛ حتى يعود فيقتله! فسقوط الهمة أعظم وأخطر ما يظهر في حالات الحروب والجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى.

كما رأينا نماذج في علو الهمة في جهاد الصحابة والسلف الصالح رضي الله تعالى عنهم، وكيف أناروا الدنيا مشارقها ومغاربها بجهادهم في سبيل الله، لكن لما ترك المسلمون الجهاد ذلوا، حتى حكي في كتب التاريخ أن الجندي التتري كان يأمر المسلم الذي سقطت همته أن يقعد في مكانه، ثم يغيب التتري، ويظل المسلم جالساً مكانه لا يتحرك ولا يفكر حتى في مجرد الهروب من شدة ضعف الهمة؛ حتى يذهب هذا التتري ليحضر حجراً، ثم يعود فيشدخ به رأس المسلم، ويقتله بهذا الحجر، وهو جالس منتظراً الموت! فإن كنت ميتاً ومقتولاً فإذاً قاوم، أو حتى حاول أن تفر أو تهرب، لكن وصل الحد إلى أن يجلس منتظراً التتري إلى أن يذهب ويحضر الحجر -لأنه ليس معه سلاح- ويعود ليشدخ به رأس المسلم ويقتله بذلك، وهو لا يحرك ساكناً.

إلى أن ينجز التتري ما أوعده! وحين نقفز إلى عصرنا الحاضر ونبحث أين سقوط الهمة فسنرى سقوط الهمة في هذا الزمان، والجراح كثيرة جداً سواء في حرب (1948م) مع اليهود في فلسطين، والخيانات التي حصلت فيها، أو في حرب (1967م) لما حصلت مسابقة في اختراق الضاحية في أرض سيناء، والجنود هربوا وولوا بالصورة المخزية التي عرفناها.

وهكذا في حرب الخليج الثانية رأينا ذلك المشهد التمثيلي المخزي حينما ركع الجندي العراقي أمام نعلي الجندي الأمريكي، وجعل يقبلهما ويتمسح بهما، ويطلب من الجندي الأمريكي العفو والصفح، لكن الجندي الأمريكي وحتى يعطي العالم درساً في التسامح ظل يمسح على كتفه وعلى رأسه، ويقول له: لا بأس! أنت بخير، فلا تقلق، ولا تجزع! ونشروها في كل العالم على أنه هذا نموذج من نماذج التسامح والأخلاق الأمريكية، ولا شك أن هذا أيضاً من أعراض مرض سقوط الهمة.

(15/3)

_____

حكاية ابن خلدون لانحطاط الهمم في زمنه

شكا ابن خلدون رحمه الله تعالى تشبه المسلمين في عصره بأعدائهم الكفار، واعتبر أسباب التشبه بالكفار مظهراً من مظاهر سقوط الهمة، وأمارة من أمارات ضياع الأندلس من أيدي المسلمين قبل أن تضيع؛ حيث قال رحمه الله تعالى في مقدمته المشهورة: ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب.

أي: أن المغلوب دائماً يميل إلى التشبه بمن يغلبه ومن يقهره، وهذا هو نفس الظاهرة الموجودة الآن من الوقوع في هوى تقليد الغرب، والتبعية لهم على جميع المستويات، ولا نستثني مستوىً واحداً منها؛ ففي اللغة نتكلم بلغة الغرب، وفي العادات والتقاليد

نستخدم أساليب وعادات ومناهج الغرب؛ حتى في مناهج التفكير صرنا نمشي بلا أي هوية.

وأصبح الحال كما قيل: ويل للمغلوب من الغالب.

يقول ابن خلدون: ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه؛ في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله، وانظر ذلك في الأبناء مع أبنائهم كيف تجد المتشبهين بهم دائماً؛ وما ذلك إلا اعتقادهم الكمال فيهم.

فدائماً الابن يحاكي أباه؛ لأنه يرى أن أباه أفضل أنموذج أمامه في الدنيا، فمهما يفعل الأب فإنك تجد الولد يتشبه به؛ لأنه يعتقد الكمال في أبيه، فكذلك إذا كانت أمة تجاور أمة أخرى، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، ونحن رأينا كيف كان في زمن نهضة المسلمين في الأندلس يفد إلى الأندلس من جميع أوروبا الشباب الأوروبي، من ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وكل هذه البلاد كانوا يأتون إلى الأندلس؛ ليتلقوا العلم على أيدي العلماء المسلمين، ولا نقول: العرب، بل على أيدي العلماء المسلمين، وكانت لغة العلم هي اللغة العربية، فكان لزاماً على كل طالب يريد أن يتلقى العلم الحديث وأحدث ما وصل إليه العلم أن يتعلم أولاً اللغة العربية، فكان الشاب الغربي إذا رجع إلى بلاده يفتخر أمام أقرانه بأنه درس في بلاد المسلمين، ويعتبر هذا من مظاهر المفاخرة العظيمة، فكان يخلط كلامه أحياناً بألفاظ عربية، ثم يعود يتكلم بلغته القومية، الأمر الذي حدا بالكنيسة إلى أن أصدرت قراراً بالتهديد وبالحرمان من الجنة لهؤلاء! وقالت لهم: إن هؤلاء الشبان الرقعاء الذين يذهبون إلى بلاد المسلمين ثم يعودون إلى بلادهم فيبدءون كلامهم باللغة العربية، ثم يتكلمون بلغتهم القومية -يعني: أنهم يفعلون ذلك كي يعرف الناس أنهم تعلموا في بلاد المسلمين- هؤلاء الشبان الرقعاء إن لم يكفوا عن ذلك فسوف تصدر الكنيسة ضدهم قرارات حرمان من الجنة! وهذا لا شك أنه مظهر من مظاهر علو همة المسلمين، وكيف أنهم لما كانت لهم الغلبة كان الجميع يتشبهون بهم.

ومن البلاد التي انتشرت فيها اللغة العربية بسرعة غير متوقعة ولله الحمد هي مصر، وربما يكون هناك سبب ثانوي هو: أن المصريين -كما يقال- عندهم موهبة في تعلم اللغات، ولكن هناك سبب أساسي، وهو أن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه لما فتح مصراً كان ذكياً إلى درجة عالية جداً.

قال عمرو بن العاص: إن أي موظف يعين في الهيئات أو الوظائف الحكومية التابعة لولايته لابد أن يعرف اللغة العربية.

فتنافس أهل مصر في تعلم اللغة العربية كي يحوزوا المناصب والوظائف؛ حيث كان تعلمها شرطاً في تقلد الوظائف، ولذلك انتشرت اللغة العربية انتشاراً سريعاً جداً في مصر ولله الحمد.

يقول ابن خلدون: إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلبة عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة -أي: الأسبان- فإنك تجد أنه لما بدأ يضعف نفوذ المسلمين أمام الجلالقة الأسبان تجد أن بعض المسلمين يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم؛ حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت.

والإنسان إذا رأى صور القصور في الندلس مثل قصر الحمراء وغرناطة وقرطبة يجد أن في ساحات هذه القصور كساحة السباع، وهي عبارة عن تماثيل للأسود تخرج من فمها النوافير، مع أن هذا في قصر كان يملكه حكام مسلمون! فإذا كان هذا شأن الحكام في تخليد التماثيل وقد عرف تحريمها الأكيد في الشريعة الإسلامية فإن هذا يعكس مدى ما حصل بسبب الاقتداء بالكفار في هذا الأمر.

يقول الإمام ابن خلدون: حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، فالأمر لله.

وكلامه هذا معناه: أن هذه الأمة ستنهار أمام أعدائها، ولا يبقى لها قوة، وحدث ما توقعه ابن خلدون رحمه الله تعالى، واستولى الفرنج على الأندلس الإسلامية، وأخرج المسلمون منها بعد مائتي سنة من كتابته لهذه السطور.

_____

صور من انحطاط الهمم في الزمن الحاضر

عن عصرنا حدث ولا حرج من مظاهر تسفل الهمم وانحطاطها؛ فانظروا إلى حال الشباب فقط، فلا أقول أكثر من هذا، انظروا إلى حال الشباب الذين ينتسبون إلى الإسلام كيف تصاغرت همهم، فلم تنشغل إلا بسفاسف الأمور ومحقراتها، فهم شباب الكرة والغناء إلا من رحمه الله، بل حتى في مذاكرتهم؛ فغالبهم يريد أن ينجح بدون جهد يذكر، بخلاف أجيال سابقة كانت أكثر جدية، فنحن نجد هؤلاء الشباب كل ما يشغلهم هي الأمور التافهة والساذجة، كما قال أحد الكتاب المسلمين: لقيت اليوم صديقنا فلاناً، وكان زعيماً سياسياً قديماً، فإذا هو على غير عادته؛ منشرح الصدر، ضاحك الأسارير، فقلت له: أراك اليوم على غير عادتك طلقاً نشيطاً بادي السرور، قال: وما لي لا أكون كذلك وقد أحرزت في هذا اليوم ثلاثة انتصارات؟ قلت: لك الحق إذاً في تهللك وفرحك؛ فنحن في زمان لا نكاد نظفر فيه بانتصار واحد بين مئات الهزائم، فما هي الانتصارات إن لم تكن سراً من الأسرار؟ قال: أما الانتصار الأول فقد دخلت غرفة نومي منذ ثلاثة أيام ذبابة أزعجت نهاري، وأرقت ليلي، وقد حاولت جهدي طردها أو قتلها فلم أفلح، إلى أن ظفرت بها اليوم، فقتلتها شر قتلة، وألقيتها حيث لا يمكن أن تعود حتى لو عادت إليها الحياة! قلت: والانتصار الثاني؟ قال: والانتصار الثاني شعرت به وأنا أزن نفسي في الحمام؛ إذ هبط وزني من تسعة وتسعين كيلو إلى ثمانية وتسعين وسبعمائة وخمسين جراماً! قلت: والانتصار الثالث؟ قال: لعبت اليوم بالنرد مع صديقنا فلان، فغلبته مرتين متواليتين، وهو الذي كان يغلبني باستمرار! أفتراني بعد ذلك كله حقيقاً بما أنا عليه من السعادة والطلاقة والمرح؟! قلت: بلى! بلى! بلى! وتابعت طريقي بأسىً بالغ وألم عميق وحزن غامر عليه وعلى أنفسنا معه؛ لقد تحقق عزلنا عن ميادين الحياة الجادة من قبل الطغيان الداخلي والخارجي، المحلي والدولي، وفاتتنا الانتصارات الحقيقية الكبرى.

وهكذا الآن أصبح الذي يطلق عليه البطل هو إما الممثل في الفيلم، أو المسرحية، أو لاعب كرة القدم، هذا هو البطل، وصار يقال: الأبطال، وهذه البطولة، والانتصار، والنجوم، إلى آخر نحو هذه الألفاظ الفخمة؛ كي يتلهى بها الناس، وتطلق على أخس خلق الله سبحانه وتعالى وأخبثهم.

يقول: تشاغلنا بأنفسنا ومطامعنا، والتمسنا الراحة والمتعة والرضا، ومثل انتصارات هذا السياسي الكبير القديم أظن أنه لا يختلف عنها بالجوهر، وإن اختلف بالشكل والعنوان؛ أليس هذا ضرباً من ضروب الجنون أو الموت المعنوي الذي يصنعه الطغيان؟! أليس الموت المادي الحقيقي أفضل من مثل هذه الحياة؟! إن الشباب يمعنون في التشبه بالكفار، بل يعلقون صور الممثلين على صدورهم! فأخس الصور وأحط الصور الآن أصبحت تعلق على صدور أولاد المسلمين من أجل الدعاية للفواحش! وحينما أرى شاباً من هؤلاء الرقعاء الذين يعلقون صور الممثلين هذه على ملابسهم أقول: أليس هذا يعود إلى بيته؟! أكيد أنه سوق يعود، وأكيد أن والدته تغسل له هذه الثياب، وأكيد أن أباه يراه، وإخوته يرون هذه الصور القبيحة، فأين هؤلاء جميعاً مما يصنع هذا؟! إن معنى ذلك أن هناك نوعاً من التخدير أو موت الغيرة في قلوب الناس، إلى حد أن يمشي إنسان بهذه الصور القبيحة، ويظهر بها متحدياً حتى الأخلاق العامة، ومع ذلك لا يخدش ولا يمس بأي سوء؛ فهو عبارة عن رقيق، وهو عبد فخور جداً بهذا الرق! هذا هو باختصار إيضاح الصورة التي نحن عليها.

فهو عبد ذليل فخور بالذل وبهذا الرق؛ حتى أن السيارات الآن تعلق عليها الأعلام الأمريكية، وتزين بالأعلام الأمريكية، ويعلقون عليها الآن شتى الصور، ونجد سيارات أخرى عليها أعلام بريطانيا الذي فيه صليب قائم وصليب نائم؛ فإن علم بريطانيا فيه صليبان، وهكذا غيرها من الأعلام!! وهذا يقول: أنا أحب ألمانيا! والآخر يقول: أنا أحب أمريكا! إلى آخر هذه التفاهات المعروفة؛ فهاهم يعلقون على صدورهم وسياراتهم أعلام الدول التي أذلت كبرياءهم وعزهم، وطأطأت أعناقهم، وأهدرت كرامتهم، واستعبدت أمتهم! وعلى صعيد آخر رأينا من يسوغ تعبيد الأمة وإذلالها وتبعيتها لأعدائنا؛ بحجة أننا لم نفكر برأسنا ما دمنا لا نأكل بفأسنا، وجعلوا نظرية الفأس والرأس تسويغاً وتبريراً للتبعية والذل الذي نحن فيه، ويرددون: لا نفكر برأسنا إلا إذا أكلنا بفأسنا، ومن هذا القمح الذي يأتينا من الميناء إلى الأفواه مباشرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ونحن

هنا نتكلم على أعراض هذا المرض، فمثل هذه التصريحات هي من مظاهر وأعراض هذا المرض.

وهكذا يقول بعض الناس: إن ما نحن فيه من الانحدار تسبب فيه من قبلنا، وسيصلحه من بعدنا، وكل جيل يأتي يردد هذه العبارة، بل عشنا حتى أدركنا زمناً لم تعد الخيانة فيه عاراً يذكر، لكنها شرف يظهر، ويتباهى به، ووظيفة مرموقة، ومفخرة يتهافت عليها!

(15/5)

بعض ملامح محنة المسلمين في عصر انحطاط الهمم

يبين الشيخ محمد أحمد الراشد حفظه الله ملمحاً خطيراً من ملامح محنة المسلمين في عصر انحطاط الهمم، فيقول حفظه الله: إن محنة المسلمين اليوم لا تقتصر على تسلط أئمة الضلالة فحسب، بل تعدت ذلك إلى تربية سخرت المناهج الدراسية وكراسي الجامعات والصحف والإذاعات لمسخ الأفكار والقيم، حتى غدا صيد المخططات في سرور -والمقصود: المصيد الذي وقع في الفخ- يحسب نفسه في انعتاق من أسر القديم أي قديم كان، فهو تحرر من التقلد أو التمسك بالقديم، أو صار الآن رجلاً حراً متحرراً.

لقد وقع المسلمون اليوم ضحية لتربية أخلدتهم إلى الأرض، فأرادت لهم الفسوق ابتداءً؛ لتستخف بهم الطواغيت انتهاءً، وإنها خطة قديمة يأخذها الطاغوت اللاحق عن الطاغوت السابق، حتى وصلت وصولها إلى فرعون، وذلك كما يقول الله سبحانه وتعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الزخرف:54].

هذا هو التفسير الصحيح للتاريخ، وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله؛ فالمؤمن بالله لا يستجيب للطاغوت، ولا يمكن أن يطيع له أمراً.

فبلا شك أن الناس أنفسهم ليسوا معفيين عن المسئولية عن الأمر الواضح الذي وصلت إليه الأمة والدين، بل هم السبب في ذلك، وهم سبب أقوى من الحكام في تضييع الإسلام بسبب سفل الهمم، ولولا أنهم كانوا قوماً فاسقين لما سمحوا أن يسب دينهم على الملأ، وأن تكتب المقالات في أن القرآن فيه أخطاء نحوية! وأنه ليس بالضبط كلام الله سبحانه وتعالى! وغير ذلك من الفظائع التي حصلت والناس لا يبالون، وهؤلاء الناس أنفسهم لو أن السجائر ارتفعت أسعارها أو حصلت هزيمة في مباراة كرة قدم أو مات مطرب أو مغنٍ فإنهم يثورون! فلا شك أن هؤلاء الناس ممن انطبقت عليهم هذه الأوصاف من الفسق والخروج عن طاعة الله هم أيضاً ضلع كبير في الصد عن سبيل الله تبارك وتعالى، وضلع في هذا الاستخفاف.

فهؤلاء أدركوا المقتل الذي عرفه فرعون، فتواصوا به، وأخذوا يحولون المجتمعات إلى فتات غارق في وحل الفاحشة والفجور، مشغول بلقمة العيش، ولا يجدها إلا بالكد والعسر والجهد؛ كيلا يفيق بعد اللقمة وبعد الشهوات ليستمع إلى هدى، أو يفيء إلى دين، وصارت تلك سياستهم: سياسة محاربة المساجد بالمراقص، ومحاربة الزوجات بالنساء ذوات الفواحش، ومحاربة العقائد بأساتذة حرية الفكر، ومحاربة فنون القوة بفنون اللذة، وهكذا تحول بهذه التربية ذلك الصقر الإسلامي إلى مثل طائر الحجل.

والحجل: نوع من الطيور، واحده حجلة، وهو طائر أكبر من الحمام يصاد.

فالصقر تحول إلى طائر الحجل مشهور بالوداعة، كما يقول إقبال: إنه الأدب والترويض الذي استعمله أدب الضلال، كما يفعل بالضبط مع الوحش الكاسر المروض في السيرك؛ فإنه يروضه بحيث يصبح في الآخر مقلم الأظفار هادئاً وديعاً لا يزمجر ولا ينفعل، ولا يحرك أي شيء من هذا.

يقول إقبال وهو يصف هذا الأدب: يسلب السرو جميل الميل ويرد الصقر مثل الحجل يسخر الركبان باللحن المبين ولقاع البحر يهوي بالسفين نومة ألحانه يقظتنا أطفأت أنفاسه وقدتنا فهو يصف هذا الأدب بأنه يسلب السرو -والسرو: شجر معروف، وواحدته سروة- جميل الميل، ويرد الصقر مثل الحجل، ويسخر الركبان باللحن، يعني: حتى أجهزة تلفزيونه وأفلامه ونحوها تروض الرجل فعلاً، فالرجل أصبح مثل الجمل الذي استنوق، كما نسمع ونرى الرجل في الفيلم أو المسرحية أو التمثيلية تصفعه

المرأة! فيضع يديه على الصفعة، ويضع وجهه في التراب؛ لأنه رجل مروض، قد قلمت أظفاره حتى صار كالجمل الذي استنوق، فهي عملية ترويض، فالمرأة تربه هذه الإهانة، وهو يقبلها صاغراً ذليلاً مهيناً! ولقاع البحر يهوي بالسفين، والسفين جمع: سفينة.

نومت ألحانه يقظتنا وهذا كما قال الخميني -وصدق وهو كذوب-: الموسيقى أفيون الشباب.

أي: تستعمل الموسيقى والأغاني في التخدير كالأفيون.

وقدتنا والوقدة هي: أشد الحر.

ثم قال: وأشرب الناس الذل بهذا الأذى فطرة وفي نفور من الذل ينفر من الذل، فيأبى على الحيف، ولكن تحيط بالناس أحوال، وتتوالى عليهم حادثات، فيراضون على الخضوع حيناً بعد حين، ويسكنون إلى الخنوع حالاً بعد حال؛ حتى يدربوا عليه، كما يستأنس السبع ويؤلف الوحش، ولكن يبقى في الناس ثمرات من الكرامة، ويبقى في الدماء شذرات من الجمر، فإذا دعى الداعي إلى العزة، وأذن بالحرية، وأيقظ الوجدان النائم، وحرك الشعور الهاجد، نبضت الكرامة في النفس، وبصت الجمرة في الرماد - يعني: لمعت- وأعادت للإنسان إنسانيته، فأبى وجاهد، ورأى كل ما يلقى أهون من العبودية، وأحسن من هذه البهيمية.

ذل من يربط الذليل بعيش رب عيش أخس منه الحمام وكل ذل يصيب الإنسان من غيره ويناله من ظاهره قريب شفاؤه ويسير إزالته.

وهذا أمر في غاية الأهمية، فإذا كان الذل والاستهزاء ناشئ عن عامل خارجي كقهر وكبت أو أي عوامل خارجية فهذا خفيف، وإنما المشكلة هي الأمر الذي يعبر عنه مالك بن نبي رحمه الله حيث قال: ليست المشكلة في الاستعمار، فكون أمة تقهر أمة وتستعمرها ليست هي المشكلة، المشكلة هي قابلية الشعب أن يستعمر، وأن يستذل، فهو في داخل نفسه قابل له، وهو راض به وسعيد جداً أنه يذل، حتى كان الناس في بعض الأوقات يقارنون: أيهما أفضل: الاستعمار الروسي أم الاستعمار الأمريكي؟! وأيهما أفضل: اليهود أم كذا؟! وهذا يعكس هذه النفسية التي سقطت فيها الهمة، وسفلت إلى هذا المنحدر، حيث الرضا والخنوع، وأصبح الذل ينبع من الداخل، وليس فقط شيء يفرض على الإنسان من خارجه، فكل ذل يصيب الإنسان من غيره ويناله من ظاهره قريب شفاؤه، ويسير إزالته، فإذا نبع الذل من النفس وانبثق من القلب فهو الداء الدوي، والموت الخفي، ولذلك عمد الطغاة المستعبدون إلى أن يشربوا الناس الذل بالتعليم الذليل، وبالتأديب المهين، وتنشئة الناشئة عليه بوسائل شتى؛ ليميتوا الهمة، ويخمدوا الحمية؛ لأن بيدهم العصا والزمام.

ومن تمام لوازم عملية الترويض أن يضيقوا على دعاة الإسلام؛ ليستبد بالتوجيه التربوي والإذاعي والصحفي أدعياء العلم والشعر والحكمة الذين مضى أمرهم بأسماء منظمات تبدو في ظاهرها مختلفة تزين للجيل الجديد نسل المجاهدين وشبل الأسود أن يكون رقيقاً للشهوات والفواحش والعيش البغيض.

وبدءوا يمحون تراث الأمة التي نهضت به، ويطمسون قصص العلماء؛ حذراً من أن تكون نبراساً للجيل يستدل بها على طريق العمل.

فذلك قول شاعر الإسلام إقبال رحمه الله: ليس يخلو زمان شعب ذليل من عليم وشائع وحكيم فرقتهم مذاهب القول لكن جميع الرأي مقصد في الصميم علموا الليث جفلة الضبي وامحوا قصص الأسد في الحديث القديم همهم لقطة الرقيق برق كل تأوليهم خزاع عليم أي: أن كل همهم من هذه السياسات أن الرقيق يسخر، ويفرح بالذل الذي هو فيه، ويفتخر بأنه رقيق، وبأنه عبد مستذل ومهين، وقد كان لهم ما أرادوا، فهذا هو عنوان خطة الكيد اليهودي والصليبي: تعليم الليث الإسلامي جفلة الضبي، يعني: أنه يكون وديعاً هادئاً مستسلماً لما يملى عليه! وأيضاً: محو قصص أسود الإسلام من العلماء والزهاد والمجاهدين من تاريخ القرون الفاضلة الأولى لهذه الأمة المجاهدة، وأنتجت خطط التربية ذلك الضبي الجفول الذي لم يعد يقتحم، واستبدل العزم بالهوان والمسارعة بالهرب؛ إنهم هذا الجيل من أبناء المسلمين، شبل أسد تحول إلى ضبي وديع، وحر استرقوه ففرح بهذا الرق.

هذه إشارة عابرة لمظاهر هذا المرض الخطير: انحطاط الهمم وتسفلها.

(15/6)

_____

علو الهمة [16]

بالهمم العالية يرتفع الذكر بين الناس، وبانحطاطها يذوق الإنسان الويلات، وغالباً ما تكون أسباب انحطاط الهمم أسباب يسهل التغلب عليها، خصوصاً إذا أمعن المرء النظر في سير من سلف من أصحاب الهمم العالية.

(16/1)

_____

أسباب انحطاط الهمم

ما كان لنا أن نذكر أسباب انحطاط الهمم، إلا لأنه من الطبيعي قبل أن نذكر أسباب الارتقاء بالهمة أن نتكلم على أسباب انحطاط الهمم؛ لما بينهما من التقابل، وبضدها تتبين الأشياء، وبجانب أن الإنسان يعلم الشر كي يتقيه ويجتنبه.

(16/2)

_____

الوهن وحب الدنيا من أسباب انحطاط الهمم

إن أعظم أسباب هذا المرض الخطير: الوهن، والوهن كما فسره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قلنا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟! قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب عدوكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا، وكراهية الموت)، أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

أي: أن الأمم تجعل أمة الإسلام وليمة يأكلونها، ويأخذون ثرواتها، ويذبحون أبناءها، فهذه الوليمة صار يتداعى إليها أعداء الإسلام، سواء كان في حرب الخليج الأولى أو الثانية، أو في البوسنة والهرسك، أو فلسطين، أو غيرها من المواقع، ففي حرب الخليج قال وزير خارجية بريطانيا: نريد نصيبنا من الكيكة أو من الترتة! بلا استحياء! وهذا تجسيد لما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد بين عليه الصلاة والسلام أن الأمر ليس بسبب قلة العدد؛ فأنتم يومئذ كثير، لكنكم كالغثاء، وهو: الزبد الذي يكون فوق السيل، ويدفعه السيل أمامه في مجراه من الغثاء والرغاوة والكناسة وهذه الأشياء.

قال عليه الصلاة والسلام: (وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟! قال: حب الدنيا وكراهية الموت)، هذا هو السبب في الحقيقة، أما حب الدنيا فأنت إذا تأملت أي خطيئة ترتكب في الوجود فستجد أن سببها هو حب الدنيا بكل ما تحتمله كلمة دنيا من معانٍ؛ لأن الإنسان إذا أحب الدنيا فإن ذلك يؤدي به إلى أن يتثاقل إلى الأرض، ولا يستطيع أن يرتقي إلى السماء؛ فيكون ثقيلاً منجذباً إلى الأرض، كما قال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة:38]، أي: خفوا إلى الجهاد {اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ} [التوبة:38].

إذاً: حب الدنيا هو سبب التثاقل إلى الأرض، وكذلك ما من عبد تأسره الشهوات إلا والسبب في هذه الشهوات هي الدنيا أيضاً، وكذلك الانغماس في الترف، فإذا الإنسان عمر في الدنيا، وأغرق في الترف بهذه الصورة فهل سيفكر بعد ذلك في الموت؟! وهل سيفكر في الآخرة؟! فهو يعمر الدنيا، ويخرب الآخرة، فمن الطبيعي أن يكره الانتقال من العمار إلى الخراب؛ لأنه خرب الآخرة، فبذلك يميل إلى حب الدنيا، ويتشبث بها.

وكذلك حب الدنيا هو الذي يؤدي بالناس إلى التنافس في دار الغرور، فهم يتنافسون على أمور الدنيا بما يوجد الحسد والحقد والبغضاء والحروب والصراعات.

يقول الشاعر مبيناً أن الرجال يقتل بعضهم بعضاً في سبيل حب الدنيا: تفانى الرجال على حبها وما يحصلون على طائل قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: واعلم أن زمن الابتلاء ضيفٍ قراه الصبر.

يعني: أن البلاء الذي تعيشه في الدنيا مهما طال فهو فترة مؤقتة، فزمن البلاء هذا ضيف طارئ سيمكث عندك فترة قليلة جداً؛ لأن العمر مهما طال فسيمضي، وسينتهي، وستصبح أنت في خبر كان، وسوف تفضي إلى ما قدمت بين يديك، فلو فرضنا أن إنساناً عمره مائة سنة -وقل من يعيش مائة سنة الآن- فإن مصيره الموت، كما قال موسى لملك الموت عليهما السلام: (ثم ماذا؟ قال: الموت، قال: فالآن).

فالإنسان حينما يكون موجوداً في عمق الصورة لا يحسن التفكير المتجرد، لكن إذا تدبر نفسه وتصور أنه منفصل عن تأثير هذه الصورة فإنه يعطي الحكم بدقة، نحن الآن يعرف بعضنا بعضاً، ويعرف الإنسان جيرانه وأصدقاءه وإخوانه وكذا وكذا، فنحن منشغلون ومنهمكون في هذا المحيط الذي يحيط بنا، وما هي إلا سنوات أو عقود قليلة من الزمان وإذا بك أنت وكل هؤلاء الذين تعرفهم ستكونون تحت التراب، وهكذا كل من على وجه الأرض؛ ليأتي جيل جديد، إلى أن يأذن الله سبحانه وتعالى بخراب الدنيا كلها، فكما نحن نجلس الآن في هذا المصر من الأرض فسيأتي غيرنا بعدنا، وهذه الأرض نفسها التي نعيش عليها كم من الناس قد عاشوا عليها منذ آلاف السنين! لقد عاش عليها أمم فأين هم الآن؟ قال عز وجل: {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} [مريم:98].

وكما مضى من قبلنا، فنحن أيضاً سيأتي من بعدنا في نفس هذه الأراضي وهذه البلاد فيعيشون، قال عز وجل: {وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ} [إبراهيم:45].

فقوم يجيئون، وقوم يذهبون، ولا ينفع الإنسان ولا يبقى معه إلا عمله الصالح.

يقول ابن الجوزي: زمان البلاء والتكليف والمشقة والصبر على الأذى والصبر على فتن الدنيا هو ضيف سريع الزوال، قراه الصبر.

أي: إذا أتاك ضيف البلاء في سبيل الدين فأقره الصبر، والقرى هو: ما يقدم للضيف من الكرم، فأكرم هذا البلاء بأن تصبر عليه إلى أن يرحل؛ فإنه لن يبقى معك طويلاً.

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (تعوذوا بالله من شر جار المقام؛ فإن جار الضعن إذا شاء أن يزايل زايل).

يقول: واعلم أن زمان الابتلاء ضيف قراه الصبر، كما كان الإمام أحمد بن حنبل يعزي على زهده في الدنيا بأن يقول: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل، فلا تنظر إلى لذة المترفين، وتلمح عواقبهم، ولا تضق صدراً بضيق العيش، وعلل الناقة بالحدو تسر: طاول بها الليل مال النجم أن جنح وماطل النوم ظن الجفن أن سمح فإن تشكت فعللها المجرة من ضوء الصباح وعدها بالرواح ضحى وهذه هي سياسة المؤمن الحاذق الفطن في تعامله مع الدنيا، فإذا كان هناك عمل من أعمال الدنيا فسوِّف ما شئت، وليس هناك مشكلة، كما يقول الحسن: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

فحين يتعارض عملان: عمل ستحاسب عليه ربما غداً أو بعد ساعة، وعمل أنت تعمله كأنك تعيش للأبد، فانظر أيهما يقدم على الآخر.

وهذا عكس ما يستعمل الناس هذه العبارة فإنهم يقولون: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، ويفهمونها على أنك تخدم الدنيا تماماً، وكأنك تعيش أبداً، والأمر بالعكس؛ لأن الذي يعيش أبداً إذا فاته شيء من الدنيا الآن يعوضه غداً أو السنة القادمة أو التي بعدها؛ لأن الدنيا تعوض، أما الدين فلا يعوض، فكل شيء إذا ضيعته منه عوض، وليس في الله إن ضيعت من عوض، فإذا كسبت الله كسبت كل شيء، وإذا خسرت الله فاتك كل شيء.

فالإمام أحمد يبين لنا في هذه الكلمة الطيبة السياسة التي ينبغي أن يتعامل بها الإنسان مع الدنيا.

يقول الشاعر: طاول بها الليل مال النجم أن جنح يعني: استغرق الليل في طاعة الله وفي ذكر الله وفي العبادة، ولا تمل من ذلك، وكلما تقول لك نفسك: أريد أن أنام، فقل لها: بعد قليل، وهذا هو التسويف في العمل الصالح، وهذا بخلاف التسويف في شهوات النفوس، وبعكس ما يفعل أكثر الناس، فكن كلما اشتكت لك نفسك أنها تريد أن تنام وتريد أن تستريح، فقل لها: سأريحك بعد هاتين الركعتين، وإذا أتيت بركعتين فقل لها: سأريحك بعد أن أقرأ هذا الجزء من القرآن، فإذا انتهيت فقل لها: استريحي

بعد هذا الورد من الدعاء، وهكذا سوفها في فعل الخير، كالإنسان المسوف الذي يماطل شريكه، ويتهرب منه بالوعود في المستقبل.

يقول: طاول بها الليل مال النجم أن جنح وماطل النوم ظن الجفن أن سمح فإن تشكت فعللها المجرة من ضوء الصباح وعدها بالرواح ضحى فكلما تأتي بعبادة فقل لنفسك إن تشكت في الليل: حينما تطلع مجرة الصباح سأريحك، ثم إذا طلع وقت الصبح عللها بوقت الضحى، وقل لها: سأريحك في الضحى.

هذا هو المقصود من الكلام.

وقد كان أهدي إلى أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى هدية من الخليفة المنصور، فردها للمنصور، ثم قال لأولاده بعد ما مرت سنة -أي: في الذكرى السنوية الأولى لهذه الهدية-: لو كنا قبلناها كنا قد استهلكناها وذهبت، أما الآن فقد استرحنا من هديته.

ومر بشر على بئر فقال له صاحبه: أنا عطشان، فقال: البئر الأخرى.

أي: انتظر حتى نصل إلى البئر التي بعدها، فمر عليها فقال له: الأخرى، أراد بذلك أن يعلمه درساً، فقال له: كذا تقطع الدنيا.

فكلما لاحت لك شهوة أو حاجة من حاجات الدنيا فلا تبادر بإنجازها وتحصيلها، ولكن سوف لنفسك في الدنيا، أما في الدين فلا تسوف؛ إنما في الدنيا قل لها: سوف أفعل كذا فيما يأتي.

ودخلوا على بشر الحافي وليس في داره حصير، فقيل له: ألا بذا تؤذى؟ فقال: هذا أمر ينقضي.

(16/3)

_____

دور كراهية الموت في انحطاط الهمم

هذا فيما يتعلق بالجزء الأول من الوهن الذي سبب انحطاط الهمم، وهو حب الدنيا، أما القسم الثاني فهو كما وصفه النبي عليه الصلاة والسلام فقال: (وكراهية الموت)، فإذا أحب عبد الدنيا فلابد أن يكره الموت؛ لأنه إذا أحب الدنيا عمرها، وإذا عمرها خرب الآخرة، لأنهما ضرتان؛ إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، فإذا أحب الدنيا واثاقل إليها ورضي بها دون الآخرة فسيخرب الآخرة، وبالتالي يكره الموت الذي سينقله إلى الدار الآخرة.

فثمرة حب الدنيا كراهية الموت، وكراهية الموت أيضاً ثمرة الحرص على متاع الدنيا مع تخريب الآخرة، فيكره أن ينتقل من العمران إلى الخراب.

قال الطبراني مبيناً أثر حب السلامة في الانحطاط بالهمة: حب السلامة يثني عزم صاحبه عن المعالي، ويغري المرء بالكسل، إن حب الدنيا وكراهية الموت صنوان لا يفترقان، وإن الهمة العالية لا تسكن القلب الجبان، وتأمل حال خفيف الهمة الذي أورثته التربية الفاسدة حرصاً على حياة، كما قال تعالى في شأن اليهود لعنهم الله: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} [البقرة:96].

ولذلك تحداهم القرآن الكريم، وهذه من آيات إعجاز القرآن الكريم؛ لأنهم ما قبلوا التحدي حينما تحداهم أن: {فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة:94]؛ لأن الإنسان إذا كان صادقاً ومع الحق فكيف يخاف من الموت؟ قال عز وجل: {وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} [البقرة:95]، فالكفار وسائر اليهود لا يمكن أن يتمنوا الموت أبداً؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: {لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} [الحشر:14].

ونحن لا ننسى خط برليف، وكيف أنهم صنعوا هذا الخط ليجسد معنى هذه الآية: ((لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ))، فنحن نجد دائماً أن المسلم إذا هجم بنفسه على يهودي لا يثبت أمامه اليهودي حتى لو كانت معه أسلحة أقوى منه، فالمسلم مستعد أن يلتهمه حتى بأسنانه وأظافره، ولذلك لا يقوون أبداً على المواجهة بدون هذه الأسلحة وهذه الجدر.

فخفيف الهمة هو الذي أورثته التربية الفاسدة حرصاً على أي حياة ولو كانت ذليلة، قال عز وجل عن هذا وعن أمثاله: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} [البقرة:96]، ونكر سبحانه وتعالى كلمة ((حَيَاةٍ)) إشارة إلى أنهم يرضون بالحياة ولو كانت أي حياة،

فيريد أن يعيش ولو ذليلاً، المهم أن يكون حياً؛ لأنه قد غرست فيه تربية حب السلامة في مواطن الجرأة والإقدام والمخاطرة.

انظر إلى هذا الرجل من خسيسي الهمة كيف يخبر أن زوجته هنداً تشجعه على الخروج إلى الجهاد أو للقتال أو للدفاع عن العرض والقبيلة والعشيرة أو الدين أو غير ذلك؛ حيث كانت زوجته أشجع منه؛ لأنها هي التي تشجعه وتحرضه على الخروج، وهو يرد عليها فيقول: أضحت تشجعني هند فقلت لها إن الشجاعة مقرون بها العطب أي: أن الشجاعة هذه تؤدي إلى المهلكة، فإن الشجاعة معناها: أنني قد أموت، قال: أضحت تشجعني هند فقلت لها إن الشجاعة مقرون بها العطب لا والذي حجت الأنصار كعبته ما يشتهي الموت عندي من له أرب للحرب قوم أضل الله سعيهم إذا دعتهم إلى حوماتها وثبوا ولست منهم ولا أهوى فعالهم لا القتل يعجبني منهم ولا السلب ويقول آخر: يقول لي الأمير بغير جرم تقدم حين حل بنا المراس فما لي إن أطعتك في حياة ولا لي غير هذا الرأس راس أي: ليس عندي رأس ثانية، فإذا طارت هذه في الحرب فبماذا أعيش؟! فأين هذان الجبانان من قول الشاعر: إذا أراد الغزو لم تثن عزمه حصان عليها نظم در يزينها نهته فلما لم تر النهي عاقه بكت فبكى مما شجاها قطينها يصور موقف آخر بالعكس من رجل خرج خارج للجهاد فزوجته ظلت تثنيه عن الخروج وتقول له: إلى من تتركنا؟ فإذا أراد الغزو لم تثن عزمه حصان عليها نظم در يزينها أي: متزينة بالدر.

نهته فلما لم ترى النهي عاقه أي: ما أثر فيه النهي.

بكت فبكى مما شجاها قطينها أي: من حولها من الحشم والخدم والأتباع بكوا لبكائها.

بل أين هذا الجبان من قول زهير بن أبي سلمى -وهو شاعر جاهلي-: وليس لمن لم يركب الهول بغية وليس لرحل حطه الله حامل بل نقول: أين هذا الذي يقول هذا الكلام من ذلك العبد الصالح الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه كلما سمع هيعة استوى على متنه، يطلب الموت والقتل مظانة)، إلى آخر الحديث، رواه أحمد ومسلم وابن ماجة.

هذا فيما يتعلق بالسبب الأول من أسباب انحطاط الهمة وهو الوهن، والوهن لا يفسر بغير ما فسره به رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (حب الدنيا وكراهية الموت).

دور الفتور في انحطاط الهمم

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك).

وقوله: (إن لكل عمل شرة)، يعني: نشاط وقوة، وقوله: (ولكل شرة فترة)، أي: ضعف وفتور، يعني: أن هذه هي طبيعة النفس البشرية، فهي تبدأ بهمة وبحمية، ثم بعد وقت يصيبها نوع من الفتور والملل.

ومن الطبيعي أن الإنسان لا يستطيع أن يلزم نفسه الجد بصورة مستمرة، والفترة والفتور أمر لابد منه، لكن على أن يكون إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فمثلاً: يقف الإنسان بالسيارة في محطة البنزين لبضع دقائق، وهذا نوع من الفتور والضعف أو الراحة أو التوقف من أجل أن يزودها بوقود، ومثل هذه الاستراحة تزود الإنسان بطاقة؛ حتى يستطيع أن يستمر بعد ذلك، فمعنى ذلك: أنه لا يتخذ محطة البنزين مستقراً، ولا يذهب ليأتي بالعفش والسرير والمطبخ والأكل والأواني ويضعها في محطة البنزين ليتخذها مقراً ومسكناً له؛ لأن هذا الشيء لا يعقل، لكن هذا ما نفعله نحن بالفعل، فمحطة الراحة لأجل التزود -كمحطة البنزين بالضبط- نتخذها وطناً، وما يكون في حياتنا إلا اللهو واللعب والكرة، ولا يكاد يوجد مظهر من مظاهر الجد في حياتنا.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن لكل عمل شرة ولكل شرة فترة)، يعني: فترة قليلة، وبعد ذلك يعاود الجهد، (فمن كانت فترته إلى سنتي)، أي: تبعني في الفترة كما تبعني في الشرة فقد اهتدى، (ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك).

وليس هذا مثل من يقول: ساعة لربك، وساعة لقلبك، ويقصد: القلب المريض، يقولها لك إذا نهيته عن المعاصي والمحرمات، وإطلاق البصر، والأغاني، أو أي شيء من المنكرات، حيث يقول: ساعة لربك، وساعة لقلبك! يعني: ساعة لقلبك المريض أو ساعة لشيطانك، وهذه قسمة كما قال عز وجل: {تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [النجم:22].

فالمسلم مطالب بطاعة الله سبحانه وتعالى في كل أحواله، ومطالب باحترام شرع الله في جميع عاداته، ومطالب باحترام الشرع في حالة الهزل والجد.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يا أيها الناس! خذوا من الأعمال ما تطيقون؛ فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل) متفق عليه، ويقول الشاعر: لكل إلى شأو العلى حركات ولكن عزيز في الرجال ثبات ومعنى هذا: أن الواحد ممكن أن يفهم ويسمع مثل هذا الكلام على ذوي الهمة في عبادة الله تعالى، ويسمع الأسباب في النهوض بالهمة فتتحرك همته إلى أنه يفعل مثل هؤلاء الخيرين الأخيار، وتقريباً أن كل من يسمع عن هذا تتحرك همته إلى الاقتداء بهم، لكن ليس كل الناس يثبتون، بل ترتفع الهمة عند هذا ثم لا تلبث أن تعود من جديد، وتأملوا ذلك في مناسبات كثيرة، فمثلاً: شهر رمضان، تجد في أول يوم من رمضان المساجد مكتظة في الصلوات الخمس؛ لأن رمضان أتى، وكل إنسان يريد أن يتوب ويستقيم ويصلح حاله مع الله سبحانه وتعالى، فالهمة موجودة، حتى في عوام الناس، فيقبلون إقبالاً شديداً جداً، ثم انظر إلى الانحدار الذي يحصل في أيامه البواقي، فمع مضي أيام الشهر يبدأ الناس يتقلصون رويداً رويداً، حتى يعود أهل المسجد العاديون هم الذين يعمرون المسجد من قبل كما كانوا عليه، وقس على ذلك أحوالاً كثيرة جداً.

وهكذا في طلب العلم وحفظ القرآن؛ حيث إن الطالب يبدأ في حفظ القرآن بنشاط، ثم لا يلبث أن يتراخى، فمن رأى أن الله سبحانه وتعالى وفقه إلى الثبات في طاعة بدأها واستمر فيها فهذا من فضل الله عليه الذي حرم منه الكثيرون، فلذلك عبر الشاعر عن هذا المعنى أدق تعبير، فالعبرة بأن تثبت، وإلا فأغلب الناس يفترون ويملون، ولا يواصلون، ومن ثمَّ قال النبي صلى الله عليه وسلم لـ عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما: (لا تكن مثل فلان؛ كان يقوم الليل فترك قيام الليل)، يعني: أنه فتر عن قيام الليل، فانظر إلى طاقتك الجسمية وظروف العمل والوقت وغير ذلك، وانظر ما هو الذي يدخل في طاقتك من الأوراد ومن قراءة القرآن ومن التعبد واجعله على قدر طاقتك بلا مبالغة، واستمر عليه، فمثلاً: لا تقم كل الليل ثم بعد ذلك تترك قيام الليل تماماً؛ لأن مثل هذا لن يؤثر في القلب ولن يعالج قسوة القلب، بل الذي يعالج القلب هو العمل المداوم عليه حتى ولو كان قليلاً، فمثلاً: لو أن معك برميلاً من الماء، وصببته مرة واحدة على صخرة، فإنه لن يؤثر فيها على الإطلاق، لكن لو أن نفس الكمية من الماء سقطت على هذه الصخرة الصماء قطرة قطرة فإنها ستحدث فيها حفيرة، وهكذا نفس الشيء المقصود من العبادة: علاج القلب وترقيقه وإحياؤه، وهذا لا يحصل إلا بالمداومة، حتى لو كانت جرعات قليلة في علاج أي مرض فإنها تؤثر.

فالإنسان لو أراد أن يتعاطى -مثلاً- مضاداً حيوياً فإنه لا يأخذ الشريط كله، ولا يقول: حتى أستعجل الشفاء فسأبلع الشريط كله؛ لأن هذا يسبب تسمماً، فسنة الله سبحانه وتعالى في العلاج أنه يكون رويداً رويداً، فعلى العبد أن يراعي سنن الله سبحانه وتعالى بالمداومة في كل الأمور، حتى في أذكار النوم، فلا يأت من يقول: أنا سأقول كل أذكار النوم كل ليلة، ثم إذا به لا يواظب عليها، وينام بعد ذلك ويهجرها.

لكن لو أنه قسم أذكار النوم إذا كانت خمسة عشر أو ثمانية عشر ذكراً وقال: اليوم الأول أقول ثلاثة أو أربعة، واليوم الثاني أقول أربعة، والذي يليه أربعة، وهكذا بطريقة دورية، فإنه مع الوقت يأتي بها كلها، وفي نفس الوقت لا يهجرها كلها، وإنما يهجر بعضها إلى حين، ثم يعود، والثواب الأكثر يكون للأكثر، لكن الأوسط أبسط وأجدر أن يداوم عليه صاحبه ويستمر، وقد كان أحب العمل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما داوم عليه صاحبه، وكان إذا عمل عملاً أثبته وداوم عليه صلى الله عليه وسلم.

وتجد في بعض الأحاديث إشارة إلى هذا، كقوله عليه الصلاة والسلام: (من صلى في يومه وليلته اثنتي عشرة ركعة دخل الجنة)، يعني: من واظب ولم ينقطع، ولم يصبه الفتور والملل.
(16/5)

_____

إهدار الوقت سبب من أسباب انحطاط الهمة

من أسباب انحطاط الهمم: إهدار الوقت الثمين في الزيارات والسمر وفضول المباحات، قال صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ).

فالإنسان قد يعطى الصحة لكن لا يعطى الفراغ بسبب شغله في الدنيا، وهذا كحال أغلب الناس الذين وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: (إن الله يبغض كل جعظري جواظ صخاب بالأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة).

والشاهد منه قوله: (جيفة بالليل، حمار بالنهار)، وكلمة (حمار) المقصود منها: بيان أنه يكدح كما يكدح الحمار، ويتحمل المشقة والتعب، وأصبح يضرب به المثل فيقال: فلان يعمل مثل الحمار.

يعني: أنه يعمل عملاً شاقاً جداً، ويداوم ويصبر عليه، فإذا أتى الليل لا يذكر الله سبحانه وتعالى، فهو جثة ملقاة بالليل، حمار بالنهار في طلب الدنيا؛ لأن عنده نعمة الصحة، فبعض الناس يؤتى الصحة التي يقتحم بها أسوار الدنيا، لكن ليس عنده وقت للآخرة؛ فهو مشغول دائماً في الدنيا.

وهناك أناس آخرين حرموا نعمة الصحة وعندهم وقت، مثل: إنسان مريض؛ فالمريض مرضاً مزمناً أو شديداً لا يمكنه من فعل أي شيء مفيد عنده الوقت؛ إذ لا شيء يشغله، لأنه مريض ملازم للفراش، لكنه فقد الصحة.

فأتم وأكمل ما يكون الأمر للإنسان إذا منَّ الله سبحانه وتعالى عليه بهذين الأمرين: صحة مع فراغ، فإذا استثمرهما في طاعة الله سبحانه وتعالى، وسخر الصحة والفراغ في طاعة الله وفي المقاصد الخيرية فهذا أعظم نعمة على العبد.

لكن المؤلم أن أكثر الناس في غفلة عن نعمة الله العظيمة، بل بعضهم حينما يجمع الله له هاتين النعمتين -الصحة والفراغ- يدمر الصحة بالمخدرات وبالسجائر والتدخين وبغير ذلك، ويقتل الوقت أو يقتل نفسه على الأحرى بالجلوس في المقاهي.

وتقريباً ظاهرة المقاهي غير موجودة إلا في بعض البلاد، كما في بلادنا حيث ترى الناس في المقاهي، وكأنه ما بقي أحد جالس في بيته، فالمقاهي عامرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله! والمساجد حالها كما تعلمون شيء مؤلم، وإذا قلت له: ماذا تفعل؟ يقول لك: أقتل الوقت! أنت تقتل نفسك، وتنتحر، فالنعمة هذه وكل لحظة محسوبة عليك؛ فالله سبحانه وتعالى أبلغ في الإعذار، وأعطاك كل فرصة ممكنة، وأنت الذي كفرت بها وضيعتها، فمعك العقل، ومعك الوحي الإلهي من القرآن والسنة يرشدك إلى كيفية استثمار الوقت، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة - النخلة الصغيرة - فإذا استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها).

فهذا الحديث يعلمنا كيف نغتنم ونستثمر الوقت، فإذا منَّ الله سبحانه وتعالى عليك بنعمة الصحة مع نعمة الفراغ فلا تكن من أكثر الناس الذين هم محرومون من استثمار هذه النعمة، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)، والغبن: يحدث عندما تملك سلعة وتريد أن تبيعها، فتبيعها بأقل من سعرها، أو إذا كنت ستشتري تشتري بأكثر من سعرها، هذا هو الغبن؛ فأنت تغبن نفسك عندما تأتي الفرصة وتضيعها، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ من النوم حمد الله على هذه النعمة، أي: نعمة أن الروح ترد إلى صاحبها عند الاستيقاظ، ولذلك شبه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بالنشور فقال: (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)، فهذه النعمة العظيمة هي أن الله سبحانه وتعالى مد في عمرك، وأعطاك فرصة جديدة اليوم؛ لعلك تتوب لعلك تستقيم على طاعته لعلك تنوي المزيد من أفعال الخير، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: (الحمد

لله الذي رد علي روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره)، أي: أعطاني فرصة أن أذكر الله.

ولذلك جاء أن ثلاثة شبان من بني عذرة أتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فاستضافهم أبو طلحة، فدعا داعي الجهاد، فخرج واحد منهم إلى الجهاد، فقتل في سبيل الله، ثم بعد فترة دعا داعي الجهاد، فخرج الثاني وقتل في سبيل الله، إلا الثالث مات على فراشه ولم يخرج إلى الجهاد كصاحبيه، ثم رآهم أبو طلحة في المنام، فرأى ترتيبهم فرأى أن آخر واحد مات على فراشه هو أعلاهم درجة، يليه الثاني، ويليه الأول الذي مات أولاً في الجهاد، فتعجب من ذلك، وحكا الرؤيا للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: (وما يعجبك من ذلك؟ إنه ليس أحد أفضل من مؤمن يعمر في الإسلام بالتسبيح والتهليل والتكبير)، أي: كيف تستغرب هذا؟ فهذا شيء طبيعي؛ إنه ليس أحد أفضل من مسلم يعمر في الإسلام؛ لأن عمره يزيد والطاعات تزيد، أما من كان عمره يزيد ويزيد شقاه ومعاصيه فمعناه: أن طول عمره مصيبة عليه، لكن العبرة حين يطول العمر وتكثر الأعمال الصالحة؛ لأن هذا يستكمل هذه النعمة؛ فلذلك قال عليه الصلاة والسلام: (إنه ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن أو مسلم يعمر في الإسلام بالتسبيح والتكبير والتهليل).

فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم شرح له الموقف، وقال له: إن الشهيد الثاني عاش وبقى فترة بعد الأول عمرها بالصلاة والذكر والتسبيح وقراءة القرآن وكذا، وبعد ذلك عاش الثالث؛ رغم أنه مات على فراشه، لكنه استطاع بالذكر وبقراءة القرآن وبالصلاة وبالعبادة أن يسبق الشهيدين مع أنه مات على فراشه، فهذه نعمة عظيمة جداً.

والظاهر أن هذا هو مضمون رسالة إبراهيم عليه السلام من السماء؛ فإن إبراهيم عليه السلام أرسل لنا لكنا وكل مسلم على وجه الأرض منذ زمن النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن تقوم الساعة، فكل واحد منا يتذكر ذلك، وكأنما جاءته رسالة باسمه من إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذلك حينما قال للرسول صلى الله عليه وسلم في رحلة المعراج: (يا محمد! أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)، أو كما قال عليه الصلاة والسلام، والحديث صحيح.

فهذه الرسالة من إبراهيم عليه السلام يبين فيها أن الجنة قيعان، وأنه كلما قال العبد: سبحان الله وبحمده، تغرس له نخلة في الجنة، وإذا قرأ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: 1] عشر مرات يبنى له قصر في الجنة، فأي حسرة يتحسرها الإنسان بعد الموت على هذه الفرص التي ضيعها وجعلها هباءً منثوراً؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: (لا يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله تعالى فيها)، يعني: أن الجنة دار منزهة عن النصب والتحسر والألم إلا من شيء واحد فقط يتحسر عليه أهل الجنة، وهو أنهم حينما يرون النعيم الذي هم فيه يتحسرون على لحظة من الزمن مرت بهم في الدنيا لم يذكروا الله عز وجل فيها.

فلاشك أنه لا يضيع هذه النعمة إلا مغبون، والإنسان إذا كان عنده رأس مال ويتجر به فإذا ربح فهذا هو الفوز، وإذا استرد رأس المال فهذه فائدة أيضاً، وإذا رأس المال نفسه هلك وضاع، فلا ربح ولا رأس مال وإنما خسران مبين، فعلى هذه الخسارة يتحسر هذا الإنسان.

وبعض العلماء قال: تعلمت تفسير سورة العصر من بائع ثلج.

وسورة العصر فيها قسم بالعصر والوقت والدهر والزمن، قال عز وجل: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر:1 - 2]، يعني: أن كل الناس في خسر، ثم استثنى قلة قليلة فقال: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر:3]، فهؤلاء فقط هم الذين ينزهون من الخسران، ولماذا الإنسان في خسر؟

الجواب

لأنه إذا لم يستثمر نعمة الوقت والصحة في هذه الأشياء الأربعة: ((آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ))، فإنه يخسر رأس ماله.

وهي خسارة ما بعدها خسارة.

قال: رأيت هذا الرجل بائع الثلج -وقبل لم تكن هناك ثلاجات ولا مجمدات بحيث يحفظ فيها الثلج- فالسوق انفض، وصلى الناس صلاة العصر، فبقيت عنده بعض ألواح من الثلج التي هي رأس ماله لم يبعها، وقارب العصر على الخروج، فالرجل كان يسير في الطرقات كالمجنون، يحمل الثلج ويقول للناس: ارحموا من يذوب رأس ماله! ارحموا من يذوب رأس ماله! لأن رأس ماله ماء متجمد، فإذا ذاب لم يبق معه رأس مال، فكذلك نفس الشيء؛ رأس مالك أنت هو الوقت، فإذا ضيعت الوقت فأنت تخسر رأس المال، فمن ثمَّ وصف الله الإنسان المضيع وقته بالخسران فقال: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر:1 - 2].

بين تبارك وتعالى في هذه الإشارة العظيمة في الحلف والقسم بالعصر أن العصر -الذي هو الزمن والوقت- نعمة عظيمة فلا تضيعوها؛ فهي نعمة شريفة، ولذلك أنا أقسم بها وأقول: {وَالْعَصْرِ} [العصر:1]، أقسم بها أنها نعمة شريفة، والسيئ ليس الزمان، إنما السيئ أفعالكم أنتم، كما قال الشاعر: نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا ونهجوا ذا الزمان بغير ذنب ولو نطق الزمان لنا هجانا فليس هناك حاجة اسمها زمن أسود، وإنما أعمالنا نحن هي التي تسيئ إلينا.

الشاهد من الكلام: أن هذا الحديث يشير إلى هاتين النعمتين: الصحة والفراغ، فإذا أعطيت قدراً من الصحة والفراغ فاستثمر هاتين النعمتين بأقصى ما تستطيع.

يقول الشاعر: والوقت أنفس ما عنيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع

حفاظ السلف على أوقاتهم

تعالوا نتحسر على أنفسنا حينما نرى أحوال السلف الصالح رحمهم الله تعالى، يقول الفضيل بن عياض: أعرف من يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة.

يعني: يقدر يعد كم كلمة تكلمها من الجمعة إلى الجمعة التي تليها! أي: أنه حارس على لسانه حتى على عدد الكلمات التي يتكلمها.

ودخلوا على رجل من السلف فقالوا له: لعلنا شغلناك؟ قال: أصدقكم؛ كنت أقرأ فتركت القراءة لأجلكم.

يعني: أنتم عطلتموني عن الخير.

وجاء عابد إلى السري السقطي فرأى عنده جماعة فقال: صرت مناخ البطالين؟! ثم مضى ولم يجلس.

أي: صرت المستظل الذي يجلس عنده أهل اللهو والغفلة، فرفض أن يجلس معه.

وقعد جماعة عند معروف الكرخي فأطالوا القعود، فقال لهم: إن ملك الشمس لا يفتر عن سوقها، فمتى تريدون القيام؟ وقال بعض السلف: من فاتته ركعات الفجر فليلعن الثقلاء.

يعني: الذين يزورون الإنسان بعد العشاء، ويسهرون معه حتى يعطلوه عن ركعتي الفجر.

وقال بعض السلف: إذا طال المجلس صار للشيطان فيه نصيب.

يعني: أن المجلس يكون بقدر الحاجة، فإذا كنت في صلة رحم أو عيادة مريض أو غير ذلك من الأسباب فعليك أن تقضي حاجتك وتنصرف، أو تجتمع معه على طاعة كقراءة كتاب أو مسألة علمية أو حفظ قرآن أو تسميع قرآن أو ذكر لله عز وجل، أما ما سوى ذلك وقد قضيت حاجتك فالجلوس إذا طال صار للشيطان فيه نصيب؛ لأنه سوف ينشغل الإنسان بعد ذلك بالغيبة وبالنميمة وبالكلام فيما لا ينفع ولا يجدي.

ولذلك قال الحسن أيضاً: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

وكان عثمان الباقلوي دائم الذكر لله تعالى، فقال: إني وقت الإفطار أحس بروحي كأنها تخرج؛ لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر.

وأوصى بعض السلف أصحابه فقال: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا؛ لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم.

فهذه نصيحة ذهبية للإخوة نرجو أن يلتزموا بها، فإذا كنت أيها الأخ! في المسجد فصليت وقضيت حاجتك أو حضرت درس العلم فامش وحدك؛ لأنك إن كنت وحدك فممكن أن تسمع القرآن وأنت تمشي، وأن تذكر الله سبحانه وتعالى.

أما إذا مشى معك أحد فإنه يعطل بعضكم بعضاً، فإن كنتم تمشون جماعة لكن كل واحد ينشغل بذكر فلا بأس، أما أن جماعة يمشون ويتكلمون في كلام لا يفيد فالوحدة أفضل من هذه الجماعة.

وجليس الخير خير من قعود المرء وحده، ووحدة الإنسان خير من جليس السوء.

العجز والكسل من عوامل انحطاط الهمة

من أسباب انحطاط الهمة: العجز والكسل، فالعجز والكسل هما العائقان اللذان أكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم من التعوذ بالله منهما، فمما كان يقول: (وأعوذ بك من العجز والكسل)، فالعجز بأن يكون يريد أن يفعل لكنه غير قادر، والكسل: أن تكون قادراً لكن ليس هناك همة، وعندك فتور.

وقد يعذر العاجز لعدم قدرته بخلاف الكسول، فالعاجز قد يعذر؛ لأنه يحاول ولا يستطيع، فتخلف العمل نتيجة عجز، لكن الكسول عنده القدرة، لكنه همته ضعيفة، فلذلك لا يعذر الكسول، وقد يعذر العاجز؛ فالكسول يتثاقل ويتراخى مع القدرة على أداء ما ينبغي.

قال الله تعالى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة:46].

فالإنسان مطالب بين وقت وآخر أن يجدد التوبة مع كل نفس جديد أو ثانية تمر بعمرك، فهذه فرصة جديدة، فكيف تسوف وتقول: سأتوب الأسبوع القادم أو الشهر القادم، فلا تقل: بعدما أعتمر أو بعدما أحج سوف أتوب، كما يضحك الشيطان على كثير من الناس.

والمرأة يقال لها: متى تتحجبين؟ فتقول: بعدما أحج وأرجع! فهل تضمنين عمرك؟ وهل تظنين أنك غير مسئولة عن الحجاب في هذه الفترة؟ بل أنت آثمة، وتحملين هذا الوزر، وكذلك في كل طاعة تؤجل بلا مبرر أو بلا مسوغ.

فاتقوا الله، وتوبوا إليه، واستقيموا؛ فإن الصادق يأخذ بالأسباب، كما قال تعالى: ((وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً))، فإذا أردت أن تنهض من وحل التدخين وحل المخدرات وحل الغفلة وحل اللهو فلابد أن تعد عدة، وابذل من الأسباب ما يثبت جديتك في هذا الأمر، قال عز وجل: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة:46].

روي أن رجلاً قال لـ خالد بن صفوان: ما لي إذا رأيتكم تذاكرون الأخبار، وتدارسون الآثار، وتناشدون الأشعار وقع علي النوم؟ قال: لأنك حمار في مسلاخ إنسان.

وقد ترى الرجل موهوباً ونابغة فيأتي الكسل فيخذل همته، ويمحق موهبته، ويطفئ نور بصيرته، ويشل طاقته؛ ولذلك قلنا: الكسول لا يعذر؛ لأن الكسول قادر على أن يفعل، بخلاف العاجز، فممكن أن الإنسان يكون موهوباً فعلاً وذكياً وقادراً على العمل، لكن تنحط همته، فتشل طاقته.

قال الفراء رحمه الله تعالى: لا أرحم أحداً كرحمتي لرجلين: رجل يطلب العلم ولا فهم له، ورجل يفهم ولا يطلبه؛ وإني لأعجب ممن في وسعه أن يطلب العلم ولا يتعلم.

قال المتنبي: ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام فأنت قادر لكن الكسل هو الذي يعجزك؛ لذلك لا تعذر بالكسل.

الغفلة سبب من أسباب انحطاط الهمم

من أسباب ضعف الهمة: الغفلة، وشجرة الغفلة تسقى بماء الجهل، وكلما زاد الجهل كلما زادت الغفلة في الإنسان، فالجهل عدو الفضائل كلها، فهل علمتم أمة في جهلها ظهرت في المجد حسناء الرداء؟! قال عمر رضي الله عنه: الراحة للرجال غفلة.

وقال شعبة بن الحجاج: لا تقعدوا فراغاً؛ فإن الموت يطلبكم.

أي: لا تقعد فارغاً من العمل الصالح؛ لأنه ليس هناك شيء اسمه فراغ؛ فإن الموت يطلبك، ويجري وراءك، وكل لحظة تمر أنت تقترب بها خطوة إلى السطح، وهو موعد أنت لا تعرف متى يحل، فقد يكون بعد ساعة، أو بعد لحظة أو بعد دقيقة أو بعد سنة،

فلا تدري متى يحضر، فكن متأهباً لملاقاة الموت، ولذلك يقول: لا تقعدوا فراغاً؛ فإن الموت يطلبكم.

يقول أبو الدرداء: (عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه)، أي: هو يجري وراء الدنيا، والموت يجري وراءه، قال: (عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه، ولغافل وليس بمغفول عنه)، أي: هو غافل، لكن هل الله غافل عنه؟

الجواب

لا، ليس بغافل عنه، قال عز وجل: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية:29].

قال: (وضاحك ملء فيه ولا يدري أرضي الله عنه أم سخط عليه؟)، فلاحظ قوله: (ملء فيه)، كما نرى الذين يضحكون من المسرحيات الكوميدية، ويضحكون على الذين في التمثيليات، والمتطرفين والإرهابيين، وكل هذا مما توحيه الشياطين إلى هؤلاء الناس، فيضحك أحدهم ويفرح ويمرح وهو لا يدري هل الله سبحانه وتعالى فوق السماء راضٍ عنه أم ساخط عليه! قال عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ} [المطففين:29 - 31]، فهم ينكتون على هؤلاء الملتزمين، والله المستعان.

وسئل ابن الجوزي: أيجوز أن أفتح لنفسي في مباح الملاهي؟ فقال: عند نفسك من الغفلة ما يكفيها.

يقول الأستاذ محمد أحمد الراشد: وكلامه طيب جداً في هذه المسألة-: فإن اعترض معترض أتيناه بمثل كلام ابن القيم رحمه الله؛ حيث يقول: لابد من سنة الغفلة ورقاد الغفلة، ولكن كن خفيف النوم لا يدمن شيئاً من الغفلة.

وكما قدمنا في الكلام على الفترة، وذكرنا أن الإنسان لا يجعل الفترة هذه هي المستقر والوطن، بل هي فترة مؤقتة يستريح فيها، ثم يعود من جديد للعمل والاجتهاد.

فلذلك يقول ابن القيم: كل إنسان لابد له من سنة الغفلة ورقاد الغفلة، ولكن كن خفيف النوم، لا تجعل نومك ثقيلاً، وتستمر في الغفلة، وتبقى هي الأصل في حياتك.

يقول الشيخ الراشد: والمراد: تقليل الراحة إلى أدنى ما يكفي الجسم كل حسب صحته وظروفه، خاصة وأن المؤمن في هذا الزمان أشد حاجة للانتباه ومعالجة قلبه وتفتيشه مما كان عليه المسلمون في العصور الماضية؛ لأننا في زمان حتى الهواء الذي نتنفسه مسموم، لا أعني: العوادم وتلوث البيئة الذي يتحدثون عنه، نعم هي تلوث، لكن أعني تلوث البيئة الأخلاقية تلوث البيئة الثقافية تلوث البيئة الفكرية تلوث البيئة الاجتماعية تلوث في كل مكان.

وقد ضرب بعض الناس لهذا مثالاً فقال: لو أن أناساً كانوا يعيشون في الريف، فأغلقوا الحجرات، وأتوا بالفحم وأحرقوه، وأقفلوا الشبابيك؛ لأجل أن الجو بارد، فيريدون أن يدفعوا هذا البرد، فماذا سيحصل؟ سيحصل الاختناق بسبب وجود غاز ثاني أكسيد الكربون بسبب الاحتراق، فيخنقهم الغاز ويقتلهم، مع أنهم يتلذذون بهذا الهواء الذي يستنشقون، فهؤلاء يختنقون دون أن يشعروا، يختنقون رويداً رويداً دون أن يحسوا بهذا السم.

فلو أتى رجل وفتح عليهم النافذة فحينئذٍ فقط يفرقون بين الهواء النقي وهذا الذي يتنفسونه.

وهكذا الوضع بالنسبة إلينا، فلا توجد نافذة نلقي منها الهواء المسموم الذي نحن فيه، ونصحح ما نتعاطاه من الهواء الفاسد إلا السير على منهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى، فحينما نرى أحوال السلف نحس بالسم الذي نعيش فيه، وقد حصل منا نوع من التكيف مع هذا الباطل، بل التأثر به، شئنا أم أبينا، فلا يمكن أن تنطلق قوتنا إلا بالمقارنة باستمرار مع أحوال السلف الصالح رحمهم الله تعالى، لأنهم هم الذين عاشوا في بيئة نقية مائة في المائة، وكانت الغلبة للإسلام، فما كان عندهم أي سموم في المعرفة التي يغص بها المسلمون الآن، فكل الأعراض مسممة إلا ما شاء الله سبحانه وتعالى من البقايا الذين يدعون إلى منهج السلف الصالح يرحمهم الله تعالى، ويذكرون الناس بأحوالهم، فهذا هو المنبع الوحيد الذي نستطيع أن نقوم به اعوجاجنا، وأن نطلع بين وقت وآخر على أحوال السلف؛ حتى نراجع أنفسنا، وإلا فسوق نسقط صرعى للتضليل وللآبار المسمومة، ولهذا الغاز المسموم.

يقول الشيخ الراشد حفظه الله: وإن المؤمن في هذا الزمان أشد حاجة للانتباه ومعاجلة قلبه وتفتيشه مما كان عليه المسلمون في العصور الماضية؛ ذلك أنهم كانوا يعيشون في محيط إسلامي تسوده الفضائل، ويسوده التواصي بالحق، والرذائل تجهد نفسها في التستر والتواري عن أعين العلماء وسيوط الأمراء، أما الآن فإن المدنية الحديثة جعلت كفر جميع مذاهب الكفار مسموعاً مبصراً بواسطة الإذاعات والتلفزة والصحف -طبعاً والدش والفيديو- وجعلت إلقاءات جميع أجناس الشياطين قريبة من القلوب، وبذلك زاد احتمال تأثر المؤمن من حيث لا يريد ولا يشعر بهذا المسموع والمنظور، فضلاً عن ارتفاع حكم الإسلام عن الأرض الإسلامية التي يعيش فيها، فوجب عليه شيء من المجاهدة والمراقبة لوقته أكثر مما كان يجب على السلف.

وما أصدق تصوير إمام تركيا بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله لهذه الحقيقة حيث يقول: إن هذه المدنية السفيهة المصيرة للأرض كبلدة واحدة يتعارف أهلها ويتناجون بالإثم.

يعنى: بالجرائد صباح ومساء، والنورسي في زمانه كانت وسيلة الاتصال بين أقطار العالم هي الجرائد، أما الآن فليست الجرائد فحسب، ولكن بالريموت كنترول، فبضغطة زر وهو جالس على الفراش ممكن أن يطوف كل أنحاء العالم، ويطلع ويعرض على قلبه لكل أنواع الكفر وكل أنواع المعاصي والفواحش بكل ما تعنيه من معنى، حيث تغزوه وتغزوا أهله، وأولاده في كل مكان، فضلاً عن مناهج التعليم، فضلاً عن رفقاء الشوارع.

فأقول: إن التناجي بالإثم الآن أصبح أعظم بكثير مما كان يتكلم عنه النورسي رحمه الله.

يقول: إن هذه المدنية السفيهة المصيرة للأرض كبلدة واحدة يتعارف أهلها ويتناجون بالإثم وما لا يليق في الجرائد صباحاً ومساءً، غلظ بسببها وتكاتف بملاهيها حجاب الغفلة؛ بحيث لا يخرق إلا بصرف همة عظيمة.

يعني: لا يستطيع الإنسان أن ينجو من هذه الفتن كلها إلا بهمة قوية جداً؛ لأن الهوى يدفعه إلى هذه الأشياء، والشيطان يسول له، وصحبة السوء تحرضه، والنفس الأمارة بالسوء تأمره، فبالتالي لا يستطيع المقاومة إلا إذا كانت له همة يستعلي بها ويصعد ويرتقي أعلى من هذه المغريات كلها.

هذا فيما يتعلق بكون الغفلة سبباً من أسباب انحطاط الهمة.

(16/9)

دور التسويف والتمني في انحطاط الهمة

التسويف والتمني هما صفة بليد الحس عديم المبالاة، الذي كلما همت نفسه بخير إما أنه يعيقها بكلمة (سوف) حتى يفجأه الموت، وأكثر ما يصيح أهل النار من كلمة (سوف)، يقولون: واحزناه من سوف! فإذا أكثر الإنسان من قوله: سوف أصوم، وسوف أصلي، وسوف أتوب، وسوف أفعل كذا فلن ينجز شيئاً.

فإذا همت نفسه بخير يقول: سوف أفعل فيما بعد، ويؤجل، فإذا حضره الموت قال: {رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا} [المنافقون:10 - 11].

ألم تعط الفرصة؟ كما قال عز وجل: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ} [فاطر:37] يعني: ألم نمد في أعماركم فترة كافية، فمن أراد أن يتوب فقد كانت عنده فرصة يتوب فيها.

وقوله: (وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ) قيل في تفسيرها أشياء كثيرة، لكن من ضمنها: أن النذير هو الشيب في الرأس، يعني: أن هذا الشيب إنذار بقرب الموت، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد أعذر الله إلى رجل أخره حتى بلغ ستين سنة)، يعني: إذا وصل ستين سنة ومع ذلك ما تاب ولا أناب بل تمادى في المعاصي والمخالفات فبعد ستين سنة ماذا ينتظر؟! هذا فيما يتعلق بمن يقول: سوف، وهناك من لا يقول: سوف، ولكنه يركب بحر التمني، وأحلام اليقظة، والإنسان إذا كان يعيش في حلم فإن هذا الحلم يكون حلماً لذيذاً، ويود ألا يستيقظ عند وقت الصلاة أو عند أي شيء؛ حتى لا يفسد عليه أحد هذه اللعبة وهذا الحلم الزائف، وهي وهمية عبارة عن أحلام في أحلام، كما

قال الشاعر: أحلام نوم أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع لكن هذا يريد أن يستمر دائماً في الأحلام؛ حتى يتمتع بها، فيحلم أنه يطير، وأنه يأكل أو يشرب أو كذا أو كذا مما يعوقه ويسره من هذه الأحلام.

فالإنسان إما أن يسوف ويقول: سوف أصوم سوف أتوب سوف أصلي سوف أفعل، والعمر يمضي ويجري، وإما أن يركب بحر التمني، والتمني يطلق على ما لا يكون وما لا يقع، وهو بحر لا ساحل له، فيبقى الحالم في هذا البحر إلى ما لا نهاية، ويدمن ركوبه مفاليس العالم، كما قيل: إذا تمنيت بت الليل مغتبطاً إن المنى رأس أموال المفاليس فالمفلس رأس ماله التمني؛ ويظل يحلم بأنه سيفعل كذا ولو أنه كذا! كما سنبين في المسائل القريبة إن شاء الله.

أما بضاعة ركاب السفينة التي تخوض في بحر التمني الذي لا ساحل له فهي: مواعيد الشيطان، وخيالات المحال والبهتان، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة والخيالات الباطلة تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية ليس لها همة تنال بها الحقائق الخارجية، بل اعتاضت عنها بالأماني الدنية، فيتمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصلها، والتذ بالظفر بها، فبينما هو على هذه الحال إذ استيقظ فإذا يده والحصير في التراب! يعني: لم يحصل شيئاً؛ لأنه لا يحصل على شيء في عالم الحقيقة، بل كل إنجازاته في عالم الخيال.

وأحلام اليقظة بحد ذاتها ليست ضارة إذا كان يترتب عليها عملاً، فإذا كان الإنسان وهو مستيقظ يفكر أن يفعل كذا وكذا من أعمال الخير أو يخطط لشيء نافع له، ومادام هذا التخطيط ينقلب بعد ذلك إلى واقع فلا حرج في ذلك، لكن المشكلة في أن تكون كل حياته أحلام يقظة، ولا يفعل شيئاً على الإطلاق، فأنى ترتفع همة مثل هذا الشخص؟! يقول ابن القيم في مدارج السالكين: وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية، ليس لها همة تنال بها الحقائق الخارجية، بل اعتاضت عنها بالأماني الدنية، فيتمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه، وقد فاز بوصلها، والتذ بالظفر بها، فبينما هو على هذه الحال إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وقد جاء في بعض الكتب قصة فيها: أن ناسكاً كان له عسل وسمن في جرة، ففكر يوماً على طريقة الأماني الكاذبة فقال: أبيع الجرة بعشرة دراهم، وأشتري بالعشرة دراهم خمسة أعنز، فأولدهن في كل سنة مرتين، وحتى يبلغ النتاج مبلغاً، وأشتري بكل أربع -أي: أعنز- بقرة، وأشتري البذور، فأزرع، وينمو المال في يدي، فأتخذ المساكن والعبيد والإماء والأهل، ويولد لي ولد، فأسميه كذا، وآخذه بالأدب -وكان معه العصا- فإن هو عصاني ضربت بعصاي رأسه، ورفع العصا التي كانت في يده حاكياً للضرب فأصابت الجرة، فانكسرت، وانصب العسل والسمن على رأسه! فانتبه من رقدة الغفلة فالعمر قليل واطرح سوف وحتى فهما داء دخيل وقال رجل لـ ابن سيرين: إني رأيت في منامي أني أسبح في غير ماء، وأطير بغير جناح، فما تفسير هذه الرؤيا؟ فقال له: أنت رجل كثير الأماني والأحلام.

وما أحسن ما قال أبو تمام: من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأماني لم يزل مهزولاً يعني: أنه يشبه العزيمة والهمة بالمرعى، وأن الأرض التي ترعى فيها العزيمة أرض قاحلة، فيها أمانٍ كاذبة فقط، فستبقى عزيمته دائماً هزيلة لا تسمن؛ لأنها لا تأكل شيئاً.

وعن الحسن قال: المؤمن من يعلم أن ما قال الله عز وجل كما قال، والمؤمن أحسن الناس عملاً، وأشد الناس خوفاً، لو أنفق جبلاً من ماله في سبيل الله لا يأمن عذاب الله سبحانه وتعالى ولا سوء الخاتمة إلا بعد أن ينجيه الله، ويرى الجنة بعينيه.

أي: وأما قبل ذلك فلا يأمن.

ولا يزداد الإنسان صلاحاً وبراً وعبادةً إلا ازداد خوفاً من الله.

فكلما ازداد في العبادة كلما ازداد خوفه من الله.

وأما المنافق فيقول: سواد الناس كثير، وعدد الناس كثير، وسيغفر لي، ولا بأس علي، ويسيئ العمل، ويتمنى على الله تعالى.

وأما السلف الصالح فكانوا يحسنون ويخافون، أما نحن فنسيئ ونرجو ونطمع ونؤمل.

قال المتنبي منزهاً ممدوحه عن الاستغراق في أحلام اليقظة، ومبيناً كيف أجفى الحقائق واعتاد ركوب المخاطر: وما كنت ممن أدرك الملك بالمنى ولكن بأيام أشبن

النواصيا لبست لها كدر العجاج كأنما ترى غير صافٍ أن ترى الجو صافيا يعني: هذه حالة استثنائية؛ فإذا كان الجو صافياً فإنه يبقى غير صافٍ؛ لأنك تعودت على المحن، وتعودت على الشدائد وخوض الأهوال.
(16/10)

_____

دور جليس السوء في انحطاط الهمة

من أسباب انحطاط الهمة: مجالسة سافل الهمة من أبناء الدنيا؛ فإن سافل الهمة من طلاب الدنيا كلما هممت بالنهوض جذبك إليها، وغرك قائلاً: أمامك ليل طويل فارقد!

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إما أن يحذيك -يعني: يعطيك- وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة)، متفق عليه واللفظ لـ مسلم.

فهذا حال الجليس الصالح وجليس السوء، فلابد أن تتأثر بالجليس شئت أم أبيت، فحذار من مجالسة المثبطين من أهل التبطل والتعطل في اللهو والعبث؛ فإن طبعك يسرق منهم وأنت لا تدري، وليس إعداء الجليس لجليسه بمقاله وفعاله فقط بل بالنظر إليه، وكما أن الأطباء يقولون: إن الأمراض تعدي وتنتقل، فكذلك الأخلاق أيضاً تنتقل بالتأثير وبالعدوى؛ لأن الطبع يسرق، فإذا أردت أن تجد لنفسك صفة معينة فصاحب واحداً فيه هذه الصورة، فإذا صاحبت إنساناً غافلاً لاهياً عابثاً فإن هذا يدل على أنك تريد أن تنتقي نفس هذه الصورة، وهذا أمر مشاهد ومعروف.

وطرق العدوى ليست فقط الكلام أو الأفعال وإنما أيضاً تنتقل هذه العدوى بالنظر إلى أهل السوء وأهل البطالة، أو بالنظر أيضاً إلى أهل الهمة، فتنتقل هذه العدوى وهذا التأثير، وما سمعنا في الطب بعدوى تنتقل بالنظر، فهذا يعني أن هذا الداء أخطر من الأمراض الجسدية، وهذا الشيء محسوس، فإذا كان هناك مجمع من الناس فتثاءب منهم أحد فإن البقية كلهم يتثاءبون مثله، وهذا مما هو معروف فتنتقل العدى حتى بالنظر، والروح يكون لها تأثير على الروح التي تجالسها.

فالنظر في الصور يورث في النفوس أخلاقاً مناسبة لخلق المنظور إليه، ومن الإنسان نستعرض هذا المعنى، فالنظر في صور الظالمين أو الفاسقين لابد أن يطبع تأثيراً في القلب، ولذلك من رحمة لله بالإنسان أن يعافيه من النظر إلى التلفزيون وإلى صور الملوك والرؤساء والممثلين والفنانين ونحوهم، فهؤلاء لا تنظر إليهم، ومن سلامة لقلبك ألا تنظر، وإذا نظرت فلابد أن سيحصل عندك نوع من أنواع التأثير، ولذلك كن في عافية، وسد هذا الباب حتى لا تتأثر بأخلاق هؤلاء القوم.

فهذه أم جريج العابد دعت عليه ألا يموت حتى ينظر إلى وجوه الزانيات، كما في القصة المعروفة في صحيح مسلم، ونظر بالفعل، وأمه كانت ترى أن هذه عقوبة، ولذا دعت عليه بها، فدعت عليه بأنه لا يموت حتى يبصر هذه الفتنة والعياذ بالله! لأن هذا يضر بالإيمان والقلب، فلا تفعل كما يفعل الأسير الذي يفرح بالرق ويفخر به، ويفخر أن عنده دشاً، ويفخر أنه ينظر إلى التلفزيون والأفلام وكذا! فأنت تقتل نفسك، وتسمم قلبك، ولا تضر إلا نفسك، كما قال عليه الصلاة والسلام: (من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً)، فأنت المتضرر في الحقيقة.

فالنظر في الصور يورث في النفوس أخلاقاً مناسبة لخلق المنظور إليه، ومن المشاهد أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة، فما الظن بالنفوس البشرية؟! قال الشاعر:

ولا تجلس إلى أهل الدنايا فإن خلائق السفهاء تعدي
(16/11)

_____

العشق سبب من أسباب انحطاط الهمم

من أسباب انحطاط الهمم: العشق، ووقوع الإنسان في أسر العشق، ولا شك أن هذا الموضوع يطول فيه الكلام جداً، وهو من البلاء الذي تجند من أجله الآن هيئات وأموال، ولأن كل شاب يتمنى أن تكون في حياته فتاة يتخيلها ويتغنى بها، وينشد لها الأشعار والأغاني، ويزعم أن هذا هو الوضع الطبيعي؛ محاكاة لأحوال الكفار.

وفي الحقيقة أن هذا الموضوع موضوع كبير؛ لكن لأنه ليس عاملاً أساسياً فسوف نشير إشارة عابرة؛ فالعشق يسفل الهمة؛ لأن هذا العاشق تستنفذ كل طاقاته في تحصيل محبوبته، وكل همته أنه يراها، أو يقابلها، أو يحصل منها على كذا أو كذا، فكل همته تتجه إلى هذا الشيء، وكل حياته تطوف حول محور معين ألا وهو المعشوق.

فالشاهد: أن همة العاشق تنحصر في أن يحصل ما يحبه، فيلهيه ذلك عن حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم: {بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف:50].

فعالي الهمة يأنف ويستنكف أن يستأسره العشق الذي يمنع القرار، ويسلب المنام، ويولع العقل، ويحدث الجنون، وكم من عاشق أتلف في معشوقه ماله وعرضه ونفسه! وأتلف دينه ودنياه! والعشق يترك الملك مملوكاً، والسلطان عبداً، وترى الداخل فيه يتمنى منه الخلاص ولات حين مناص، وكم أكبت فتنة العشق رءوساً على مناخرها في الجحيم! وأسلمتهم إلى مقاساة العذاب الأليم، وجرعتهم من بين أصناف النار كئوس الحميم.

فالحقيقة أن العشق أخطر من ذلك، ويحتاج إلى أكثر من عبارة حتى نعطيه حقه، لكن هذه إشارة عابرة المقصود بها الإشارة إلى تأثير العشق في الهمة، وأنه في الغالب يثبط الهمة، إلا إذا صادف عشقاً مباحاً، وهو عشق الزوجة، فلم ير للمتحابين مثل النكاح؛ لأنه حصلها في هذه الحالة، وصارت تحت سلطانه، أما خلاف ذلك فالأحوال كما تعرفون.

(16/12)

_____

دور الانحراف في العقيدة في انحطاط الهمم

من أسباب سفل الهمة: الانحراف في العقيدة، فالانحراف في العقيدة ينعكس أيضاً على همة الإنسان، ونخص بالذكر هنا قضيتين من قضايا العقيدة: قضية سوء فهم القضاء والقدر، وقضية الإرجاء، فالمسألة مسألة عقيدة، فإذا أساء الإنسان فهمها فإنها تجعل همته سافلة، فسوء فهم قضية القضاء والقدر بلا شك ينعكس انعكاساً واضحاً جداً على همم بعض الناس، خاصة الذين يذهبون إلى مذهب الجبرية.

وقد سبق الكلام في هذا بالتفصيل، والمقصود: مجرد الإشارة، فسوء فهم القضاء والقدر يؤدي بالإنسان إلى التواكل وعدم تحصيل التوكل على الله سبحانه وتعالى حق توكله.

كذلك أيضاً بدعة الإرجاء، وأن الإيمان كلام فقط، ومعرفة بلا عمل، وأن المعاصي لا تؤثر في الإيمان، وأن الناس لا يتفاضلون في إيمانهم.

وتعتبر بدعة الإرجاء من أخطر البدع وأشرها تأثيراً في الهمة.

(16/13)

_____

الغناء ودوره في انحطاط الهمم

من أسباب انحطاط الهمم: الفناء، وهو اصطلاح صوفي، لكن نحن مضطرون إلى استعماله هنا؛ لأن هذا واقع من كثير من الناس، فهناك الفناء في ملاحظة حقوق الأهل والأولاد، وحقوق الأهل والأولاد من الواجبات على الرجل، لكن نحن لا نتكلم عن شخص يؤدي الواجب الذي عليه، بل نتكلم عن واحد يستغرقه الأهل والأولاد بصورة تفتنه تماماً عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وبصورة يتحقق فيها ما حذرنا منه الله سبحانه وتعالى حينما قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن:14]، وقوله: (عَدُوًّا لَكُمْ)، يعني: عداوة غير مباشرة، فالعدو إما عدو صريح، وإما عدو متلون، فإيثار رضا الأهل والأولاد على ما يرضي الله سبحانه وتعالى، والافتتان بهم بحيث أن الإنسان يرتكب مخالفات في سبيل أن يأتي لهم بالمال أو غير ذلك فإن هذا يعتبر عداوة حقيقية؛ لأنها تؤثر في الدين سلباً، فمن ثمَّ أطلق الله على هؤلاء الأحباب الذين يحبهم الإنسان قوله: ((عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)) [التغابن:14]، أي: كما تحذرون الأعداء.

فمن أسباب انحطاط الهمة الفناء في ملاحظة حقوق الأهل والأولاد، واستغراق الجهد في التوسع في تحقيق مطالبهم؛ فالأب ليست له وظيفة غير أنه يحقق كل رغبات

الأطفال، فهم يأمرون وهو ينفذ، ويقول: سمعنا وأطعنا، وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة، هذا هو الذي نعنيه.

ومثل هذا ينظر إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام: (وإن لأهلك عليك حقاً)، لكنه يترك قوله: (وإن لربك عليك حقاً)، فالمسلم مطالب أن يكون متوازناً، فيكون عنده نوع من التوازن بين الحقوق والواجبات، وأيضاً يترك قول النبي عليه الصلاة والسلام: (فأعط كل ذي حق حقه).

فكل ذي حق يأخذ حقه، وقد عد الله سبحانه وتعالى الأهل والأولاد أعداء للمؤمن إذا حالوا بينه وبين طاعة الله عز وجل روى ابن جرير عن عطاء بن يسار في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن:14]، قال: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي؛ كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه، فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق ويقيم، ويترك الجهاد، فنزلت: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن:14].

_____

دور المناهج التربوية الهدامة في انحطاط الهمم

من هذه الأسباب أيضاً: المناهج التربوية والتعليمية الهدامة، فالمناهج التعليمية الهدامة هي التي تحطم اعتزاز الشباب بإسلامهم وإيمانهم، مع أنه لا خلاص لهذه الأمة إلا بالإسلام، فهذه مناهج تسفل الهمم، وتخرق المواهب، وتضعف الطاقات، وتخرب العقول، وتنشئ الخنوع، وتزرع في الأجيال ازدراء النفس، وتعمق فيها احتقار الذات، والشعور بالدونية.

وأنا لا أقصد المناهج التعليمية في المدارس والجامعات وحدها، وإنما أقصد ما هو أوسع من ذلك، وبالذات مناهج الصوفية في التربية والتعليم؛ فإنها أيضاً تشارك في المناهج التعليمية وفي تدمير الهمم وتثبيطها.

فيوجد احتقار الذات في المناهج التعليمية بالصورة التي يضخمون بها صورة الغرب وصورة أمريكا، وأنهم وصلوا إلى أشياء راقية، وأن هؤلاء الناس بلغوا القمة، وأنهم دول النموذج والقدوة، ويسترون عورات الغرب، مع أن العالم الغربي يعج بالعورات القبيحة التي إذا كشفت تأفف الناس من هؤلاء الكفار؛ فعندهم من من كل أنواع العورات ما يليق بأمثالهم من الكفرة بالله سبحانه وتعالى.

فهناك عملية تجميل متعمدة، خاصة من خلال الأفلام والمسلسلات الأمريكية، كما حكى لي أخ فقال: إنهم دائماً يتعمدون في الأفلام أن الممثل يفتح الثلاجة وفيها ما لذ وطاب من الطعام والشراب وكذا وكذا، ويظهرون البيوت مزينة بصورة معينة، وهذا نوع من الدعاية غير المباشرة بأن هؤلاء ناس يعيشون في جنة، وفيه تزيين للدنيا؛ حتى نقتدي بهم، ونجري وراءهم.

والإنسان يلاحظ أيضاً -وللأسف الشديد- أن كثيراً من أساتذة الجامعات يزرعون فينا -بقصد أو بدون قصد- موضوع احتقار الذات، والدونية، سواء في استعمال اللغة أو غير ذلك؛ فيرون أنه لابد أن تستعمل اللغة الأجنبية، وأنها لغة العصر! وفي تعظيم هذه الصورة احتقار للذات، واعتراف منا بالدونية أمام هؤلاء الكفار.

الموضوع طويل، لكن في هذا إشارة إلى أن المناهج التربوية والتعليمية زرعت فينا أننا دون هؤلاء الكفار، وأن دول الكفار دول أقوى من دولنا، وأنهم أعظم وأعلم منا، وأنهم في كل شيء هم أفضل منا، وأننا ينبغي أن نفزع إلى مناهجهم، ولا نرضى بها بديلاً؛ حتى الإسلام لا نقبله بديلاً عن هذه الجنة الموعودة في جحيم أمريكا والغرب!!

_____

دور مناهج الصوفية في الانحطاط بالهمم

من المناهج التي تزرع احتقار النفس وازدراءها والشعور بالدونية: مناهج الصوفية؛ وأذكر لكم بعض العبارات التي تدل على ذلك: قال بعض الصوفية: الفقير هو الذي يأكله القمل، ولا يكون له ظفر يحك به نفسه! يعني: أن القمل يكثر في جسده حتى يأكله، هذا هو الفقير الصوفي.

وكل هذا اقتبسوه من الرهابنة، فالرهابنة يدخلون الدير، ويعتكفون فيه؛ حتى يصير وجه الواحد منهم أسود من كثرة الطين؛ لأنه لا يستحم، ولا يقرب الماء أبداً، وهذا موجود حتى الآن، لكنهم يسترونهم داخل الجدران؛ حتى لا يظهروا في الخارج، فتجد الطين والقذارة في خد أحدهم وفي جبهته متراكمان، ويبدوا أنه منذ سنوات ما اغتسل وما اقترب من الماء، كحال أسلافهم من قبل؛ حيث كان الواحد منهم يفخر أنه مكث خمسين سنة وما مس الماء!! وهذه عندهم طريقة للتعبد! ومن هذا الذل الذي يقع في غير موقعه: ما يريد الصوفية أن يكون عليه الناس من التمسح بالأعتاب، والسجود للقبور، والتذلل للموتى من دون الله سبحانه وتعالى، وهذا شرك صريح، وخروج من ملة الإسلام؛ فكونك تستنصر بالميت وتدعوه؛ لأجل أن يرزقك ولداً، أو يشفي لك مريضاً، أو ينجح ولدك، أو غير ذلك مما لا يسأل إلا من الله سبحانه وتعالى هذا بلا شك هبوط بالهمة إلى أحط مستوى، قال عز وجل: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج:31].

ويقول صوفي آخر: الصوفي هو من يرى دمه هدراً وملكه مباحاً! أي: أن هذا هو الصوفي؛ فهل هناك احتقار للذات أكثر من هذا؟! أين أنت من تربية رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي يقول: (من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد)، فهذا يرفعه إلى درجة الشهادة، وأنت أيها الصوفي! تأتي تقتبس من الرهبان وتقول: من صفعك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، ومن أخذ رداءك فأعطه قميصك.

إلى آخر هذا الكلام الذي يربي في النفس هذه المعاني.

فهذا الشخص يقول: الصوفي هو من يرى دمه هدراً وملكه مباحاً! وفي الحقيقة لا يمكن أن تحس بنعمة الله سبحانه وتعالى عليك إلا إذا مَنَّ عليك بالاعتزاز بالمنهج السلفي، بأن تفهم القرآن والسنة كما فهم السلف الصالح، إلا إذا نظرت إلى منهج وانحرافات وضلالات الصوفية التي هي أم المخرفين، والتي هي معاندة لدين الله سبحانه وتعالى، فحينئذٍ تستحضر نعمة الله سبحانه وتعالى عليك أن عصمك من هذه الضلالات.

وهذا صوفي ثالث يحكي ويقول: إنه ما سر في إسلامه إلا ثلاث مرات، أي: أنه من ساعة ما أسلم ما دخل السرور على قلبه إلا ثلاث مرات في ثلاث مناسبات: الأولى: كنت في سفينة فلم أجد أحقر مني فيها! والثانية: كنت مريضاً في المسجد فجرني المؤذن إلى خارجه! والثالثة: كان علي فرو فنظرت فيه فلم أميز بين شعره وبين القمل من كثرته!! هل هذا هو الإسلام؟! وهل هذه هي سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام؟! فهو يفتخر بأنه حين يكون قذراً يتأفف الناس منه حتى يلقوه في الشارع، وأن ينظر إلى الفرو فلا يستطيع أن يفرق بين الشعر وبين القمل من كثرة القمل! فانظر كيف تنحط الهمم! فهل مثل هذا يصلح أن يخرج ليجاهد في سبيل الله، أو يتعبد العبادة التي يزعمونها، أو يطلب علماً ويسهر الليالي في طلب المعالي؟! هل هذا يحصل من مثل هذا الذي يفتخر بأن القمل فيه لا يتميز من شعر الفرو؟! فبلا شك أن التربية الصوفية تغرس احتقار النفس والإحساس بالدونية، وتثبط وتقتل الهمم، وتدمرها.

ومن مظاهر المناهج التربوية الصوفية التي تنحط بالهمم: الإعراض عن علوم القرآن والسنة، وترهيب المريدين من طلب العلم الشرعي، ويخوفون الناس من العلم الشرعي، ويقولون: نحن لنا الحقيقة، والناس لهم الشريعة، فالعبادة والعمل وطلب العمل هذه سلالم، ونحن وصلنا، فكيف نصعد على السلم؟! فيسخرون من طلبة العلم، ويهونون ويحقرون من شأن العلم، ولقد سقط من كم أحدهم يوماً القلم، وكان يخفي القلم؛ خشية أن يفتضح بين الصوفيين بأنه يكتب، فسقط منه القلم رغم أنفه من جيبه، فقال له شيخه: استر عورتك!! وروى ابن الجوزي عن جعفر الخالدي قال: لو تركني الصوفية جئتكم بإسناد الدنيا.

أي: أنهم السبب في أنه أعرض عن طلب العلم والحديث.

قال: كتبت مجلساً عن أبي العباس الدروي وخرجت من عنده، فلقيني بعض من كنت أصحبه من الصوفية فقال: ما هذا معك؟ قال: فأريته إياه، فقال: ويحك! تدع علم

الخرق وتأخذ علم الورق! ثم مزق الأوراق، فدخل كلامه في قلبي، فلم أعد إلى أبي العباس.
أي: حالوا بينه وبين طلب العلم الشرعي.
(16/16)

_____

دور مناهج المقلدين في انحطاط الهمم

من هذه المناهج التي تهبط بالهمم: المناهج التي تحرض الناس على التقليد المنهجي، والتقليد هو مثل الميتة تأكلها إن اضطررت إليها، لكن الأصل هو اتباع رسول الله عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: {وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف:158]، أي: اتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام لعلكم تهتدون.

وقال تبارك وتعالى أيضاً: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} [آل عمران:31].

ونحن لا نقول: إننا لا نرجع إلى العلماء في فهم الكتاب والسنة، لكن نقول: إن العالم غير معصوم، فقد يخالف القرآن أو السنة؛ لأنه اجتهد، وباجتهاده أخطأ، ويثاب على ذلك، لكن نقول: نحن ندور مع الحق حيث دار، فمتى ما صح قول رسول الله عليه الصلاة والسلام فيجب المصير إلى قوله، وألا يقدم على قوله عليه الصلاة والسلام قول أحد كائناً من كان.

وللأسف فإن التربية السفلية أيضاً فيها التقليد المذهبي، والتربية الدينية في بعض الأوقات أيضاً تغرس موضوع حب التقليد والاعتزاز بالتقليد! والتقليد صفة مذمومة وليس صفة ممدوحة، فلا تلجأ إليه إلا في ظروف معينة وبشروط معينة، فينبغي أن يحرض الناس ويربوا على التطلع إلى فهم الأدلة ومعرفة الأحكام الشرعية بأدلتها، لا أن نحرض الناس على دنو الهمة ونقلد ونأخذ بقول غيرنا دون معرفة دليله.

حدثني أحد المشائخ الأفاضل وهو الشيخ رشاد الشافعي رحمه الله: أنه حضر وهو شاب مجلساً لأحد الشيوخ المالكيين، وكان هذا الشيخ يربي تلامذته ويعلمهم، وإذا أراد أن يعلمهم الوضوء علمهم كيف كان يتوضأ الإمام مالك، وإذا صلى علمهم كيف كان يصلي مالك، وكيف كان يعمل مالك أو حج أو اعتمر أو زوج أو طلق أو خطب، فربطهم دائماً بالإمام مالك رحمه الله تعالى! فانظر إلى خطورة الأمر على العوام، فقد وصل الأمر في أحد هذه المجالس التي كان الشيخ يتكلم فيها بهذه الطريقة أن بعض العوام قطع الدرس وقال له: يا سيدنا الشيخ! هل سيدنا النبي كان قبل مالك أو الإمام مالك قبل؟!! فمن الذي بعث قبل الآخر؟!! فوصل الأمر بهذه الهيئة إلى أن الواحد منهم يتصور أن مالكاً نبي مثل محمد عليه الصلاة والسلام.

هذه هي نتيجة التربية التي تربطنا بأن القدوة هو الإمام مالك أو الشافعي أو غيرهما.

محبة الأئمة واحترامهم دين نتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى، ولا نخرج عن أقوالهم، لكن نحن نتكلم على أن القدوة يجب أن يكون هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب:21].

ولذلك أحد مشائخنا من أنصار السنة حفظهم الله قال: إنه لما جاء المأذون يعقد له قال: على مذهب أبي حنيفة، فقال: أنا أريد أن أتزوج على المذهب الذي تزوج عليه أبو حنيفة، وأبو حنيفة على أي مذهب تزوج؟ تزوج على المذهب المتبع للرسول عليه الصلاة والسلام.

فينبغي لطالب العلم أن يستفز همته لكي ينتقل من وحل التقليد إلى اتباع الأدلة.

ونحن نرفض هذا الذي يحصل من بعض طلاب العلم من سب الأئمة أو التطاول عليهم أو التقليل من شأنهم، فهذا كله من القدح، لكننا ندعو إلى ما دعا إليه أئمة السلف من عدم التقليد، كما قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله تعالى: إن المقلد بإجماع العلماء ليس معدوداً من أهل العلم.

(16/17)

_____

خطر المناهج العلمانية وأثرها في انحطاط الهمم

تعتبر العلمانية أخطر من مناهج المدارس والجامعات أو مناهج الصوفية أو غيرها من المدارس التي تثبط الهمة؛ بل وأضر من ذلك تلك المناهج التربوية والتعليمية التي تريد

أن تجعل العلمانية ديناً بديلاً لدين الإسلام، فراحت تسمم آبار المعرفة التي يستقي منها شباب المسلمين؛ لتخرج أجيالاً مقطوعة الصلة بالله، وتبتغي العزة في التمسح على أعتاب الغرب، وتأنف من الانتساب إلى الإسلام، وتفتخر بالانتساب إلى الفراعنة، ويعاد ويزاد ويكرر تاريخ الفراعنة في مادة التاريخ تقريباً في ثلاث مراحل من مراحل التعليم، من الابتدائي إلى الثانوي، ويكرر الاعتزاز بالفراعنة بطريقة مبالغ فيها جداً جداً، كل هذا على حساب التاريخ الإسلامي! فقاتل الله أعداء الدين الذين يتآمرون على شباب المسلمين.

دور اضطهاد العاملين للإسلام في انحطاط الهمم

من هذه الأسباب: توالي الضربات، وازدياد اضطهاد العاملين للإسلام، فبعض الناس حينما تتوالى الضربات والاضطهاد للمسلمين خاصة إذا طالت الموجة تضعف همته، كما حصل في الموجة التي ظلت مرتفعة مدة طويلة، وكان الاضطهاد يزداد للعاملين لله سبحانه وتعالى ولدين الله، فبعض الناس -للأسف الشديد- حصل عندهم شعور بالإحباط وباليأس، وهؤلاء هم الذين لا يفقهون حقيقة البلاء، ولا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى مطلع على كل هذا، ولو شاء الله سبحانه وتعالى بكلمة: (كن) لأهلك كل من على وجه الأرض، ولو شاء الله سبحانه وتعالى بكلمة: (كن فيكون) لأمر العباد الذين على وجه الأرض كلهم فيكونوا مثل الملائكة في العبادة والإخبات والخشوع لله سبحانه وتعالى؛ فإن الله قادر على ذلك، ولكن: {تِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران: 140]، أي: في هذه الدنيا؛ فإذا كان الأنبياء أنفسهم أوذوا في الدنيا فغيرهم من باب أولى؛ فالدنيا هينة على الله سبحانه وتعالى، وليست دار الجزاء، إنما هي دار الابتلاء والامتحان، والنتيجة تظهر يوم القيامة أما الدنيا فهي كلها امتحان، واختبار، وابتلاء، فسنة البلاء من السنن الماضية، ولابد أن يقع هذا الصراع بين الحق والباطل، والله سبحانه قادر على أن تنزل الملائكة عياناً والناس يرونها، وتتخطف أعداء الدين عضواً عضواً، وتمزقهم إرباً؛ فالله قادر على ذلك، لكن لو أن الله سبحانه وتعالى فعل ذلك فستنتفي حكمة الابتلاء، وسننتقل إلى الآخرة؛ لأن هذا يحصل في الآخرة، قال عز وجل: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: 22]، فهذا الغطاء ما زال موجوداً الآن، فإذا كشف الغطاء وأصبح الناس يرون العذاب الذي يحصل في القبر، وأصبحوا يرون الملائكة وهي تعذب الكفار أو الفاسقين من المحتضرين، وإذا شتم واحد الإسلام تنزل ملائكة من السماء وتمزقه أمام الناس، لو حصل هذا فهل تبقى الدنيا دنيا؟ فمن حكمة الله أن يكون هناك إيمان ويقين بالغيب ويقين بوعد الله سبحانه وتعالى، ويبقى الحجاب قائماً حتى يميز بين المؤمن الذي يؤمن بالغيب وبين الفاجر الذي لا يؤمن إلا إذا عاين؛ فإن الكفار إذا عاينوا قالوا: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة:12]، فهل هذا اليقين ينفع؟ لا ينفع اليقين؛ الذي ينفع هو ما كان قبل أن تكشف الحجب، فلا بد من إيمانك بأن الله يسمع ويرى، وأن الله قادر على أن يذل أعناق كل هؤلاء المعادين لدين الله ودين رسوله عليه الصلاة والسلام، والذين يفرحون بموالاة الكفار، ويتحصنون بهم ضد المسلمين، ويكونون هم اليد التي يضرب بها الإسلام في عقر داره، وقبلوا لأنفسهم هذا المنصب، فهل معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى خذل دينه، وخذل دعوته؟ كلا! فمهما طال الصراع فلابد أن تكون العاقبة للتقوى، كما قال تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص:83]، وقال سبحانه: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت:2]، فلابد من الفتنة، ولابد من البلاء، وهذا الذي نعيشه هو ابتلاء، وليس أكثر، فكثرة الاضطهاد للإسلام هي من البلاء؛ لأن الاضطهاد عالمي، ونحن الآن نعيش في عصر كأنه لم يسبق له نظير، فكل العالم بلا استثناء -حتى حكام العالم الإسلامي- كله متواطئ على خنق الإسلام وإذلال وإضعاف المسلمين؛ تمهيداً لإقامة إسرائيل الكبرى.

هذه هي الحقيقة المرة التي نعترف بها علناً، كما قال كلينتون في معاهدة السلام في الأردن للملك حسين قال له: لقد حققت يا جلالة الملك! حلم جدك الملك عبد الله في إقامة وطن القومية لليهود في فلسطين! وهذه أمور جديدة ما سمعنا بها في آبائنا

الأولين، والله المستعان! حتى إن عمرو موسى صرح -وما أجمل التصريحات التي يأتي بها عمرو موسى أحياناً- فقال لرؤساء البلاد العربية: اهدوا قليلاً، فليس من المعقول أن تركضوا نحو إسرائيل بالصورة هذه، ففزع جلالة الملك وغضب، وقام يرد عليه في غضب ويقول: نحن لا نركض نحو إسرائيل؛ نحن نهرول نحو إسرائيل!! فانظر إليه حينما يفتخر أنه يهرول نحو إسرائيل، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يحبط كيد هؤلاء الأعداء أجمعين.

فالإنسان قد يستطيل الطريق؛ لأن كله ابتلاء، وامتحان، وبين وقت وآخر يحصل تكثيف، فانتظروا فرج الله سبحانه وتعالى.

فإذا استطال الإنسان الطريق يحصل له ضعف في السير إلى الله سبحانه وتعالى، فعلينا أن نتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن نتبع سنته في كل أحواله، فمن أحوال النبي عليه الصلاة والسلام أحوال تشبه ما نحن فيه الآن، حيث حصل اضطهاد للمسلمين ومحاربة للدين، فكيف كان يعزي ويسلي أصحابه المضطهدين؟ كان دائماً يزرع فيهم الأمل بالتبشير بأن المستقبل حتماً سيكون للإسلام؛ فقد صح عن خباب بن الأرت رضي الله عنه أنه قال: (شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ بالرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله! ليتمن الله هذا الأمر؛ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون).

فتأمل كلمة (تستعجلون)، يعني: أن العاقبة للمتقين لكنكم تستعجلون، فاتركوا سنة الله تمشي في طريقها، ولا تتعجلوا، ولا تقفزوا فوق السنن، كما يحصل من بعض إخواننا -للأسف الشديد- من بعض الحركات أو بعض الجماعات؛ حيث يحاول أن يسبق السنن، ويتعجل، كما قال بعض الكتاب واصفاً المتعجلين من الشباب والمتعجلين من الشيوخ: أما متعجلة الشباب فمعروف الحركات التي تحصل منهم من إراقة للدماء، وغير ذلك من تعجل الشباب، أما تعجل الشيوخ فيقال: إن بعض الشيوخ كانوا حريصين جداً على القفز فوق سنن الله، فأرادوا القفز إلى التمكين عن طريق البرلمانات والانتخابات، لأنهم يظنون أن هذه قد توصلهم إلى هذا الهدف، وهذا القفز فيه نوع من الاستعجال؛ لأنه ليس بالسهولة هذه أبداً يحصل التمكين لدين الله، وليست هذه هي سنة الله عز وجل.

فتأمل في هذا الحديث! الصحابة رضي الله عنهم ذهبوا يطلبون من النبي عليه الصلاة والسلام أن يدعو لهم، ويستنزل نصر الله عليهم، فهل دعا لهم الرسول عليه الصلاة والسلام؟ لم يدع لهم؛ لأنه لابد أن تمضي سنة البلاء، فهي سنة ماضية لابد أن تقع.

ولما سئل الإمام الشافعي: أيهما أفضل للرجل: أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: لا تمكن حتى تبتلى.

فيبدأ أولاً البلاء ثم التمكين.

ولما بلغ خبر ميلاد هذه الدعوة إلى ورقة بن نوفل قال: (ليتني أكون فيها جذعاً إذ يخرجك قومك، قال: أومخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي).

فهذه سنة، وهو كان يعلم سنن الأنبياء من قبل، فقد كان ورقة بن نوفل على علم، ولذا بين أنه لابد من التفكير، فقال: (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي).

كذلك في قصة أصحاب الأخدود، وقصة الغلام مع الراهب، فإن الراهب قال له: (أي بني! إنك أفضل مني، وإنك ستبتلى)؛ فلابد أن يقترن البلاء بالإنسان، وهذه سنة ماضية أن يفتن الناس، كما قال تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت:2].

وكلمة الفتنة مأخوذة من فتن الذهب، يقال: دينار فتين إذا أخرج من الفرن، وتقول: فتنت الذهب إذا جئت بالذهب الخام وأدخلته في الفرن؛ حتى ينصهر، فينفصل الغثاء والزبد والشوائب، ويستقل المعدن الخالص الصافي وهو الذهب النقي، فلا يمكن أن ينفصل إلا عن طريق الصهر، فالفتنة مأخوذة من هذا المعنى، كما قيل: إن أحمد أدخل الكير فخرج ذهباً أحمر.

فكلمة الفتة معناها: أن توضع في البلاء حتى تصفو، كما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد:31]، وهذه سنة الله سبحانه وتعالى.

فعدل عن الدعاء لهم إلى تذكيرهم بأن هذا قانون وسنة ماضية لابد منها، فلابد من البلاء، فقد حصلت هذه السنة في من قبلكم، وستحصل لكم، لكن تذكروا أن العاقبة للمتقين، فقال عليه الصلاة والسلام: (والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون).

أخي ستبيد جيوش الظلام ويشرق في الكون فجر جديد فأطلق لروحك إشراقها ترى الفجر يرمقنا من بعيد أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

والحمد لله رب العالمين.

(16/20)

_____

[17] علو الهمة

صاحب الهمة العالية رجل فريد في مجتمعه، فهو العنصر الفعال والمنتج؛ لذا ينبغي على كل مسلم أن يكون صاحب همة عالية، وأن يحاول أن يرتقي بهمته نحو الأفضل والأحسن، وللارتقاء بالهمم أسباب لابد من معرفتها، والسعي الجاد في العمل بها.

(17/1)

_____

أسباب الارتقاء بالهمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد: فقد تحدثنا قبل حول عن الأمة عند سقوط الهمة، وناقشنا أسباب انحطاط الهمم، وحديثنا الآن -بإذن الله تعالى- على أسباب الارتقاء بالهمة، فما هي أسباب الارتقاء بالهمة؟ كل هدف له وسائل توصل إليه وعوامل مساعدة تعين عليه، كما قال الشاعر: إذا ما أعجبتك خصال امرئ فكنه يكن منه ما يعجبك فليس على المجد والمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك يعني: أن أبواب المكارم مفتوحة، وكل من أراد أن يتسلق إلى هذه القمم فإنه يستطيع، لكن عليه أن يسلك الطرق الصحيحة لتلك القمم.

(17/2)

_____

العلم والبصيرة سبب من أسباب علو الهمة

أول أسباب الارتقاء بالهمة: العلم والبصيرة، فالعلم يصعد بالهمة، ويرفع طالبه عن حضيض التقليد، والعلم هو الذي يساعد على تصفية النية، حتى أثر عن بعض العلماء أنه قال: طلبنا العلم للدنيا فدلنا على طلب الدين.

يعني: أنه شرع في البداية في طلب العلم لأجل الرياء أو لطلب الدنيا، ثم لم يلبث العلم أن أخذ بناصيته إلى الإخلاص، وعالج أمر الرياء في قلبه.

وذكر القصاص: أن رجلاً خطب امرأة ذات منصب وجمال، فرفضت أن تتزوجه؛ لفقره وقلة حسبه، يعني: أخذت عليه أنه فقير وأنه قليل الحسب، ففكر بأي الأمرين ينالها، أبالمال أم بالحسب؟ فاختار الحسب، وطلب العلم للحسب، حتى أصبح ذا مكانة، ولما اشتهر بطلب العلم، وأصبح له مكانة كبيرة بعثت إليه تلك المرأة نفسها تعرض عليه أن يتزوجها، فقال: لا أؤثر على العلم شيئاً؛ لأنه كان قد ذاق حلاوة العلم، ولذا قال: لا أؤثر ولا أفضل أبداً شيئاً على العلم، وأبى أن يتزوجها، فارتفع العلم بهمته عن أن يحصر همه في نيل مثل هذا المطلب الدني.

وهذا يذكرني بشاب إنجليزي يدعى (نيجل) بريطاني الأصل له قصة طريفة: رحل من بريطانيا إلى مصر على الدراجة، حيث رحل أولاً بدراجة من بريطانيا إلى اليونان، ثم ركب مركباً إلى لبنان، وكان في الطريق يشتغل قليلاً ليجمع بعض المال، ثم يتم رحلته، حتى مر على فلسطين، ثم مر على سيناء حتى وصل إلى مصر، ثم تجول في داخل مصر إلى أن وصل إلى الإسكندرية فقابله شاب يقود التاكسي، فتعرف عليه ودعاه إلى بيته، المهم أنه صار بينهما نوع من الصداقة، ثم رأى بنت الجيران في حي منزل صديقه، فأراد هذا الشاب الإنجليزي أن يتزوجها، فقال أهلها: لابد أن تكون مسلماً؛ لأنها مسلمة ولا تتزوج من غير مسلم، فقال: كيف أسلم؟ فقالوا: تذهب إلى بعض الجهات، حتى تأخذ تصريحاً بذلك، فذهب ليسلم بورقة ويحقق مأربه، فبعض الإخوة أعطاه كتباً وكلمه عن الإسلام، فغاب تقريباً لمدة شهر، ثم عاد بعد ذلك ليبحث بجدية وبدأب شديد عمن يعلمه قراءة الفاتحة؛ لأنه لما قرأ معاني القرآن الكريم، وتعلم شيئاً عن الإسلام، أقبل بكليته نحو الإسلام، فدخل في الإسلام ولله الحمد، ولما ذكروه بموضوع هذه الفتاة قال: أنا كنت أطلب الإسلام من أجل المرأة، أما الآن فلا أتحول عن الإسلام إلى مقصد آخر، ولم يفكر بعد في الزواج بهذه المرأة، وهذا الأخ أتقن اللغة العربية جيداً، فقد درس في الأزهر في القاهرة، وحفظ القرآن الكريم كله، ولله الحمد.

الشاهد: أن العلم بالوحيين بالقرآن والسنة والمعاني العظيمة يرتفع بهمة الإنسان.

وأيضاً من فضائل العلم: أنه يورث صاحبه الفقه بمراتب الأعمال، فإذا عرف مراتب الأعمال يقدم الأهم على المهم، ويتقي فضول المباحات التي تشغله عن عبادة الله سبحانه وتعالى، سواء كان فضول الأكل، أو النوم، أو الكلام.

ثم العلم يدفعه إلى أن يراعي التوازن والوسطية بين الحقوق والواجبات؛ امتثالاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فأعط كل ذي حق حقه).

وأيضاً العلم هو الذي يبصره بحيل إبليس وتلبيسه عليه؛ لأن إبليس قد يأتيه ويحاول أن يحول بينه وبين فعل ما هو أكثر ثواباً مما يفعله، ويشغله بالمفضول عن الفاضل، قال أبو سليمان: يجيئك -أي: إبليس- وأنت في شيء من الخير، فيشير إلى شيء من الخير دونه، ليربح عليك شعيرة.

(17/3)

إرادة الآخرة سبب من أسباب الارتقاء بالهمة

من أسباب الارتقاء بالهمة: إرادة الآخرة، وجعل الهموم هماً واحداً، ومعنى إرادة الآخرة: تمحيص الإرادة والنية والقصد إلى طلب الآخرة بلا منازع، قال الله تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء:19]، ولا تجدون في القرآن الكريم آية فيها الكلام على أن من يسعى للدنيا بنفس المثابة، وإنما {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء:19]، وقال صلى الله عليه وسلم: (من كانت همه الآخرة جمع الله له شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا راغمة، ومن كانت همه الدنيا فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له) فالرزق لا يأتي به حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره، بل الرزق مضمون، أما الجنة فليست مضمونة إلا بالعمل الصالح.

(17/4)

ذكر الموت سبب من أسباب الارتقاء بالهمة

من أسباب الارتقاء بالهمة: كثرة ذكر الموت؛ لأن كثرة ذكر الموت يدفع إلى العمل للآخرة والتجافي عن دار الغرور، ومحاسبة النفس، وتجديد التوبة، وإيقاظ العزم على الاستقامة، فكل هذه المقاصد الشريفة إنما تحصل بكثرة ذكر الموت، فعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: (بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ بصر بجماعة، فقال: علامَ اجتمع عليه هؤلاء؟ قيل: على قبر يحفرونه، قال: ففزع رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً حتى انتهى إلى القبر فجثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بلّ الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا فقال: أي إخواني! لمثل هذا اليوم فأعدوا).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث، أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فيه ولا يدري أأرضى الله أم أسخطه؟ وأبكاني فراق الأحبة محمد وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله يوم تبدو السريرة علانية ثم لا يدري إلى الجنة أو إلى النار).

وقيل لبعض الزهاد: ما أبلغ العظات؟ قال: النظر إلى الأموات.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأوزاعي: أما بعد: فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير.

وعن عطاء قال: كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ويبكون.

فانظر إلى فعل هذا الإمام العلم المجدد، كيف كان يجمع الفقهاء، وما الموضوع الذي كانوا يجتمعون عليه؟ هل هو مناقشة انتخابات مجلس الشعب، أو مباريات الكرة، أو كذا وكذا؟! كلا، بل كانوا يجتمعون من أجل ذكر الموت والقيامة والآخرة ويبكون، ولا شك أن هذا النوع من الاجتماعات الآن نادر جداً، فأغلب الاجتماعات إما أن يخوض الإنسان فيها فيما لا جدوى من ورائه، وقد يحصل بين طلبة العلم مجالس يجري فيها مباحثات حول قضايا علمية ومناقشات مثلاً، لكن قل أن نسمع أن مجموعة من الإخوة تواعدوا على أن يلتقوا ويذكر بعضهم بعضاً بالموت وبالآخرة وبالقيامة.

وقال الدقاق: من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاث: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوجل بثلاث: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة.

كما أن مشاهدة المحتضرين وملاحظة سكرات الموت ونزعاته، وتأمل صورة الميت بعد مماته مما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويزيل عن الأجفان النوم، وعن الأبدان الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب.

ذكر عن الحسن البصري أنه دخل على مريض يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام يرحمك الله، فقال: يا أهلاه! عليكم بطعامكم وشرابكم، فو الله! لقد رأيت مصرعاً لا أزل أعمل له حتى ألقاه.

وقال اللبيدي: وجدت بعد موت أبي إسحاق الجبنياني رحمه الله رقعة تحت حصيرة مكتوبة بخطه، يعني: أنه كان يذكر نفسه بما كتب على هذه الرقعة، وهذا شيء معهود عن السلف، حيث كان الواحد منهم يكتب موعظة مختصرة تؤثر في قلبه جداً، فيضعها في جيبه أو كمه، فإذا خشي الغفلة أو شيئاً من هذا نظر فيها، ثم أعادها، وكان بعضهم يختم مثل هذه العبارات على الخاتم؛ كي تذكره باستمرار بما ينبغي ألا ينساه، فهذا الإمام أبو إسحاق الجبنياني وجدوا بعد موته رقعة مكتوباً فيها: رجل وقف له هاتف، فقال له: أحسن عملك، فقد دنا أجلك، فقال لي ولده عبد الرحمن: إنه كان إذا قصر في العمل، أخرج الرقعة فنظر فيها ورجع إلى جده.

ما زال يلهج بالرحيل وذكره حتى أناخ ببابه الجمال فأصابه مستيقظاً متشمراً ذا أهبة لم تلهه الآمال فبلا شك أن الإنسان الذي يتذكر الموت ويكثر من ذكره يتأهب للقاء الله سبحانه وتعالى، ولا شك أن هذا سيثير فيه الاستيقاظ والانتباه باستمرار؛ لأن موعد خروج روحه لا يأتي نذير بين يديه وإنما يأتي فجأة، ويأتي بغتة دون نذير سابق، فروحك في يد غيرك، لا تدري متى يقبضها.

_____
الدعاء سبب من أسباب الارتقاء بالهمة
من أسباب الصعود بالهمة: الدعاء؛ لأنه سنة الأنبياء، وجالب لكل خير، ودافع لكل شر، قال صلى الله عليه وسلم: (أعجز الناس من عجز عن الدعاء) فالدعاء سهل جداً، والدعاء لا يكلف شيئاً سوى أن تجمع قبلك وتحرك لسانك بكليمات تطلب فيها ما شئت، ابتداءً من شسع النعل إلى الفردوس الأعلى من الجنات والخلود فيها، تدعو بآلة هي اللسان بشرط أن تواطئ القلب، وتكون مخلصاً في ذلك الدعاء، فالذي يعلم مثل هذه الفضيلة للدعاء يعلم أنه عن طريق الدعاء يمكن أن يحصل كل مقاصد الدنيا والآخرة، فكيف به إذا عجز عن ذلك؟! فإذا عجز عن مجرد تحريك لسانه مع مواطأة القلب بطلب ما يريده من الله سبحانه وتعالى، فهذا بلا شك هو أعجز الناس، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: (أعجز الناس من عجز عن الدعاء)، وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا تمنى أحدكم فليكثر، فإنما يسأل ربه) سبحانه وتعالى، يعني: عليه أن يطمع في رحمة الله، ويطلب ما شاء من المطالب، ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ما دل على ذكائه دعا له؛ لأنه كان إذا دخل الخلاء وخرج يجد ابن عباس قد أحضر الماء ووضعه قريباً منه، فحينئذٍ قال: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) فأثمرت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لـ ابن عباس فصار ترجمان القرآن والحبر البحر العلم، وحاز هذه المرتبة بدعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم عقب الصلاة: (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) فبهذا الدعاء يستعين العبد على إنجاز هذه المطالب العالية.
إذا لم يكن من الله عون للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده فبدون توفيق الله سبحانه وتعالى للإنسان أول ما يجني عليه هو اجتهاده وعقله الذي حرم من التوفيق وابتلي بالخذلان.
(17/6)

_____
الاجتهاد في حصر الذهن وتركيز الفكر في معالي الأمور
من أسباب الارتقاء بالهمة: الاجتهاد في حصر الذهن وتركيز الفكر في معالي الأمور، فالإنسان عليه أن يركز، وهذا السبب هو صدى للسبب الآنف الذكر وهو توحيد الإرادة، يعني: إرادة هم الآخرة بلا منافس؛ لأن الدنيا والآخرة ضرتان، إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى.
فمن أسباب الارتقاء بالهمة خاصة في المقاصد العلمية: نظرية حصر الذهن والتركيز تماماً فيما تريد أن تنجزه من الأمور، فالإنسان إذا لم يبادر بأن يشغل نفسه بالحق فإنها تشغله بالباطل، كما قال الحسن: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.
فلا بد أن تكون النفس مشغولة، وإن لم تبادر أنت بشغلها بالحق فإنها تتفرق بك في أودية الدنيا.
سئل كثير بن عبيد الحمصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة قط، مع أنه أمَّ الناس في حمص حوالى ستين سنة كاملة في الصلوات الخمس، ولم يسه في صلاته قط، فسئل عن سبب هذا فقال: ما دخلت من باب المسجد قط وفي نفسي غير الله.
وهذه هي ثمرة من ثمرات حصر الذهن في مطلب واحد، وإرادة واحدة وهي إرادة الآخرة وإرادة الله سبحانه وتعالى، فالتركيز بلا شك يثمر هذه النتائج العظيمة.
وقد رأينا مظاهر عجيبة للسلف الصالح رحمهم الله تعالى في موضوع التركيز في طلب الآخرة، فلم يشتتوا همتهم في الدنيا، فهذا الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب العربية ومنشئ علم العروض، كان إماماً مفرط الذكاء، والإمام الخليل بن أحمد بقدر ما هو صاحب الشهرة المعروفة في اللغة العربية والعروض، وقد يتصور أن هذه العلوم يكون عند أصحابها جفاء مثلاً، لكنه كان من العباد ومن الزاهدين ومن الخيرين، وقد دعا الله سبحانه وتعالى أن يرزقه علماً لم يسبق إليه، ففتح الله عليه باب العروض، وهو علم أوزان الشعر والقوافي، وقيل: كان يعرف علم الإيقاع والنغم، ففتح له ذلك علم العروض، وقيل: مر بالصفارين -جمع صفار، وهو الذي يقطع النحاس الجيد- فأخذ علم العروض من وقع مطرقة على طست، يعني: كان رجلاً يضرب

بالمطرقة على طست من النحاس بطريقة منتظمة، فرأى أن نفس هذه الإيقاعات المنتظمة موجودة في أبيات الشعر عند العرب، وبالتالي استطاع أن يستخرج العروض عن طريق الالتفات لهذا الإيقاع المنتظم الذي سمعه، وقد كان متقشفاً متعبداً قال النضر بن شميل: أقام الخليل في خص له بالبصرة، يعني: في بيت من خشب أو بيت من شجر أو من قصب، قال: أقام الخليل في خص له بالبصرة ولا يقدر على فلسين، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال، وكان كثيراً ما ينشد: وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال فهو معدود من زهاد العالم القلائل، فرحمه الله تعالى، وكان يقول: إني أغلق علي بابي فما يجاوزه همي، فكان الخليل بن أحمد يخرج من منزله واهتمامه بشيء محدد، هو طلب الآخرة، فكان ينشغل جداً وتجد شدة تركيز ذهنه في مقصد واحد وهو طلب الآخرة، فكان يخرج من المنزل ولا يشعر بنفسه إلا وهو في الصحراء، ولم يرد الصحراء وإنما شغله الفكر الذي هو فيه والاستغراق، حتى خرج إلى ما لا يقصده من الأماكن؛ لشدة استغراقه في أمر محدد، فيذهل عما عداه. وكان يدخل الداخل إلى أبي تمام الشاعر وهو يعمل الشعر، فلا يشعر به.

وقد حكى ابن العلامة القرآني العلامة الجليل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى أنه كانت تحصل مواقف محرجة لوالده العلامة الشنقيطي رحمه الله حيث إنه كان إذا شرع في مدارسة العلم فإنه يذهل تماماً عن كل ما حوله، حتى كان يدخل عليه الضيوف من الكبراء أو الأمراء فلا يلتفت إليهم؛ لشدة انشغاله وحصر ذهنه تماماً فيما هو مقبل عليه من طلب العلم، ويضطر ابنه أو أحد الحاضرين أن ينبهه إلى وجود هذا القادم كيلا يظن أنه أهمل الترحيب بهذا القادم، وما هذا إلا ثمرة من ثمرات حصر الذهن، والتركيز الشديد في هدف ومطلب واحد.

وحصر الذهن مما يكتسب بالمران، يعني: أنه يحتاج إلى نوع من التمرين حتى ينتقل الإنسان من الشرود وتشتت الذهن إلى حصر الذهن حصراً بيناً محكماً، فلا بد من جهد ملح، والتدريب عليه يكون بأن تحدد موضوعاً محدداً فتدرسه أو تفكر فيه، وترد عقلك إليه مرة بعد مرة بعد مرة، وتتعمد أن تعود بعقلك وذهنك وتحصره في هذا الموضوع حتى ولو خمسين أو مائة مرة من أجل هذا الموضوع الذي التزمت معالجته، فهذه الخواطر التي تتنازعك لا تلبث أن تخلي مكانها للموضوع، يعني: أن الخواطر الأخرى تشرد بذهنك بعيداً؛ لكن حين تتدرب على ذلك باستمرار فإنها تذهب بعيداً وتتلاشى، وتضطر أن تنسحب هي لتترك الموضوع الذي يلح عليك له اليد العليا والسيادة والسيطرة على ذهنك، ليس فقط في اليقظة، بل من الناس من إذا انشغل بحفظ القرآن الكريم في يقظته فإنه إذا نام يشتغل أيضاً بمراجعته في الليل وكأنه ما زال في اليقظة من شدة حصر الذهن في هذا الأمر.

أمثلة لأصحاب الهمم العالية

وكانت لـ ابن سحنون سرية فطلب منها ذات يوم أن تعد له طعاماً، وشغل بالتأليف والرد على المخالفين، وأحضرت الطعام، وبعد طول انتظار أخذت تطعمه؛ لأنها انتظرت مدة كبيرة والطعام أعدته وهو لا يريد أن يأكل؛ لأنه انشغل بالعلم الذي يدرسه، فأخذت تلقمه حتى أتى على الطعام دون أن يشعر، يعني: أنه كان يشتغل بالعلم ويأكل لأنها تضع اللقمة في فمه، وتمادى في عمله حتى الفجر، ثم سألها أن تحضر الطعام، فأخبرته بأنه أتى عليه دون أن يشعر.

وذكر السبكي في طبقات الشافعية عن أبيه الإمام تقي الدين أنه كان من الاشتغال بطلب العلم على جانب عظيم، بحيث يستغرق غالب ليله وجميع نهاره، وكان يخرج من البيت لصلاة الصبح فيشتغل على المشايخ إلى أن يعود قريب الظهر، فيجد أهل البيت قد عملوا له فروجاً فيأكله، ويعود إلى الاشتغال إلى المغرب، فيأكل شيئاً حلواً لطيفاً، ثم يشتغل بالليل وهكذا لا يعرف غير ذلك، حتى ذكر لي أن والده قال لأمه: هذا الشاب ما يطلب قط درهماً ولا شيئاً، ما أحفظ له مرة طلب فيها مالاً أو طعاماً أو شيئاً من هذا، فقال أبو الإمام تقي الدين السبكي لأمه: هذا الشاب لا يطلب قط درهماً ولا شيئاً، فلعله يريد شيئاً، يعني: أن يأكله، فضعي في منديله درهماً أو درهمين، لعله إذا مر في الطريق اشتهى شيئاً فوجد في جيبه ما يشتري به هذا الشيء، فوضعت

نصف درهم، قالت الجدة: فاستمر نحو جمعتين وهو يعود والمنديل معه والنصف فيه، إلى أن رمى به وقال: إيش أعمل بهذا؟! خذوه عني، فبقي نصف الدرهم في منديله أسبوعين كاملين؛ لأنه لا يلتفت إليه ولا أنفقه، ثم بعد ذلك قال هذه الكلمة: إيش أعمل بهذا؟ خذوه عني وألقاه.

وكان الإمام ابن مالك النحوي صاحب الألفية وغيرها كثير المطالعة، سريع المراجعة، لا يكتب شيئاً من محفوظه حتى يراجعه في محله، ولا يرى إلا وهو يصلي أو يتلو أو يصنف أو يقرأ.

حكي أن الإمام ابن مالك توجه يوماً مع أصحابه للفرجة بدمشق، ودمشق فيها البساتين والغوطة، فلما بلغوا الموضع الذي أرادوا تنقلوا هم وتفرقوا في المكان، فغفلوا عنه فطلبوه فلم يجدوه، ثم فحصوا عنه فوجدوه منكباً على أوراقه، وفي هذا يصدق قول الشاعر: قلب يطل على أفكاره ويد تمضي الأمور ونفس لهوها التعب

والشيخ أحمد بن علي نجم الدين بن الرفعة كان كثير الصدقة، مكباً على الاشتغال حتى عرض له وجع المفاصل، بحيث كان الثوب إذا لمس جسمه آلمه، ومع ذلك كان لا يرى إلا ومعه كتاب ينظر إليه، وربما انكب على وجهه وهو يطالع، يعني: أنه يأتيه النوم فينام على الورق، فيكون وجهه على الورق من شدة النوم، قال: وهذا الشيخ هو الذي قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى بعد مناظرة جرت بينهما: رأيت شيخاً تتقاطر فروع الشافعية من لحيته، يعني: كأن كل جسمه مشبع بفقه تفاصيل فروع الشافعية، فكأنها تسقط من غزارتها، كالشخص الذي يبلل لحيته بالماء فإن الماء يتساقط منها، فيقول الإمام ابن تيمية فيه: رأيت شيخاً تتقاطر فروع الشافعية من لحيته.

وقال الأسنوي عنه: ما أخرجت مصر بعد ابن الحداد أفقه منه.

ومما يروى أن أميراً في الشام أدر على الحسن بن الهيثم مالاً كثيراً، والحسن بن الهيثم هو صاحب علم البصريات المعروف، فهذا الأمير أعطاه مالاً كثيراً فقال له: يكفيني قوت يومي، وتكفيني جارية وخادم، فما زاد على قوت يومي، إن أمسكته كنت خازنك، وإن أنفقته كنت قهرمانك ووكيلك، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين فمن الذي يشتغل بأمري وعلمي؟

الاهتمام بالصحة سبب من أسباب الارتقاء بالهمة

بعض طلبة العلم يتأثرون بالمنهج الصوفي -وما أخطر المنهج الصوفي على الهمة العالية- يتمثلون قول بعض شعراء الصوفية، ويعظمون كلام الصوفية بصورة مرضية، دون أن يتفطنوا إلى الأخطاء في مثل هذه العبارات، مثل قول شاعرهم: يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان فتراه يهمل صحته، إلى أن يصبح الشاب في ريعان شبابه مثل الشيخ العجوز الذي احدودب منه الظهر وصار هرماً.

فمن أسباب علو الهمة: الاهتمام بالصحة، سواء كانت الصحة البدنية أو النفسية، فالإنسان يهتم بصحته وبعافيته ويتوقى كل ما من شأنه أن يؤثر في صحته، وقد تكلمنا قبل عن أسباب انحطاط الهمة، وأن منها العجز والكسل، والإنسان قد يعذر في العجز لكنه لا يعذر في الكسل؛ لأن العاجز عن شيء طاقته محدودة، فهو يحاول لكنه لا يستطيع فيعجز، أما الكسول فهو يقدر لكنه لا يقوى على المقاومة، فالإنسان إذا أهمل صحته أو تمادى في الأسباب التي تهدر هذه النعمة العظيمة من نعم الله سبحانه وتعالى فهو مخطئ؛ لأن رأس مال الإنسان في الدنيا هو الصحة، فإذا أهمل صحته أو تعاطى الأسباب التي تحطم هذه الصحة سواء كان التدخين والإدمان أو غير ذلك من الأمور التي تهدر صحة الإنسان وعافيته فبلا شك أن هذه قد تئول إلى كثير من الأمراض، والأمراض تؤدي إلى العجز والكسل، فمن ثم تهبط همته، فننحي مفاهيم الصوفية هذه جانباً؛ فالمسلمون كانوا يجاهدون بالبدن والروح معاً، والمرء هو بالنفس وبالجسم إنسان؛ ونحن لسنا أطيافاً أو عبيراً أو شيئاً معنوياً، بل نحن أبدان وأرواح في نفس الوقت، فالإنسان يهتم بصحته وبتغذيته ولا يفرط في صحته ما دام ذلك في

استطاعته؛ لأنه إذا قوي إذا أراد شيئاً يستطيع أن ينفذه، أما إذا ضعف وأهدر صحته فإنه حتى في الصيام لن يستطيع الصيام أو حتى الصلاة.

فلابد للإنسان أن يحافظ على قاعدة التوازن بين واجبات الجسم وواجبات الروح معاً، خاصة في زمان الشباب، أو بالضبط في زمن المراهقة الذي هو فترة نمو الجسم، فالإنسان إذا اهتم بصحته في هذه الفترة فإن الجسم يتفاعل مع هذه الرغبة ويعطيه أيضاً، فمن الخطأ إهمال الرياضات البدنية النافعة بالشروط الشرعية، وإهمال التغذية والإعراض عن ذلك بحجة أن الصوفية قالوا: يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته.

ونحن نقول أيضاً: يا مهمل الجسم كم تشقى بإهماله، فتبيت على الفراش وتصيبك الأمراض، وتعجز عن أداء وظائفك، سواء كانت الدينية أو الدنيوية.

التحول عن البيئة المثبطة سبب من أسباب الارتقاء بالهمة

من أسباب الارتقاء بالهمة: التحول عن البيئة المثبطة، فلا شك أن البيئة المحيطة بالإنسان لها أثر جسيم لا يخفى، فإذا كان الإنسان يعيش في بيئة مثبطة داعية إلى الكسل والخمول وإيثار الدون، فإن الشخص لا يستطيع أن يرقى بهمته إلا إذا هجر هذه البيئة وتحول عنها وأبدلها ببيئة عالية الهمة، لذا لابد أن يهجرها؛ لكي يتحرر من سلطان تأثيرها، وينعم بفرصة الترقي إلى المطالب العالية.

يقول الشاعر: تقول ابنة السعدي وهي تلومني أما لك عن دار الهوان رحيل فإن عناء المستنيم إلى الأذى بحيث يذل الأكرمون طويل وعندك محبوك السراة مطهم وفي الكف مطرور الشباة صقيل يعني: أنها تلومه على أن يبقى في دار الهوان والمذلة، وتحثه أن يتحول ما دام يقدر على ذلك، وتخبره أنه يعيش عناءً طويلاً ما دام يعيش الشذاة في هذه البيئة المثبطة.

وقوله: (وعندك محبوك السراة مطهم) المحبوك هو الفرس القوي الشديد، وسراة الفرس هي: أعلى ظهره، ومطهم هو: التام المتناهي في الحسن.

وقوله: (وفي الكف مطرور الشذاة صقيل) المطرور: ذو المنظر والرواء والهيئة الحسنة، والشذاة: هي حد طرف السيف، والصقيل: المشحوذ يعني: ما دام عندك فرسك ومعك سيفك، فلماذا تبقى في دار الهوان؟ ارحل إلى حيث تعز.

وأفضل من هذا أن نستدل بالأدلة الشرعية التي جعلت التحول عن مثل هذه البيئة التي تفسد الدين وتفسد الهمة فرضاً على المسلم، أليس قد فرض الله سبحانه وتعالى على المسلم أن يهاجر من دار الكفر إلى دار الإسلام؟ أليس قد قال العلماء: إن الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، ومن دار البدعة إلى دار السنة، ومن دار المعصية إلى دار الطاعة باقية؟ إذاً: هي سنة ماضية، وهذا المبدأ الذي نناقشه هو حتمية التحول من البيئة المثبطة، فالإنسان بلا شك إذا وجد في مثل هذه البيئات فإن ذلك ينال من همته منالاً، وآية ذلك ما نراه في أغلب الذين يعيشون في بلاد الكفار ويرتضونها بديلاً عن بلاد المسلمين، حيث نجد منهم الرضا بالدنيا، وأن أحدهم لا يستطيع بعد ذلك أن يتحمل أن يأتي ويعيش مع المسلمين، وهذا إذا لم ينظر إلى المسلمين في بلاده بنظرة التعالي والاحتقار والازدراء، فالإنسان بلا شك يتأثر شاء أم أبى بمثل هذه البيئات المنحرفة.

وأشد الناس حاجة إلى تجديد البيئة المحيطة وتنشيط الهمة هو حديث عهد بالتوبة، فالإنسان في بداية توبته أحوج الناس إلى هذا التحول عن البيئة المثبطة؛ لأنه إذا تحول عن بيئة المعصية والفسق إلى بيئة الطاعة والاستقامة فإن هذا من شأنه أن ينسيه ما يجذبه إلى صحبة السوء وأماكن السوء، وأما إذا بقي وفيه الضعف البشري، وعنده الذكريات، ويبقى في الأماكن التي أتى فيها المعاصي، وفيها صحبة السوء، والأصدقاء الذين يراهم ويرونه، فإنه يصعب عليه أن يستقيم؛ لأن هذه العوامل المثبطة تجعله ينجذب باستمرار إلى هذا الفسق، فالأمر كما يقولون: الإنسان إذا أبعد شيئاً عن عينيه فإنه يذهب أيضاً عن قلبه، فالتحول عن البيئة المثبطة والبيئة الفاسقة مما يعين الإنسان على أن ينسى معاصيه وصحبة وأماكن السوء، فيجتمع قلبه ويلتئم شمله، وتتوحد همته، وتتوجه بصدق وعزم إلى أسلوب من الحياة جديد، وهذا هو عين ما أشار به العالم الواعي على قاتل المائة -كما في الحديث- حيث قال له: (ومن يحول بينك

وبين التوبة، ثم قال له فوراً: انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء)، ولما جاءه الموت، واختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب كان قربه إلى القرية الصالحة بالنسبة إلى بلد السوء سبباً في قبض ملائكة الرحمة إياه، وفي بعض الروايات: (فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها) وفي رواية: (فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقاربي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له) وفي بعض الروايات: (فنأى بصدره نحوها) يعني: أنه عند لحظة الاحتضار زحف بصدره كي يكون أقرب خطوة أو شبراً إلى البلدة الصالحة، فما بالك بمن بينه وبين بلاد المسلمين هذه المسافات الشاسعة التي تبلغ آلاف الأميال وهو يرضى باختياره أن يبقى في منطقة الكفار ليتمتع معهم بدنياهم، حتى ولو كان على حساب دينه؟! وكيف يكون حاله إذا قبض في مثل تلك البلاد المشئومة؟! ونفس هذا المعنى - تغيير البيئة- لعله هو العلة في تشريع نفي الزاني غير المحصن، وتغريبه سنة بعيداً عن وطنه، فالبكر الزاني عليه جلد مائة وتغريب سنة لتجتمع عليه نوعان من العقوبة: عقوبة بدنية بالجلد، وعقوبة قلبية بالنفي والاغتراب، فهذه عقوبة قلبية ونفسية، كما أن هذا الذي ارتكب هذه الفاحشة إذا نفي بعيداً عن هذه البلد التي ارتكب فيها هذه المعصية فيه مصالح جمة له؛ لأنه بهذا يبعد عن مسرح الجريمة التي مارسها، وبالتالي يعينه هذا على نسيان ذكراها، وفي نفس الوقت الإنسان إذا جلد وأقيم عليه الحد على الملأ لقوله تعالى: {وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النور:2]، إذا وجد في مثل هذا المجتمع واشتهر بأنه فعل فعلاً من هذه الأفعال الشنيعة، لا شك أن الناس سينظرون إليه بازدراء وباحتقار وبامتهان؛ لأن هذا قد ظهر منه هذا الفسق، وبالتالي يتعرض لمضايقات، أما إذا جدد البيئة، وانتقل إلى مكان آخر حيث لا يعرف ولا يؤذى، وحيث لا يذكره أحد بهذه المعاصي، فإنه يستطيع أن يفتح صفحة جديدة، وأن يجدد العهد، وأن يستأنف التوبة الصادقة والحياة الكريمة دون أن يمتهن، ودون أن ينظر الناس إليه بامتهان واحتقار.

والحقيقة أن هذه الحكمة التربوية التي نناقشها الآن هي مسألة نسبية، يعني: ليس شرطاً أن كل إنسان يتحول من بلد إلى بلد، بل ممكن أنه يتحول من قرية إلى قرية، وممكن أن يتحول من حي إلى حي، فإذا لم يمكن هذا ولا ذاك، فإنه يستطيع أن يتحول من صحبة إلى صحبة، فإن عجز عن هذه كله فيتحول بقلبه، وذلك أضعف الإيمان، فهذه الحكمة التربوية لعلها مستقاة من تلك الأدلة الشرعية كما ذكرنا، ونحن نجد تطبيقاً عملياً لها بصورة ناجحة إلى حد كبير جداً في جماعة التبليغ والدعوة، فإن جماعة التبليغ والدعوة أحد ركائز أسلوبها التعليمي والتربوي هو ضرورة نزع المدعو من بيئته وغمسه لفترة كافية في بيئة أخرى، وبغض النظر عن أحوال جماعة التبليغ، فإننا لسنا في مجال الكلام وتفصيل المؤاخذات على جماعة التبليغ، فقد سبق أن تكلمنا عليها بالتفصيل منذ زمن بعيد، لكن نحن الآن نتكلم على أن هذا واقع عملي نلمسه ونراه، ونحس بأثره، ونرى كيف يتغير سلوك الذي يأوي إليهم، بحيث تجده بعدما كان سكيراً عربيداً قاطعاً للطريق عاقاً لوالديه لصاً تجده بمجرد أن يمتزج مع هذه الجماعة يخرج من الباب الآخر رجلاً عابداً خاشعاً قانتاً صالحاً، صحيح أنهم لا يعلمونه الكثير، لكن الشاهد هو هذه الإيجابية النسبية، فأسلوبهم الأساسي في هذا هو هذا القضية التي نتكلم فيها، يعني: أن ينزع هذا الشخص من البيئة التي هو فيها، ويغمس في بيئة أخرى، فيسهل تطبيع هذا التائب بغرس قيم ومفاهيم جديدة مع التكرار باستمرار، ومع تطهيره من القيم المراد نزعها من قلبه، وبصورة سلسة وتلقائية، وفعالة، وتفسر جماعة التبليغ ذلك بمثال، وهم يتقنون جداً ضرب الأمثال، بل أحياناً تطغى عندهم على الاستدلالات الشرعية، فيقولون: إذا سقطت الجوهرة في النجاسة، فلو أردنا أن ننظف الجوهرة وهي باقية في وسط النجاسة، وبقينا نصب عليها الماء، ونصب الماء، ونصب الماء؛ فإنها لن تطهر، لكنها تطهر إذا نزعتها من وسط النجاسة بعيداً عنها ثم غسلتها، فحينئذٍ تطهر، فيقولون: إذا سقطت الجوهرة في مكان نجس فيحتاج ذلك إلى كثير من الماء حتى تنظف إذا صببناه عليها وهي في مكانها، ولكن إذا أخرجناها من مكانها؛ سهل تنظيفها بالقليل من الماء.

صحبة أولي الهمم العالية سبب من أسباب الارتقاء بالهمة

من أسباب الارتقاء بالهمة: صحبة أولي الهمم العالية ومطالعة أخبارهم، فهذا سبب آخر مرتبط بالسبب الماضي، وإن كان السبب الماضي عاماً، فمن انتقل إلى بيئة أخرى فعليه بعد ذلك أن يبحث عن أناس أولي همة عالية ويصحبهم؛ كي يتأثر بهم، فالطيور على أشكالها تقع، فالغراب يطير مع الغربان، والحمام مع الحمام، والنسور مع النسور، وكل شكل من أشكال الطيور مع شكله، وكذلك الأسماك وكذلك غيرها من الكائنات، وكذلك بنو آدم، فالطيور على أشكالها تقع، وكل قرين بالمقارن يقتدي.

والعبد يستمد من لحظ الصالحين قبل لفظهم، فإذا عشت مع الصالحين فإنك تستفيد باللحظ وبالنظر أكثر ما تستفيد بالكلام؛ لأن رؤيتهم تذكر بالله عز وجل، فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من الناس ناساً مفاتيح للخير مغاليق للشر) فمجرد رؤيتهم تفتح أبواب الخير، وتغلق أبواب الشر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس:62] قال: (هم الذين يُذكر الله لرؤيتهم) هذه هي علامة أولياء الله، فإنهم مباركون حيثما كانوا، وإذا رآهم الناس تذكروا الله سبحانه وتعالى، والإنسان فعلاً يشعر بهذا، فأحياناً يمضي مثلاً في الطريق، ويكون غافلاً عن ذكر الله، فإذا رأى رجلاً تتحرك شفتاه بذكر الله، سرعان ما ينتبه الإنسان إليه ويقتدي به في هذا، ومثلاً: تركب أحياناً في مواصلات فتجد رجلاً منزوياً في جانب ويمسك المصحف الشريف ويقرأ من القرآن، المصلحون في كل مكان يذكرون الناس بلحظهم قبل أن يذكروهم بلفظهم.

وروي عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال: كان الربيع بن خيثمة إذا دخل على ابن مسعود لم يكن له إذن لأحد حتى يفرغ كل واحد من صاحبه، فقال له ابن مسعود: (يا أبا يزيد! لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين)، فانظر إلى رجل ينبهر به عبد الله بن مسعود ويقول له: لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين، ولذلك كان ابن مسعود يعامله معامله خاصة، فكان إذا دخل الربيع بن خيثمة على عبد الله بن مسعود تنقطع المقابلات، ولا يمكن أن يقابل أحداً أبداً إلى أن يفرغ من حاجته مع ابن خيثمة ثم بعد ذلك يقابل الآخرين.

وقالت العرب: لولا الوئام لهلك الأنام، والوئام هنا بالذات في هذه العبارة معناه: التشبه بالكرام.

قال الماوردي في معنى هذه الكلمة: لولا الناس يرى بعضهم بعضاً فيقتدى بهم في الخير وينتهي بهم عن الشر لهلكوا؛ لأن الانغماس في البيئة الصالحة والبيئة الطيبة يوجد الوئام الذي هو ثمرة هذا الاختلاط، فالناس حينما يحتك بعضهم ببعض يتعلمون من بعض، فيُرى الصالحون ويقتدى بهم، وأيضاً يجتنب الشر عن طريق هذا الوئام، فلولا الوئام لهلك الأنام.

وقال زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه.

تحر ألا تجلس إلا إلى من ينفعك في دينك.

أنت في الناس تقاس بالذي اخترت خليلا فاصحب الأخيار تعلو وتنل ذكراً جميلا وعن جعفر قال: كنت إذا وجدت بالقلب قسوة نظرت إلى وجه محمد بن واسع نظرة، وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أن وجهه وجه ثكلى، يعني: من شدة حزنه وخوفه من الآخرة.

وقال ابن المبارك: إذا نظرت إلى فضيل جدد لي الحزن، ومقت نفسي.

هذا والذي يقول هذا هو عبد الله بن المبارك رحمه الله الإمام الجليل المبارك الذي هو من سادات المسلمين رحمه الله تعالى، ومع ذلك يقول في الفضيل بن عياض: إذا نظرت إلى فضيل جدد لي الحزن، ومقت نفسي.

فيمقت نفسه ويكره نفسه، لتقصيرها في طاعة الله عن التشبه بهذا العبد الصالح.

وكان الإمام أحمد إذا بلغه عن شخص صلاحاً أو زهداً أو قياماً بحق أو اتباعاً للأمر سأل عنه، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله.

فكان من خصائص منهج الإمام أحمد في علاقته بالناس أنه إذا سمع عن رجل يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر أو مجتهد في العبادة أو العلم أو الزهد أو الصلاح أو غير ذلك من هذه الأمور العالية يسأل ويبحث عنه، ويحرص على أن تجري بينه وبينه معرفة وأخوة، ويتابع أحواله باستمرار، الإمام أحمد كان يطبق قاعدة مهمة جداً وهي قاعدة: التجريب قبل التقريب، يعني: قبل أن تقرب واحداً منك ينبغي أن تجربه أولاً وتجرب أخلاقه وتبحث عن صفاته وطباعه؛ لأن الصورة التي تريدها لنفسك هي الصورة التي عليها من تخالله وتتخذه صديقاً قريباً، فكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى يطبق قاعدة التجريب قبل التقريب، فكان يدقق في اختيار من يقربه منه ويدنيه، وعرف عنه ذلك، حتى قال الشاعر في مدح الإمام أحمد رحمه الله: ويحسن في ذات الإله إذا رأى مضيماً لأهل الحق لا يسأم البلا فإخوانه الأدنون كل موفق بصير بأمر الله يسمو إلى العلا هؤلاء هم إخوانه في الله، فكان الإمام أحمد يحرص على ألا يصادق ولا يؤاخي إلا من تحقق فيه هذا المعنى.

وحكى ابن القيم رحمه الله تعالى بعض ما استفاده من ملاحظة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فقال: وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، وما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وابن القيم يتكلم وكأنه يتكلم عن أبناء أو أطفال يفزعون إلى أبيهم في شدة الفزع كي يلوذوا به ويطمئنوا، فـ ابن القيم هو شعاع من نور شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يتحدث بلسان إخوانه من تلامذة شيخ الإسلام فيقول: وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة.

وإذا أردت أن تلمس أثر الصحبة العالية الهمة في التسابق إلى الخيرات فتأمل ما قاله محمد بن علي السلمي رحمه الله -تأملوا وابكوا على أحوالكم- حيث يقول: قمت ليلة سحراً لآخذ النوبة على ابن الأخرم.

يعني: من أجل أن يذهب يحجز مكاناً في المسجد الذي فيه حلقة ابن الأخرم، وكأنه يقول: أنا سأكون أول واحد يحضر، وبالتالي أكون في المقدمة، وأبادر للأخذ على الشيخ، فاستيقظ في السحر، وخرج من بيته وذهب ليحجز مكاناً في الحلقة، قال: فوجدت أنه قد سبقني ثلاثون قارئاً، أي: ثلاثون من إخوانه، وهذا معناه: أنهم استيقظوا وأتوا قبل ذلك بفترة، قال: فوجدت أنه قد سبقني ثلاثون قارئاً، ولم تدركني النوبة إلى العصر.

وقال علي بن الحسين بن شقيق: قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة باردة من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث أو ذاكرته فما زلنا نتذاكر حتى جاء المؤذن للصبح.

أي: لم يشعروا بالوقت، فظلوا يتذاكرون طوال الليل وهم قيام، وفي ليلة باردة إلى أن جاء المؤذن يؤذن لصلاة الصبح.

وهذا الشاعر محمد إقبال يدعو الله أن يمن عليه بصاحب عالي الهمة فيقول: هب نجياً يا ولي النعمة محرماً يدرك ما في فطرتي هب نجياً لقناً ذا جنة ليس في الدنيا له من صلة وقال أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه: (ما أعطي عبد بعد الإسلام خيراً من أخ صالح، فإذا رأى أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به).

وقال الحسن البصري: إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا؛ لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا، وإخواننا يذكروننا بالآخرة.

ويقول الدكتور خلدون الأحدب حفظه الله: وإذا ما نظرنا إلى أولئك الذين استفادوا من لحظات أعمارهم، وكان من نتاجهم وأثرهم ما يعجب أو يدهش نجدهم لا يصاحبون إلا المجدين العاملين، والنابغين الأذكياء الذين يحرصون على أوقاتهم حرصهم على حياتهم؛ لأن الزمن هو الحياة.

ونحن المسلمون نقول: الذهب هو الحياة، ولا نقول: الوقت من ذهب؛ لأن هذه الكلمة هي كلمة الغربيين؛ لأن الذهب عندهم هو أعظم حاجة يضرب بها المثل في النفاسة،

فالوقت عندهم من ذهب، أما المسلمون فيقولون: الذهب هو الحياة نفسها التي هي أغلى بكثير من الذهب.

يقول: وصحبة هؤلاء الأمجاد المجدين المتيقظين للدقائق والثواني كان له عظيم الأثر في همة مثل الإمام: ابن جرير الطبري وابن عقيل الحنبلي وابن عساكر الدمشقي وابن تيمية وابن القيم وابن النفيس والمزي والذهبي وابن حجر وأضرابهم في غزارة إنتاجهم وجدته.

يقول الإمام ابن عقيل الحنبلي صاحب كتاب (الفنون): وعصمني الله من عنفوان الشبيبة بأنواع من العصمة، وقصر محبتي على العلم وأهله فما خالطت لعاباً قط، ولا عاشرت إلا أمثالي من طلبة العلم.

يعني: أن أحد أسباب توفيقه هو أنه قصر صحبته على كبيري الهمة.

فالحريص الموفق الذي يروم المعالي لا تراه إلا مع أهل العلم العاملين، وأولي الفضل والمجاهدة والحكمة والبصيرة، ليرشح عليه ما هم فيه أو بعضه، فيكون مثلهم أو قريباً منهم، إن صحبة هؤلاء تعلم منافسة الزمان، وصحبة البطالين تعلم تضييع الزمان.

وصحبة البطالين الآن ليس فقط عن طريق اتخاذ أصدقاء بطالين لاهين غافلين، إنما هناك نوع

نصيحة المخلصين سبب من أسباب الارتقاء بالهمة

من أسباب الارتقاء والارتفاع بالهمة: نصيحة المخلصين النصيحة المخلصة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة، قالوا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم) وهذا الناصح قد يكون أباً شفيقاً أو أماً رحيمة، أو زوجة تحضه على الخير، وقد يكون هذا الناصح رجلاً من عوام المسلمين، وقد يكون من علماء المسلمين كما سنفصل إن شاء الله تعالى.

فقد يكون هذا الناصح الأمين الذي ينصحك ويوجهك وينفعك في الارتقاء بهمتك أباً شفيقاً، كما قال سفيان بن عيينة: قال لي أبي وقد بلغت خمس عشرة سنة: إنه قد انقضت عنك شرائع الصبا- أي: انتهى موضوع الطفولة والصبا- فاتبع الخير تكن من أهله؛ فجعلت وصية أبي قبلة أميل إليها، ولا أميل عنها.

وقد يكون الناصح أماً رحيمة، فهذه أسماء ذات النطاقين رضي الله تعالى عنها توصي ابنها عبد الله بن الزبير لما استنصحها فقالت له: (الله! يا بني! إن كنت تعلم أنك على حق تدعو عليه فامض عليه، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيلعبوا بك، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن معك، وإن قلت: إني كنت على حق، فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي فليس هذا فعل الأحرار، ولا من فيه خير، كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير! والله! لضربة بالسيف في عز أحب إلي من ضربة بالسوط في ظلم، فقال: يا أماه! أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني، قالت: يا بني! إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح، فامض على بصيرتك واستعن بالله)، وهو في الحقيقة ما كان يخاف، فهو أكبر من ذلك، لكنه كان يريد أن يطمئن على ما عندها، فهذه بلا شك نصيحة أم، فانظر كيف تحثه حثاً على علو الهمة حتى لو كان في ذلك نحبه؟! وقد يكون الناصح الأمين زوجة تحضه على الخير، والزوجة بلا شك تكون من أكثر عناصر التثبيط أو التشجيع، ومن ثم حرضنا الشرع الشريف على البحث عن الزوجة الصالحة؛ لأنها تكون عوناً للإنسان على دينه، فتحضه على الخير وعلى طاعة الله سبحانه وتعالى، فالزوجة الصالحة تحضه على الخير وترقي همته، مثل امرأة حبيب أبي محمد انتبهت ليلة وهو نائم، فأنبهته في السحر، وقالت: قم يا رجل! فقد ذهب الليل وجاء النهار، وبين يديك طريق بعيد وزاد قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا ونحن قد بقينا.

أو كالزوجة الصالحة العاقلة الذكية الدينة موضي بنت أبي وهطان زوجة الأمير محمد بن سعود رحمه الله، والتي كان لنصيحتها أكبر الأثر في نصرة أعظم حركة تجديدية شهدتها الأمة منذ أوائل القرن الثاني عشر الهجري إلى يومنا هذا، فإنها هي التي حثت زوجها على مناصرة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وشد أزره،

وإشهار سيفه من غمده نصرة لدعوة التوحيد، فهذه المرأة كانت عنصراً أساسياً خلف تأييد ومناصرة دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى.

وقد يكون الناصح الأمين الذي يرتفع بهمتك رجلاً من عوام المسلمين.

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى وهو يصف محنته: صرنا إلى الرحبة -بلدة معينة- ورحلنا منها في جوف الليل فعرض لنا رجل، فقال الرجل: أيكم أحمد بن حنبل؟ فقيل له: هذا، فقال للجمال: على رسلك، ثم قال: يا هذا-يخاطب الإمام أحمد - ما عليك أن تقتل ههنا وتدخل الجنة؟ ثم قال: أستودعك الله، ومضى، فسألت عنه، فقيل لي: هذا رجل من العرب من ربيعة يعمل الصوف في البادية يقال له: جابر بن عامر يذكر بخير.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر-الفتنة- أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق -وهي بلدة بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات- قال: يا أحمد! إن يقتلك الحق مت شهيداً، وإن عشت عشت حميداً، فقوي قلبي.

فانظر كيف أثرت نصيحة رجل من عوام المسلمين، والإمام أحمد يقول: رجل أعرابي، يعني: ليس بعالم ولا مشهور ولا يشار إليه بالبنان، لكن أثرت كلمته في قلب الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

وحكى الحافظ ابن كثير رحمه الله: أن أعرابياً نصح الإمام أحمد في المحنة، فقال: يا هذا! إنك وافد الناس، فلا تكن شؤماً عليهم، وإنك رأس الناس اليوم، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا، فتحمل أوزارهم إلى يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل.

قال الإمام أحمد: وكان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع عن ذلك الذي يدعونني إليه.

وما أحسن ما كتبه رجل أسره الصليبيون في بيت المقدس من أبيات لها أهميتها في موضوع التشجيع في الارتفاع بالهمة، فإن التشجيع يكون له أثر عظيم جداً في الارتفاع والارتقاء بالهمة، ويكفي أن التشجيع قد جعله الله سبحانه وتعالى فرضاً على المسلمين في بعض الأحوال، والعلماء حينما يتكلمون عن فروض الكفايات يقولون: إن الأمة لو لم تقم بفرض الكفاية يأثم الجميع: القادرون وغير القادرين، يأثم القادرون؛ لأنهم لم يفعلوا، ويأثم غير القادرين؛ لأنهم لم يحرضوا ولم يشجعوا ولم يستحثوا القادرين، فحتى غير القادر يجب أن يحث القادر، ولذلك الإنسان لا يحتقر أبداً أي نصيحة أو أي كلمة تشجع إخوانه القائمين بأمر الدعوة أو بأمر الله سبحانه وتعالى.

هذا رجل من المسلمين أسره الصليبيون في بيت المقدس، فكتب هذه الأبيات على لسان المسجد الأقصى يخاطب صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، ولم يقل له: أريد أن أتحرر من الأسر، أو أريد أن أعود إلى أولادي ومالي وكذا، وإنما انظر إلى ما كتبه على لسان المسجد الأقصى وهو يخاطب صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى حيث قال له: يا أيها الملك الذي لمعالم الصلبان نكس جاءت إليك ظلامة تسعى من البيت المقدس كل المساجد طهرت وأنا على شرفي منجس فكان لها أعظم الأثر في قلب صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، والظلامة هي ما يكتبه المظلوم، يعني: فكأن المسجد الأقصى يخاطب صلاح الدين بهذه الأبيات.

أما نصائح العلماء فلا تسل عن حسنها وعميق أثرها في انبعاث الهمة: سيق الإمام أحمد إلى المأمون مقيداً بالأغلال، وقد توعده وعيداً شديداً قبل أن يصل إليه، حتى إن الخادم قال للإمام أحمد رحمه الله تعالى: يعز علي يا أبا عبد الله! أن المأمون قد سل سيفاً لم يسله قبل ذلك، وأنه يقسم بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف، فانبرى أبو جعفر الأنباري يشد أزر الإمام، فقال رحمه الله: ولما حمل أحمد إلى المأمون أخبرت، فعبرت الفرات فإذا هو جالس في الخان فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر! تعنيت.

يعني: أتعبت نفسك، فقال: يا هذا! أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن خلق، وإن لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت، فاتق الله ولا تجب، فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله، ثم قال: يا أبا جعفر! أعد، فأعدت عليه وهو يقول: ما شاء الله.

وقال الإمام أحمد رحمه الله واصفاً حال رفيقه في المحنة محمد بن نوح: ما رأيت أحداً على حداثة سنه، وقدر علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح، إني لأرجو أن يكون قد ختم له بخير، قال لي ذات يوم: يا أبا عبد الله! الله الله! إنك لست مثلي، أنت رجل يقتدى بك، قد مد الخلق أعناقهم إليك؛ لما يكون منك، فاتق الله واثبت لأمر الله، فمات وصليت عليه ودفنته.

بل إن من لم يتصل مباشرة بالإمام أحمد في محنته كان معه بوجدانه، يتحسر لعدم مشاركته إياه العذاب والآلام.

قيل لـ بشر بن الحارث الحافي يوم عذب الإمام أحمد: قد ضرب أحمد بن حنبل إلى الساعة سبعة عشر سوطاً، فمد بشر رجله وجعل ينظر إلى ساقه، ويقول: ما أقبح هذا الساق ألا يكون القيد فيها نصرة لهذا الرجل! ومن نصائح العلماء المؤثرة جداً، والتي ممكن أن تغير سير حياة كاملة لإنسان ما قاله الإمام الذهبي رحمه الله تعالى: إن الحافظ القاسم بن محمد البرزالي رحمه الله هو الذي حبب إلي طلب الحديث، فإنه رأى خطي، فقال: خطك يشبه خط المحدثين، فأثر قوله فيَّ وسمعت منه وتخرجت به في أشياء.

فالإمام الذهبي الذي هو الإمام الذهبي ولا نستطيع أن نقول أكثر من هذا، كان سر عظمته في علم الحديث وتوغله في هذا العلم هو هذه الكلمة العابرة التي قالها له الحافظ البرزالي حينما نظر إلى خطه فقال له: خطك يشبه خط المحدثين، يقول الذهبي: فأثر قوله فيَّ، وسمعت منه وتخرجت به في أشياء.

المداومة والمثابرة في كل الظروف سبب من أسباب الارتقاء بالهمة

إن أسباب الارتقاء بالهمة ليست محصورة، لكن نقف عند هذا السبب الأخير، وهو: المبادرة والمداومة والمثابرة في كل الظروف، يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران:200]، وقال أيضاً: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} [الحج:78]، وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت:69]، فكبير الهمة لا يستسلم للأمر الواقع، بل يبادر ويبادر في أقصى الظروف؛ لأنه يرى أن شرع الله هو الأمر الواقع، أما الباطل الذي صار أمراً واقعاً في زعم الناس فما أسهل أن يتحول ويتنحى جانباً ليترك السبيل للأمر الواقع الحق الذي هو شرع الله سبحانه وتعالى، فعالي الهمة لا يعترف بشيء اسمه الأمر الواقع، ولو أن علماء السلف قالوا: الأمر الواقع لما حصل تجديد للدين، ولا تشغيل لشبابه وبعث للأمة أبداً، فالأمر الواقع إنما يميل إليه سفلة الناس الذين انحطت هممهم وسفلت نفوسهم، فعالي الهمة لا يلتفت إلى الأمر الواقع، بل يبادر ويبادئ في أقصى الظروف حماية لهمته أن تهمد، ووقاية لها من أن تضمر، واستثماراً لأول فرصة متاحة.

ليس في كل حال وأوان تتهيأ صنائع الإحسان فإذا أمكنت فبادر إليها حذراً من تعذر الإمكان سبق أن ذكرنا من قبل مثالاً لعالي الهمة: أن عالي الهمة مثل الذي يحمل شعلة من النار، فحتى لو دفع بها إلى أسفل فإنها تأبى إلا صعوداً وارتفاعاً، فعالي الهمة حتى لو قيد أو كبل فهذا لا يؤثر في همته، بل إنه تحت أقسى الظروف يثابر ويداوم.

قال الشاعر: ومن أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها وقال آخر: إذا هبت رياحك فاغتنمها فعقبى كل خافقة سكون ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الأسوة، فإنه لما خرج مهاجراً إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لقي في طريق الهجرة بريدة بن الحصيب الأسلمي في ركب من قومه فيما بين مكة والمدينة، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، فلم تشغله مطاردة قريش عن واجب الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

وهذا يوسف الصديق عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام يبادر إلى استثمار الفرصة فيغتنم سؤال السجينين عن رؤياهما ليبث إليهما دعوة التوحيد من وراء الأسوار، كما قال عز وجل حاكياً عنه: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [يوسف:39] إلى آخر الآيات.

وقد أملى شمس الأئمة الإمام السرخسي رحمه الله تعالى الإمام الحنفي الشهير كتابه المبسوط الذي يقع في نحو خمسة عشر مجلداً وهو في السجن في (أوزجم)، وكان محبوساً في الجب بسبب كلمة ناصح بها الخاقان فحبسه في الجب، وهذه طريقة غريبة في الحبس، فكان محبوساً في قاع الجب، وكان يأتيه تلامذته يجلسون على قصف البئر -السور الذي يكون أعلى البئر- وهو يملي عليهم من ذاكرته من قاع ذلك البئر.

يعني: كان يملي من خاطره من غير مطالعة كتاب وهو في الجب وأصحابه في أعلى الجب، وقال عند فراغه من شرح العبادات -ومن يراجع كتاب المبسوط سيجد هذه العبارات مكتوبة في آخر جزء العبادات-: هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات، إملاء المحبوس عن الجمع والجماعات، وقال في آخر شرح الإقرار: انتهى شرح الإقرار المشتمل من المعاني على ما هو من الأسرار، إملاء المحبوس في محبس الأشرار.

وله كتاب في أصول الفقه، وشرح السير الكبير أملاه وهو في الجب، ولما وصل إلى باب الشروط حصل له الفرج فأطلق، فخرج في آخر عمره إلى (فرغانة)، فأنزله الأمير حسن بمنزله فوصل إليه الطلبة فأكمل الإملاء.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى لما تآمر عليه أعداؤه حتى حالوا بينه وبين الأوراق والكتابة حتى لا تخرج فتاواه وعلمه من خارج السجن كما حصل، وشوا به إلى السلطان حتى منعه من الأوراق والأقلام، وأخرج كل ما عنده من الكتب والأقلام والأوراق، فظل يكتب فتاواه ورسائله بالفحم على جدار السجن، فرحمه الله تعالى. (17/13)

_____

أثر علو الهمة في إصلاح الفرد والأمة

إن ما مضى من الكلام يبين لنا كيف أن الهمة العالية هي سلم الرقي إلى الكمال الممكن في كل أبواب البر، لاسيما العلم والجهاد اللذين هما سبب ارتفاع الدرجات؛ فمن تحلى بها لان له كل صعب، واستطاع أن يعيد هذه الأمة إلى الحياة مهما ضمرت فيها معالي الإيمان، إذ إن همم الرجال تزيل الجبال، يقول الشاعر: همم الأحرار تحيي الرمم نفخة الأبرار تحيي الأمم فأصحاب الهمة العالية فحسب هم الذين يقوون على البذل في سبيل المقصد الأعلى، وأصحاب الهمة العالية هم فقط الذين يبدلون أفكار العالم، ويغيرون مجرى الحياة بجهادهم وتضحياتهم.

وهذا بخلاف نوع آخر من الهمم قال فيه الأستاذ المودودي رحمه الله تعالى: ومن دواعي الأسف أن الذين عندهم نصيب من القوى الفكرية والقلبية من النوع الأعلى من أفراد أمتنا- يعني: الأذكياء والنوابغ- هم مولعون بإحراز الترقيات الدنيوية، يجاهدون في سبيلها ليل نهار، ولا يصبرون في السوق إلا على من يساومهم بأثمان مرتفعة، وما بلغوا من تعلقهم بالدعوة إلى الاستعداد للتضحية في سبيلها بمنافعهم، بل ولا بمجرد إمكانات منافعهم، فإذا كنتم -يخاطب أصحابه- ترجون معتمدين على هذه العاطفة الباردة للتضحية أن تتغلبوا في الحرب على أولئك المفسدين في الأرض الذين يضحون بالملايين من الجنيهات كل يوم في سبيل راياتهم الباطلة، فما ذلك إلا حماقة! وهذه نصيحة شديدة وقاسية لكن لابد منها، وسبق أن ذكرت لكم مثالاً مؤسفاً أيضاً كهذا المثال، بعض الشباب في إحدى البلاد حينما طلب من بعضهم التبرع بتحفيظ الطلاب القرآن الكريم لوجه الله تذمر بعضهم لأجل أنه لن يعود عليهم ذلك براتب؛ وإن كان هذا في وقت فراغهم لكنه لن يعود عليهم بمال.

فجمعهم المسئول وقال لهم: لا تكونوا مثل ماكينة البيبسي -وفي الخارج توجد ماكينات تضع فيها العملة سواء ورقية أو معدنية فتخرج لك البيبسي، وإذا ما أعطيتها النقود لا تخرج لك- تعطيها العملة تعطيك البيبسي، فأنتم إذا لم تأخذوا مالاً لا تبذلوا في سبيل الدعوة! فهذا مثال مشابه.

يقول المودودي: فإذا كنتم ترجون معتمدين على هذه العاطفة الباردة التي لا تكلف وليس فيها دفع الثمن أن تتغلبوا على أناس يضحون بالأموال والأنفس وكل شيء في سبيل باطلهم فهذا ليس من العدل وليس من الإنصاف.

إذاً: أصحاب الهمة العالية هم وحدهم فقط الذين يقوون على البذل في سبيل المقصد الأعلى، وهم الذين يبدلون أفكار العالم ويغيرون مجرى الحياة بجهادهم وتضحياتهم، ومن ثم فهم القلة التي تنقذ الموقف، وهم الصفوة التي تباشر مهمة الانتشال السريع من وحل الوهن ووهدة الإحباط.

يقول الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله تعالى مبيناً أثر علو الهمة: يسمو هذا الخلق بصاحبه فيتوجه به إلى النهايات من معالي الأمور، فهو الذي ينهض بالضعيف يضطهد أو يزدرى فإذا هو عزيز كريم، وهو الذي يرفع القوم من سقوط ويبدلهم بالخمول نباهة، وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية.

هذا الخلق هو الذي يحمل جماعة من أن تتملق خصمها، فإذا كان الإنسان عنده علو همة فلا يجود لسانه بمدح خصمه، فلا يقول: إنه شريف وإنه كذا وكذا من النفخ في أعداء الدين وأعداء الإسلام؛ لأن هذا من علامات سقوط الهمة، وقائل هذا ذليل أمام الخصم فيضطر أن يمدحه بهذه الطريقة.

يقول الشيخ محمد الخضر حسين: هذا الخلق هو الذي يحمل جماعة من أن تتملق خصمها، أما صغير الهمة فإنه يبصر خصومه في قوة وسطوة، فيذوب أمامهم رهبة، ويطرق إليهم رأسه حطة، ثم لا يلبث أن يسير في ريحهم، ويسابق إلى حيث تنحط أهواؤهم.

وفي جنح هذا الظلام الحالك والليل الأليل تكاد تفتقد أمتنا البدر المنير، وتترقب مجيء رجل الساعة، والمصلح المنتظر ويحدوها الأمل في طلوع فجر قريب يؤذن ببعث المجدد المرتقب الذي بشر به الصادق المصدوق في قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على كل رأس مائة سنة من يجدد لها دينها).

وخلوا ولاة السوء منكم وغيهم فأحر بهم أن يغرقوا حيث لججوا نظار لكم أن يرجع الحق راجع إلى أهله يوماً فتشجوا كما شجوا على حين لا عذر لمعتذريكم ولا لكم من حجة الله مخرج لعل لهم في منطوى الغيب ثائراً سيسمو لكم والصبح في الليل مولج بجيش تضيق الأرض عن زفراته له زجل ينغي الوحوش وهزمج فيدرك ثأر الله أنصار دينه ولله أوس آخرون وخزرج ويقضي إمام الحق فيكم قضاءه تماماً وما كل الحوامل تخدج وإني على الإسلام منكم لخائف بوائق شتى بابها الآن مرتج لعل قلوباً قد أطلتم غليلها ستظفر منكم بالشفاء فتثلج فيا شباب الإسلام! قد فتح باب الترشيح؛ فهيا تسابقوا إلى العلى، وتنافسوا في جنة عرضها السموات والأرض، واختطوا لأنفسكم طريق المجد؛ فتالله ما ارتفع صوت الحادي يوماً لرفقة أولي صمم، ولا ارتفع الفلك الأعلى لغير أهل الشموخ والشمم.

ستعلم أمتنا أننا ركبنا الخطوب هياماً بها فإن نحن فزنا فيا طالما تذل الصعاب لطلابها وإن نلق حتفاً فقد قدمت كئوس المنايا لشرابها هذه المهمة الجسيمة التي تبحث عن عالي الهمة وكبير الهمة هي التي قال فيها المجدد العلم والجبل الأشم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: إني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره.

فممن يعرف قدر نفسه بلا وكس ولا شطط يراها أهلاً لهذه الوظيفة المقدسة؟ من منكم يصف هذه الأحلام ويضرب صدره في عزة وشموخ قائلاً: أنا لها، أنا لها؟! فإن كنت عن جدارة واستحقاق حزت مسوغات هذا الترشيح فامض على بصيرة ولا تلتفت إلى الوراء حتى يفتح الله عليك، وحذار أن تغفل ولو لحظة.

لحظة يا صاحبي إن تغفلِ ألف ميل زاد بعد المنزلِ رام نقش الشوك حيناً رجلُ فاختفى عن ناظريه المحملُ وزاحم بكتفيك وساعديك قوافل العظماء والمجددين من السلف والخلف، ولا تؤجل فليس من تأجيل فإن مرور الزمن ليس من صالحك، وإن الطغيان كلما طال أمده كلما تأصلت في نفوس المتميعين معاني الاستحذاء، ولابد من مبادرة تنتشل ما دام في الذين جرفهم التيار بقية عرق ينبض وبذرة فطرة كامنة.

قد هيئوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل ولا يظنن ظان أن حديثنا عن علو همة أسلافنا العظام يعني الانطواء في الماضي، وقطع النظر عن الحاضر والمستقبل، وإلا صرنا كالترجمان الذي يتوقف أمام الآثار ويشيد بالماضي فحسب، دون أن يقدم شيئاً للحاضر أو المستقبل.

ولا يظنن ظان أننا بهذا الحديث عن علو همة السلف الصالح نرجع إلى الوراء في زمن تتسابق فيه الأمم نحو المستقبل، فإن اقتداءنا بخير أمة أخرجت للناس هو تألق وصعود وارتفاع إلى مستوى ذلك الجيل الفريد الذي لم تعرف البشرية له نظيراً، وإن إبراز هذه النماذج الحية هو أقرب طريق إلى إيقاظ الهمم نحو إصلاح هذه الأمة التي لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها، قال الله عز وجل: {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء:10]، وباب المجد والمكرمات لم يزل مفتوحاً يرحب بكل راغب.

إذا أعجبتك خصال امرء فكنه يكن منه ما يعجبك فليس لدى المجد والمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك فيا من يروم ولوج هذا الباب واجه الحقائق، وتبصر موقع قدمك، ولا تفزع إلى انتظار خراب العالم على أمل أن ينهض المسلمون على أنقاضه، ولا تهرب إلى افتراض حصول خوارق للسنن التي لا تحادي من لا يحترمها، قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الرعد:11].

وتذكر يوم بدر حين خرج الثلاثة من كفار قريش يطلبون المبارزة، فأخرج لهم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة من الأنصار، فقالوا: والله! لا نطعن في أحسابهم ولا أنسابهم، ولكن أخرج لنا أكفاءنا من قريش، فأخرج لهم علياً وحمزة وأبا سفيان بن الحارث فقتلوهم، وكذلك الناس دوماً تحب المكافأة حتى حين يقتلون.

والقرشية اليوم تتمثل في الصروح العلمية، والمجامع الأدبية، والمؤسسات الصحفية، والمعاهد السياسية، والدور الوثائقية، وغير ذلك من مجالات هذه الأنشطة، وعلى دعاة الإسلام اليوم أن ينطلقوا منها للمبارزة.

هذا زمان لا توسط عنده يبقي المغامر عالياً وجليلا كن سابقاً أو ابق فيه بمعزل ليس التوسط للنبوغ سبيلا والنداء الأخير إلى هذا الشخص الذي وعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الفرج يكون على يديه بإصلاح هذه الأمة وتجديد هذا الدين، هذا المصلح المرتقب والمجدد المنتظر الذي سيخرج إلى الحياة بإذن الله مهما حاول فرعون أن يتقيه، ومهما وأد من الصبية كي يبدل وعد الله الذي لا يخلف.

وقد يكون الآن كامناً في ظهر الغيب، أو حقيقة في عالم الشهادة، وقد يكون رضيعاً في المهد، أو ناشئاً يقرأ أو يسمع معنى هذه الأبيات: أنت نشء وكلامي شعلٌ عل شدوي مبرم فيك حريقا ليس في قلبي إلا أن أرى قطرة فيك غدت بحراً عميقاً فالأمة المسلمة تنتظر من هذا المجدد جذبة عمرية توقظ في قلبها مصباح الهمة في ديجور هذه الغفلة المدلهمة، وتنتظر صيحة أيوبية تغرس بذرة الأمل في بيداء اليأس، وعلى قدر المئونة تأتي من الله المعونة.

قد نهضنا للمعالي ومضى عنا الجمود ورسمناها خطاً للعز والنصر تقود فتقدم يا أخا الإسلام قد سار الجنود ومضوا للمجد إن المجد بالعزم يعود قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} [الشورى:28]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل أمتي مثل المطر لا يدرى آخره خير أم أوله)، وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة)، وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشا

---

[18] علو الهمة

لقد شرف الله عز وجل الأمة الإسلامية على جميع الأمم، وإن أعظم ما شرفها الله عز وجل به هو القرآن الكريم، لذا كان الاعتناء بالقرآن الكريم حفظاً وتلاوة وفهماً وتفسيراً وتعليماً من أعظم الأعمال، ومن أحب أن يكلمه الله عز وجل فليقرأ كلامه سبحانه وتعالى.

تشريف الله عز وجل للأمة الإسلامية بالقرآن الكريم

لقد شرفنا الله تبارك وتعالى بأن بعث إلينا أشرف رسول، وجعلنا أشرف أمة في أشرف بقاع الأرض بسفارة أشرف الملائكة، وأنزل عليه صلى الله عليه وسلم أشرف الكتب بأشرف لغة في أشرف شهر في السنة، في أشرف ليلة من هذا الشهر، ألا

وهو القرآن الكريم كتاب الله تعالى الذي فيه نبأ ما قبلنا وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ} [الجن:1 - 2]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

صح عن أمير المؤمنين ذي النورين أمير البررة وقتيل الفجرة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)، رواه البخاري والترمذي.

والخطاب هنا موجه إلى خير أمة أخرجت للناس، فهؤلاء المذكورون في الحديث هم خيار الأخيار في خير أمة أخرجت للناس.

فبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث الشريف أن خير المتعلمين وخير المعلمين من كان تعلمه وتعليمه في القرآن لا في غيره؛ إذ خير الكلام كلام الله، فكذا خير الناس بعد النبيين من اشتغل به، ولابد من تقييد التعلم والتعليم بشرط أن يكون خالصاً لوجه الله تبارك وتعالى.

فلابد من تقييد التعلم والتعليم بالإخلاص، وإرادة وجه الله تبارك وتعالى، فإن من أخلص التعلم والتعليم وتخلق بالإخلاص دخل في زمرة ورثة الأنبياء.

التنبيه على بعض العوائق والأخطاء في طلب العلم

وبعد أن فرغنا من الكلام على علو الهمة لا شك أن هذا الكلام لم يكن المقصود به أن نستمتع بالكلام في سيرة السلف ونتفرج عليهم، وأن نكون كحال الترجمان الذي يقف أمام الآثار يصف عظمة الماضي في زعمه، ثم لا يقدم شيئاً إلى الحاضر أو المستقبل، خاصة وأن بنا من الآفات ومظاهر التقصير في طاعة الله سبحانه وتعالى ما يوجب علينا أن نجدد إيماننا، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم)، نسأل الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبنا أجمعين.

ولا نقتصر أيضاً على مجرد الدعاء؛ فإن الدعاء وإن كان داخلاً في الكلم الطيب لكن الكلم الطيب يحتاج إلى ما يحمله ويرفعه إلى السماء، وهو العمل، قال عز وجل: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر:10].

ولا شك أن مفتاح الهداية إلى الطريق القويم هو العلم والتشبع بالعلم؛ لأن العلم هو المخرج من الفتن التي يموج بها هذا الزمان لكننا حينما نتوجه إلى طلب العلم نقع في كثير من الأخطاء التي تجعل السنوات تمر دون جدوى أو دون الحصيلة التي كان من المفترض أن نحصلها، فيوجد في بعض إخواننا -خاصة ممن ينتسبون إلى السلفية- ما يمكن أن نسميه: بعض النتوءات الفكرية، نتوءات شاذة غير سوية؛ لأنها مخالفة للمنهج السلفي.

ومظاهر هذه النتوءات الشاذة كثيرة، وسبق أن تكلمنا عنها في عدة مناسبات، لكننا محتاجون أن نعيد الكلام عليها من جديد، وقد تكلمنا فيما قبل على المنهج العلمي تحت عنوان: لمن تقرأ وماذا تقرأ؟ وفصلنا الكلام في هذا، ونحن بلا شك محتاجون إلى أن نجدد عهدنا بما قلناه قبل.

لكن أبدأ أولاً ببيان بعض العوائق التي تعيق طالب العلم عن المضي في الطريق الصحيح في طلب العلم، وهذه العوائق كثيرة، لكن أقتصر الآن على ما يمس موضوعنا: فمنها: عدم التدرج في العلم طلب العلم مثل السلم، ولا بد للإنسان أن يتدرج في الصعود عليه، ولذلك لا نرى أحداً من العلماء ينازع في أهمية مراعاة مبدأ التدرج في طلب العلم؛ لأن التدرج هو الوسيلة الناجحة لأخذ العلم وفهمه، والتدرج والتمهل ليس بدعاً من القول، وإنما هو مأخوذ من كتاب الله تبارك وتعالى؛ فقد قال الله عز وجل: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا} [الإسراء:

106] فقوله: (على مكث) يعني: على تمهل، وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} [الفرقان:32].
قال الزبيدي نقلاً عن كتاب الذريعة في وظائف المتعلم: يجب ألا يخوض في فن حتى يتناول من الفن الذي قبله على الترتيب بلغته، ويقضي منه حاجته؛ فازدحام العلم في السمع مضلة الفهم، وعلى هذا قال الله تبارك وتعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ} [البقرة:121]، يعني: لا يتجاوزون فناً حتى يحكموه علماً وعملاً، فيجب أن يقدم الأهم فالأهم من غير إخلال في الترتيب، فكثير من الأمراض الموجودة فينا معشر طلبة العلم هي نتيجة عدم مراعاة هذا الترتيب، فكثيرون يقفزون إلى بعض الدرجات العلا دون أن يراعوا التدرج والترتيب، فتوجد هذه النتوءات الشاذة التي تنتسب زوراً إلى السلفيين.
قال العلماء: من ترك الأصول حرم الوصول.
يعني: أن الأصول هي الأساس الذي ينبغي أن يبنى عليه البنيان، فمن تركها يحرم من الوصول إلى الغاية والهدف الذي يرومه، فحق على طالب العلم أن يكون قصده من كل علم يتحراه هو أن يتبلغ به إلى ما فوقه، ويتهيأ به إلى الدرجة التي تليها إلى أن يبلغ النهاية.
والتدرج يكون في أمرين: الأول: أن يتدرج بين الفنون نفسها.
والثاني: أن يتدرج في الفن الواحد نفسه، وكلا الأمرين يخضع لاجتهاد المعلم الذي يوجه الطالب، وطبيعة المكان والظروف والملابسات، ولذا فإن إشارات العلماء في التدرج تختلف باختلاف مذاهبهم وأماكنهم.
لكن يكاد العلماء والناصحون والمصنفون في هذا الباب من أهل العلم يتفقون على أن أولى الخطوات هي: الاهتمام والحفظ لكتاب الله تبارك وتعالى.
ورحم الله الإمام الحافظ ابن عبد البر إذ نعى طلب العلم في زمنه، فقال: واعلم -رحمك الله- أن طلب العلم في زماننا هذا وفي بلدنا قد حاد أهله عن طريق سلفهم، وسلكوا في ذلك ما لم يعرفه أئمتهم، وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم.
فإذاً: يقبح بنا ألا نقتدي بآثار من سبقنا من أهل العلم في طلب العلم والتدرج فيه.
(18/3)

_____

جدول في طلب العلم من بدايته إلى منتهاه

رتب الإمام ابن الجوزي جدولاً للطالب يبلغ به منتهاه، فقال رحمه الله: وأول ما ينبغي أن يكلف -يعني: طالب العلم- في صباه: حفظ القرآن متقناً؛ فإنه يثبت، ويختلط باللحم والدم، فمن اشتغل وبدأ البداية الصحيحة بحفظ القرآن الكريم منذ الصغر فإن القرآن الكريم سيختلط بلحمه ودمه، يصبح جزءاً من كيانه، وكما أن الدم يجري في عروقه وعضلاته وكل خلايا جسمه فكذلك القرآن الكريم يمتزج بروحه امتزاجاً كاملاً؛ حتى يكون جزءاً من كيانه وتكوينه.
ولا شك أن من حفظ القرآن في الصغر أمكنه أن يتعبد به في الكبر، أما من تأخر في حفظ القرآن فلا شك أن كثرة التمتع والاستمتاع والتعبد بالقرآن الكريم ستكون أقصر، فينبغي الاهتمام بأن نجتهد في إنقاذ الأجيال القادمة -إن شاء الله- مما وقع فيه الجيل الماضي من التقصير في حق القرآن الكريم والاشتغال عنه بغيره.
فكل ما يشغل عن القرآن فهو في الغالب شؤم على صاحبه؛ لأنه سيحرمه من أن يضيء قلبه ويعمر جوارحه بكلام الله عز وجل، فكلام الملك ملك الكلام، فليس هناك كلام أفضل من كلام الله؛ ولذلك كان صلى الله عليه وسلم دائماً يكرر على أصحابه هذه العبارة المهمة: (خير الكلام أو أحسن الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم).
وسيأتي بيان هدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الاهتمام بالقرآن.
يقول ابن الجوزي: وأول ما ينبغي أن يكلف في صغره حفظ القرآن متقناً؛ فإنه يثبت فيختلط باللحم والدم، ثم مقدمة من النحو يعرف بها اللحن في لسانه، ثم الفقه مذهباً وخلافاً، وما أمكن بعد هذا من العلوم فحفظه حسن.

إذاً: طلب العلم سلم ذو درجات ومراتب لا ينبغي تعديها، فمن تعداها فقد تعدى سيرة السلف الصالح، ومن تعدى سبيلهم عامداً ضل، ومن تعداها مجتهداً زل، فلابد من المنهجية، ولابد من المرحلية.

فالمنهجية هي: أن يكون هناك منهج محدد في كل علم من العلوم تدرسه على شيخ، ولا تنشغل بغيره، وتواصل فيه الليل بالنهار مجتهداً.

والمرحلية هي: الجدول الزمني، يعني: أن المهمة التي تريد أن تنجزها لا تعد ناجحاً إلا إذا أنجزتها في وقت مناسب، لا أن تمر سنوات دون أن يحصل تقدم يذكر فإن هذا من الأخطار.

(18/4)

_____

وظائف ينبغي على طالب العلم مراعاتها مع القرآن الكريم

اتفق الناصحون في هذا الباب على أن أول العلم: حفظ كتاب الله تبارك وتعالى.

وسبق أن تكلمنا في محاضرة (لمن تقرأ وماذا تقرأ) وقلنا: إنه لابد لطالب العلم من وظائف مع القرآن الكريم.

الوظيفة الأولى: ختم القرآن الكريم، فعلى طالب العلم أن يختم القرآن بطريقة دورية ثابتة، وأن يكون له ورد يومي وحزب دائم من القرآن الكريم، ويتفاوت مقدار هذا الحفظ حسب ظروف كل إنسان، فالناس ليسوا كلهم على درجة واحدة من الاستعداد والظروف، فهناك التاجر، والطالب، والمدرس، والمتفرغ لطلب العلم، فبلا شك أن حظوظهم تتفاوت بحسب ظروفهم.

ولا تتحرجوا من كلمة (ورد) فهي ليست حكراً على الصوفية، ولا كلمة (حزب) بل هذه ألفاظ شرعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه عليه الصلاة والسلام حينما تأخر على قوم كانوا ينتظرونه قال: (كان حبسني ورد أو حزب من القرآن، فكرهت أن أخرج حتى أتمه)، وجاء أيضاً عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: (من فاته ورده من الليل فليقضه إذا أصبح بالنهار).

الشاهد: أن الورد أو الحزب أو القدر المعين الذي تحدده لنفسك كل يوم ينبغي أن تحافظ عليه، وينبغي أن يكون لكل واحد ورد ثابت من القرآن الكريم؛ بحيث يختم القرآن، وسنتكلم على المدد المقترحة بذلك إن شاء الله تعالى، فهناك ورد الختم، وهناك ورد المراجعة، وهناك حفظ ما لم يحفظه من كلام الله تبارك وتعالى.

وأما الصحابة رضي الله تعالى عنهم فكانوا يحزبون القرآن على سبعة أيام، حسب ترتيب السور، فكانوا يبدءون بالثلاث السور الأولى من القرآن الكريم بعد الفاتحة: البقرة وآل عمران والنساء، ثم في اليوم الثاني يقرءون قدرها، ثم اليوم الثالث كذلك، وهكذا، ثم حزب المفصل يجعلونه في اليوم السابع وحده، وهو الحزب الذي يبدأ بسورة (ق) وينتهي بسورة (الناس).

وأيضاً: مراجعة المحفوظ، فلابد أن يكون للإنسان نظام معين في المراجعة؛ حتى لا يتفلت منه القرآن، وهذا ما سنشير إليه بإذن الله فيما بعد.

أما فيما يتعلق بالوظيفة الثالثة: فهي حفظ ما لم يحفظه من القرآن الكريم، ولا شك أن الحفظ يحتاج إلى همة عالية، وأفضل شيء في فترة الحفظ أن يتفرغ تماماً لحفظ القرآن الكريم، ولا يشتت همته، فلا يقرأ في الحديث أو الفقه أو غيره من العلوم في آنٍ واحد؛ فأمامك هدف محدد، وهذا الهدف مطلوب أن تسابق به الزمن؛ والصغير كلما اشتغل بحفظ القرآن مبكراً كان أسهل عليه؛ لأنه لا هموم ولا مشاغل ولا مسئوليات عليه، فيكون ذهنه صافياً؛ فيستطيع أن يحفظ بسرعة.

فأعظم هدية يقدمها الأب إلى ولده أن يؤدبه بأن يحفظه القرآن الكريم، ويشغله بالقرآن بقدر استطاعته، ولا يشتت عليه نفسه إذا كان قد انتدب نفسه لهذه المهمة العظيمة.

(18/5)

_____

شرف حفظ القرآن الكريم

حفظ القرآن شرف ليس بعده شرف، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين)، يعني: بإيمانهم.

فمن أعظم الشرف أن يجعل الله سبحانه وتعالى صدرك مستودعاً لكلامه، وإذا نلت حفظ القرآن الكريم فهذا أعظم من مليون شهادة دكتوراه؛ لأن هذا هو الشرف الحقيقي، وهذا هو الذي ينفعك في الدنيا، وينفعك في قبرك، وينفعك في الآخرة، يكفي أن تتخيل أن الملائكة يوم القيامة تضعك أمام اختبار، كما قال صلى الله عليه وسلم: (يقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارتق، ورتل، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها)، أو كما قال صلى الله عليه وآله وسلم.

فإذا نلت حفظ القرآن الكريم فهذا أعظم من ملايين شهادات الدكتوراه، وهذا أعظم من ملايين الدولارات والجنيهات والذهب، وأنت ستكون أغنى خلق الله سبحانه وتعالى بالقرآن الكريم؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: (من لم يتغن بالقرآن فليس منا)؛ لأن القرآن فيه الغنى كل الغنى، ولذلك نجد الشريعة الشريفة قد وضعت أحكاماً خاصة لحفظة القرآن تميزهم بها عمن عداهم، فمثلاً: الإمارة تكون لمن هو أحفظ، ولما استعرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم مجموعة من الشباب كان فيهم رجل يحفظ سورة البقرة، وكان الآخرون يحفظون مما عداها، فجعله أميراً عليهم. أي: أنه قدمه عليهم لحفظه سورة البقرة.

وهكذا أحق الناس بأشرف الأماكن في الصف الأول حملة كتاب الله؛ ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول: (ليلني منكم أولو الأحلام والنهى)، فيقدم في الإمامة ويقدم في الصف الأول وراء الإمام من هم أكثر حملاً لكتاب الله عز وجل.

حتى عند الدفن يقدم حافظ القرآن الكريم، فإذا وجد أكثر من ميت أو شهيد يدفنون جميعاً فيقدم الأكثر حفظاً للقرآن، ثم الذي يليه.

فالنصيحة المهمة جداً هي: أن يغتنم المسلمون سني الحفظ الذهبية، وهي من خمس سنوات إلى ثلاث وعشرين سنة، ولا ييأس من تجاوز هذا السن، فمن بعد ثلاث وعشرين هناك الفضية والنحاسية وهكذا.

فالفترة الذهبية هي هذه الفترة العظيمة، وكلما كان الحفظ مبكراً كان أعظم وأسهل؛ لأن من يحفظ في الصغر يختلط القرآن بلحمه ودمه، ويثبت في قلبه ثبوتاً عظيماً جداً.

فالطفل قد لا يدرك مصلحته، لكن الأب مهمته أن يقيه النار، وأن يسهل له طاعة الله سبحانه وتعالى، وأن يحسن تربيته، وينبغي أن يجعل هذا الهدف هو الهدف الأساس والرئيس في خططه في تربية أولاده، فإذا وجد الطفل النابغة الذي عنده القدرة على الحفظ فينبغي الاهتمام به، وهذه القدرة موجودة عموماً في الأطفال، لكن هناك أطفالاً يتميزون، فخسارة كبيرة جداً أن نشغلهم بالأناشيد، فضلاً عن الإعلانات والقصص الكاذبة والأغاني وغير ذلك، وإنما ينبغي أن يصرف الاجتهاد كله إلى تحفيظهم كلام الله تبارك وتعالى.

(18/6)

منهجية العلماء في طلب العلم

من النتوءات التي أشرنا إليها: محاولة القفز فوق السلم في طلب العلم، ونجد كثيراً من الإخوة يشتغلون بعلم الحديث، وبأشياء هي من فروض الكفايات في علم الحديث، مثل العلل والرجال والأسانيد وكذا وكذا، وينفقون أوقاتاً طويلة جداً في ذلك، وهم قد يلحنون في كلام الله، أو قد يهملون حفظ كتاب الله تبارك وتعالى، ولذلك كانت سنة العلماء إذا أتاهم طالب العلم يطلب الحديث أن يسألوه: هل حفظت القرآن؟ فإن قال: لا، رفضوا أن يحدثوه، ويطرد من المجلس، إلى أن يتم حفظ القرآن ويختبر، ثم بعد ذلك يشرع في تلقي ما عداه من العلوم الشرعية.

فمن المؤلم أن يصير هذا شعار بعض الناس في بعض البلاد ممن ينتسبون للسلفية، فهل هذه هي السلفية؟! فإهمال كلام الله عز وجل، وإشغال الشباب بما عدا كلام الله عز وجل ليس من السلفية في شيء، ونحن لا نقول: إنك تهجر العلوم الأخرى، لكن ممكن أن الإنسان يترفق إذا أراد أن ينجز هذا الهدف، فينبغي أن يفرغ ذهنه وقلبه لهذه المهمة، وإذا تشتت فلن ينجز الهدف بالصورة المطلوبة، لكن عليه أن يركز في هذا الهدف ليل نهار إلى أن يوفقه الله سبحانه وتعالى، فإذا فتح له حفظ القرآن فسوف يفتح له كل باب من أبواب الخير بإذن الله تبارك وتعالى.

فالاشتغال بعلوم الحديث والأسانيد من فروض الكفايات، ويوجد الآن من العلماء -ولله الحمد- من هم أعظم باعاً من إخواننا طلبة العلم وقد أنجزوا كثيراً من الإنجازات في هذا المجال، فلا مانع من الاهتمام بهذه العلوم، لكن بشرط ألا تشغل عن القرآن، فإذا كان ما زال هناك نقص في القرآن فاشتغل أولاً بالقرآن الكريم، ثم إذا فرغت بعد ذلك فلك أن تتحول إلى غيره.
(18/7)

_____

التحذير من هجر القرآن الكريم

ولقد حذر الله سبحانه وتعالى من هجر القرآن، فقال عز وجل: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان:30]، فقد هجر الكثير كلام الله سبحانه وتعالى، حتى إن المصحف لتتراكم عليه أكوام الأتربة، أو ربما ينفضها لكن لمجرد الزينة في البيت أو السيارة، وكل حياتنا أصبحت مضادة لكتاب الله سبحانه وتعالى.

فهذا هو هجر القرآن، وهؤلاء هم الذين يشكوهم رسول الله إلى ربه عز وجل: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان:30]، يعني: متروكاً معرضاً عنه.

وهذه الآية وإن كانت أصالة في المشركين -وإعراض المشركين هو عدم إيمانهم بكلام الله- إلا أن نظمها الكريم مما يرهب عموم المعرضين عن العمل بالقرآن والأخذ بآدابه، الذي هو حقيقة الهجر؛ لأن الناس إنما تعبدوا منه بذلك، ولا تؤثر تلاوته إلا لمن تدبرها، ولا يتدبرها إلا من يقوم بها ويتمسك بأحكامها.
(18/8)

_____

أنواع هجر القرآن الكريم

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه المبارك (الفوائد) حينما كان يتكلم عن هذه الآية في سورة الفرقان أنواع الهجر فقال: هجر القرآن أنواع: أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

الثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

الثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته ظنية لا يحصل بها العلم.

الرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

الخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به.

وهذه بلا شك من أعم المصائب الآن، فنحن لا ننتبه إلى أن كل ما فينا من أمراض -خاصة الأمراض القلبية- إنما دواؤها في القرآن الكريم، كما قال عز وجل: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء:82]، فكأننا لا نوقن بهذا الكلام، فنحن نتلوه لكن لا نتدبره، ونطلب الشفاء في غير كلام الله سبحانه وتعالى.

ونجد كثيراً من الناس يدعون الشباب -مثلاً- إلى قراءة (إحياء علوم الدين) أو كتب الصوفية أو كذا وكذا، ويشغلونهم بهذا، مع أن الدواء الناجع لقلوب المؤمنين هو الاشتغال بكلام الله عز وجل، وأصبح حالنا كحال الشاعر الذي قال: كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول بل حالنا أسوأ من حال العيس؛ لأن العيس -وهي: الجمال أو النوق- التي تحمل الماء فوق ظهورها ويكاد يقتلها الظمأ قد لا تعرف أن الذي فوق ظهرها ماء، وإذا عرفت فقد لا تستطيع أن تصل إليه، لكننا نحن نعرف أن دواءنا في القرآن الكريم، وأن شفاء قلوبنا في كلام الله عز وجل، فبالتالي نكون أسوأ حالاً من العيس التي يقتلها الظمأ في البيداء والماء فوق ظهورها محمول.

فكل من أراد أن يداوي قلبه فعليه أن يقبل على القرآن؛ فإن القرآن الكريم هو الذي يعالج ما في قلبه من الأمراض والشهوات والأدواء.

فيقول ابن القيم: النوع الخامس من هجر القرآن الكريم: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به.

قال ابن القيم: وكل هذا داخل في الآية، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.
وفي الإكليل يقول السيوطي: إن في الآية إشارة إلى التحذير من هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه.
وقال أبو السعود في قوله تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان:30]: فيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن؛ كي لا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم.
ثم قال: وفيه من التحذير ما لا يخفى، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب ولم ينظروا.

_____

وجوب إعطاء القرآن الكريم الأولوية المطلقة في طلب العلم

نعيد التنبيه على وجوب إعطاء القرآن الأولوية المطلقة في طلب العلم، حتى لو كان الإنسان قد كبر في السن؛ لأن كل حرف من القرآن تقرؤه فأنت تتعبد بتلاوته، فحفظ القرآن ليس كحفظ غيره من العلوم، فهل الثواب الذي تناله من حفظ القرآن مثل الثواب الذي تناله من حفظ متن في الفقه أو الأصول أو منظومة في النحو أو غيرها من العلوم؟ فلا شك أن حفظ القرآن له المزايا العظيمة؛ لأنه كلام الله سبحانه وتعالى، وكل هذه الفضائل لا يمكن تحصيلها من غير كلام الله عز وجل، فلا ينبغي أبداً أن ينشغل الإنسان بالمفضول عن هذا الفاضل.

وقد روى ابن المديني عن عبد الوهاب بن همام عن ابن جريج قال: أتيت عطاء وأنا أريد هذا الشأن - أي: الحديث والعلم- وعنده عبد الله بن عبيد بن عمير، فقال لي ابن عمير: قرأت القرآن -يعني: حفظت القرآن-؟ قلت: لا، قال: اذهب فاقرأه، ثم اطلب العلم، فذهبت زماناً حتى قرأت القرآن، ثم جئت عطاء وعنده عبد الله، فقال: قرأت الفريضة؟ قلت: لا، قال: فتعلم الفريضة ثم اطلب العلم.

والفريضة هي المواريث؛ لأن هذه من العلوم الأساسية التي تكاد تنقرض الآن.

قال: فطلبت الفريضة، ثم جئت، فقال: الآن تطلب العلم.

وقال أبو العيناء: أتيت عبد الله بن داود فقال: ما جاء بك؟ قلت: الحديث -أي: أريد طلب الحديث- قال: اذهب فتحفظ القرآن؟ قلت: قد حفظت القرآن، قال: اقرأ {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ} [يونس:71]، فقرأت العشر حتى أنفذته، فقال لي: اذهب الآن فتعلم الفرائض -المواريث- قلت: قد تعلمت الصلب والجدة والكبر -أي: مسائل الفرائض الكبرى- قال: فأيما أقرب إليك ابن أخيك أو عمك؟ قال هذا ليمتحنه.

قال: قلت: ابن أخي، قال: ولمَ؟ قلت: لأن أخي من أبي وعمي من جدي، قال: اذهب الآن فتعلم العربية، قال: قد علمتها قبل هذين، قال: فلمَ قال: عمر حين طعن (يا لَله وللمسلمين)؟ يعني: فتح اللام الأولى (لله) وكسر اللام الثانية (للمسلمين) قال: لمَ فتح تلك وكسر هذه؟ قلت: فتح تلك اللام -يا لله- على الدعاء، وكسر هذه -للمسلمين- على الاستغاثة؛ لأن المكسورة للاستغاثة والانتصار، فبعد كل ذلك قال: لو حدثت لحدثتك.

يعني: أنه حتى الآن يراه غير أهل للتحديث، لكن يقول: لو كان لي أن أحدث أحداً لاخترتك أنت كي أحدثك، وأبى أن يحدثه أيضاً.

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله تعالى: طلب العلم درجات ورتب لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدى سبيلهم عامداً ضل، ومن تعداه مجتهداً زل.

إذاً: أول العلم حفظ كتاب الله عز وجل وتفهمه، وكل ما يعين على فهمه فواجب طلبه.

ولا نقول إن حفظه كله فرض على كل الناس، ولكن نقول: إن ذلك واجب لازم على من أحب أن يكون عالماً.

فمن حفظه قبل بلوغه ثم فرغ إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب، كان ذلك له عوناً كبيراً على مراده منه ومن سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

_____

حكم نسيان القرآن الكريم

تكلم العلماء في حكم نسيان القرآن الكريم: فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة؛ إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت)، متفق عليه.

فهذه إشارة إلى أهمية تعاهد القرآن بالمراجعة باستمرار، وقوله: (الإبل المعقلة)، أي: المربوطة بالعقال.

قال ابن عبد البر في التمهيد: وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم وعيد شديد فيمن حفظ القرآن ثم نسيه، كل ذلك حض منه على حفظه والقيام به.

وعن سعد بن عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من تعلم القرآن ثم نسيه لقي الله يوم القيامة وهو أجذم)، قال في التمهيد: معناه عندي: منقطع الحجة، والله تعالى أعلم.

وهذا الحديث أحسبه ضعيفاً.

وقال ابن عيينة في معنى حديث سعد بن عبادة هذا وما كان مثله: إن ذلك في ترك القرآن وترك العمل بما فيه، وإن النسيان أريد به ههنا الترك، نحو قوله: {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} [الجاثية:34]، قال: وليس من اشتهى حفظه وتفلت منه بناسٍ له، إذا كان يحل حلاله ويحرم حرامه، قال: ولو كان كذلك ما نسي النبي صلى الله عليه وسلم منه شيئاً، وقد نسي، قال الله عز وجل: {سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} [الأعلى:6 - 7].

والصحابة رضي الله تعالى عنهم -وهم الذين خوطبوا بهذا الخطاب- لم يكن منهم من يحفظ القرآن كله ويكمله على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا قليل منهم، منهم: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد الأنصاري، وعبد الله بن مسعود، وكلهم كان يقف على معانيه ومعاني ما حفظ منه، ويعرف تأويله، ويحفظ أحكامه، وربما عرف العارف منهم أحكاماً من القرآن كثيرة وهو لم يحفظ سورها.

قال حذيفة بن اليمان: (تعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، وسيأتي قوم في آخر الزمان يتعلمون القرآن قبل الإيمان).

فهنا إشارة إلى أن النسيان ليس المقصود به النسيان من حيث الذاكرة، ولكن المقصود به أساساً هجر تطبيق القرآن والعمل به.

ولا خلاف بين العلماء أن تأويل قول الله عز وجل: {يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ} [البقرة:121]، أي: يعملون به حق عمله، ويتبعونه حق اتباعه، قال عكرمة: ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: {وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا} [الشمس:2]، يعني: تبعها، فتلا بمعنى تبع.

فنفهم قوله عز وجل: ((يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ)) بقوله في هذه الآية: {وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا} [الشمس:2]، يعني: اتبعها أو تبعها، فكذلك قوله: ((يَتْلُونَهُ))، يعني: يتبعونه ويطبقونه.

حكم تجويد القرآن الكريم

أما تجويد القرآن فحكم العمل بالتجويد أنه واجب وجوباً عينياً على كل مكلف يحفظ أو يقرأ القرآن أو بعضه.

فكل من يقرأ كلام الله سبحانه وتعالى أو بعضاً منه يجب عليه أن يجود القرآن؛ لأن كلمة القرآن مصدر معناه: القراءة.

فالقرآن الذي يطلق على كلام الله سبحانه وتعالى المعهود هو ما يقرأ بالكيفية التي تلاها جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، فيدخل في حد القرآن الطريقة التي يتلى بها القرآن الكريم، وبناء على هذا يأثم تارك التجويد؛ لقوله سبحانه وتعالى: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [المزمل:4]، وما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرءوا القرآن بلحون العرب).

يقول ابن الجزري: والأخذ بالتجويد حتم لازم من لم يجود القرآن آثم لأنه به الإله أنزلا
وهكذا منه إلينا وصلا وهو أيضاً حلية التلاوة وزينة الأداء والقراءة

حكم تعليم القرآن الكريم

وأما حكم تعليمه: فهو فرض كفاية بالنسبة إلى عامة المسلمين، وفرض عين بالنسبة للعلماء والقراء، ومهما يكن من شيء فإنه يأثم تاركه، ويتعرض لعقاب الله عز وجل.
لذلك كان إقراء القرآن الكريم هو أول ما اهتم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم في إبلاغ دعوته الكبرى، حيث كان أول ما عمد إليه هو الاهتمام بإقراء القرآن الكريم، وقد كان مبعوثوه ورسله صلى الله عليه وسلم إلى مختلف الجهات يقومون أول ما يقومون بإقراء الناس القرآن.
فقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم لـ عمرو بن حزم حين وجهه إلى اليمن كتاباً أمره فيه بأشياء، منها: أن يعلم الناس القرآن، ويفقههم فيه.
وروى البخاري عن أبي إسحاق عن البراء قال: (أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرآننا القرآن حتى كان مصعب يسمى المقرئ).
فـ مصعب وابن أم مكتوم كان كل شغلهم واهتمامهم هو أن يقرئوا أهل المدينة كتاب الله عز وجل.
وكان الرجل من المسلمين إذا هاجر إلى المدينة دفعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل من الحفظة ليعلمه القرآن، ولما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة خلف عليها معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه يقرئهم القرآن ويفقههم.
وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (جاء ناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم القراء).

_____

مظاهر احتفاء الإمة الإسلامية بالقرآن الكريم

لا نستغرب احتفاء هذه الأمة المحمدية بالقرآن الكريم، حيث نقطع بالقول بأنه لا يوجد كتاب على وجه الأرض منذ أن أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لا يمكن أبداً أن يتصور وجود كتاب خدم مثلما خدم القرآن الكريم، أو نال من الاهتمام والاحتفاء والتكريم ما ناله القرآن الكريم.
فليس في الدنيا كتاب وضعت في خدمته مثل هذه الكثرة من المواهب التي وضعت في خدمة القرآن الكريم، ولا مثل هذه الوفرة من العمل والوقت والمال، فقد عني المسلمون بالقرآن عناية لم يظفر بها على مدى التاريخ كله أي كتاب سماوي أو غير سماوي، ولعل من مظاهر هذه العناية هذه الأعداد الضخمة من الكتب الجليلة التي خدمت علوم القرآن منذ أقدم القرون الإسلامية، وهذه البحوث والفنون التي كان القرآن دائماً موضوعها.
فقد عني القراء بضبط لغات القرآن، وتحليل كلماته، ومعرفة مخارج حروفه وعددها، وعدد كلماته وآياته، وسوره وأحزابه، وأنصافه وأرباعه، وعدد سجداته، وحصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة.
واشتغل النحاة بالمعرب منه من الأسماء والأفعال، وبيان الحروف العاملة وغيرها، وتكلموا في الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم والمتعدي، ورسوم خط الكلمات، وتوسعوا في شواهده، حتى لقد أحصوا منها فيما قيل: ثلاثمائة ألف بيت من الشعر.
يقول مصطفى صادق الرافعي تعقيباً على هذا: ولعمر أبيك إنها لمعجزة في فنها. وبلغ من عناية بعضهم بالقرآن أن أعربه كلمة كلمة.
والتفت المفسرون إلى ألفاظه ومعانيه فأوضحوا الخفي منها، وخاضوا في ترجيح المعاني التي يختارونها للألفاظ.
وقد ذكر حاجي خليفة من تفاسير القرآن وكتب معانيه ومشكله ومجازه وغريبه ولغاته وقراءاته، ذكر من هذا بعض ما عرف في زمانه، فبلغ ما ذكره مئات كثيرة، فما بالك بما يبلغ في زماننا الآن من الدراسات التي خدمت كتاب الله عز وجل؟! واتجه الأصوليون إلى القرآن يستنبطون مما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية وعلم أصول الدين، كما يستنبطون منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز،

والتخصيص والإخبار، والنص والظاهر، والمحتمل والمحكم والمتشابه، والأمر والنهي، والنسخ إلى غير ذلك من الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء.
وتخصص علماء الفروع في إحكام النظر والفكر فيما في القرآن من الحلال والحرام وسائر الأحكام.
وأخذ أهل التاريخ والقصص من معين القرآن تاريخ الأمم الخالية، وقصص القرون السالفة.
واعتمد الخطباء والوعاظ في وعظهم على ما في القرآن الكريم من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت، والميعاد والحشر، والحساب والعقاب، والجنة والنار.
كما استخرج أصحاب علم المواقيت قواعد علمهم من آيات القرآن الكريم.
كذلك استنبط البلاغيون علوم المعاني والبديع والبيان من نظرهم إلى ما في القرآن من جزالة اللفظ، وبديع النظم، وحسن السياق، والمبادئ والمقاطع، والتلوين في الخطاب، والإطناب والإيجاز، وغير ذلك.
ومن معاني القرآن ودقائقه أخذ المتكلمون في الجوانب الروحانية مصطلحات فنهم، وقبسوا أنوار تاريخهم.
وخلاصة الكلام: أن القرآن الكريم حظي من الاهتمام ما يقطع بأنه لم ينله على الإطلاق أي كتاب في هذا الوجود، والحمد لله رب العالمين.
(18/14)

_____

فضل تعلم القرآن الكريم وتعليمه

لقد جاءت عدة نصوص في السنة الشريفة في فضل تعليم القرآن الكريم وتعلمه، فقد ثبت عن أبي مسعود الأنصاري البدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى)، رواه مسلم، وقوله: (أقرؤهم) يعني: أحفظهم لكتاب الله تعالى.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان القراء -الحفاظ- أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً) رواه البخاري في صحيحه.
فكان عمر يجعل مجلس شوراه وأصحاب شوراه هم القراء بغض النظر عن سنهم، فما دام أنهم قد حفظوا القرآن فقد استحقوا أن يكونوا في مجلس شورى عمر رضي الله تعالى عنه.
يقول الإمام النووي: واعلم أن المذهب الصحيح المختار الذي عليه من يعتمد من العلماء: أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار.
أي: لأن القرآن كلام الله، وأحسن الكلام هو كلام الله.
وأيضاً ذكرنا في صدر الكلام حديث عثمان رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)، والذي روى هذا الحديث عن عثمان هو أبو عبد الرحمن السلمي، فكان يروي هذا الحديث ثم يقول: فذلك الذي أقعدني مقعدي هذا.
وكان يعلم من خلافة عثمان إلى إمرة الحجاج.
أي: كان طوال هذه الفترة يجلس ليحفظ الناس القرآن الكريم، فمن أجل هذا الحديث قعد أبو عبد الرحمن السلمي أربعين سنة يقرئ الناس بجامع الكوفة، مع جلالة قدره وسعة علمه.
وقد سئل سفيان الثوري عن الجهاد وتعليم القرآن أيهما أفضل؟ فرجح الثاني؛ مستدلاً بهذا الحديث: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).
وعن مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيركم من تعلم القرآن وعلم) يقول: وأخذ بيدي، وأقعدني في مجلس أقرئ، يعني: أحفظ الناس؛ حيث إن هذه الوظيفة هي أشرف الوظائف.
وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: (خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في المسجد فقال: أيكم يحب أن يغدو إلى بطحان والعقيق فيأتي كل يوم بناقتين كوماوين زهراوين فيأخذهما بغير إثم ولا قطع رحم؟ فقلنا: كلنا يا رسول الله يحب ذلك، قال: لأن يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله تعالى خير له

من ناقتين، وثلاث خير من ثلاث، وأربع خير من أربع، ومن أعدادهن من الإبل)، يعني: أن تعلم آية والاشتغال بحفظها أفضل من ناقة بهذه الصفة المذكورة.

وقال عليه الصلاة والسلام: (أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد ثلاث خلفات عظام سمان؟)، خلفات: جمع خلفة، وهي: الحامل من النوق، وخص الحامل من النوق لأنها ستأتي بذرية أيضاً، وليست فقط ناقة بمفردها لكن بذريتها، قال عليه الصلاة والسلام: (أيكم يحب إذا رجع إلى أهله أن يجد ثلاث خلفات عظام سمان؟ فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان).

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)، والنفي والاستثناء يدل على الحصر والتوكيد لهذه الفضيلة؛ فمن كان يؤمن أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى فليوقن بهذا الثواب العظيم؛ إذ لا يمكن أن يقول هذا إلا ويقع هذا الشيء حتى لو لم نحس به، لأن الذي أخبرنا به هو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى.

فالإنسان عليه ألا يذهب إلى مجالس تعلم وحفظ القرآن إلا ويستحضر هذا الأمر الذي يحدوه ويعينه على الجلوس والتعلم، فالإنسان إذا استحضر هذا الثواب وهذه الفضيلة فإنه بلا شك يكون عنده طاقة تعينه على الثبات والاستمرار.

قال صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)، فهل الإنسان العاقل بعدما يسمع مثل هذا الحديث الشريف يعرض عن الجلوس في بيت الله سبحانه وتعالى ليتدارس القرآن الكريم، وينال هذا الثواب العظيم، وهذه الفضائل التي لا تكاد تحصى، ويجلس أمام التلفزيون أو الفيديو أو غير ذلك من أجهزة الفساد؟! هل الإنسان الذي عنده عقل وإيمان ويقين بوعد الله سبحانه وتعالى ووعيده يعرض عن مجالس الذكر وفيها كل هذا الخير العظيم، ويجلس حيث شياطين الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، ويقطعون الطريق إلى الله على خلق الله؟! وعن هارون بن عنترة عن أبيه قال: قلت لـ ابن عباس: أي العمل أفضل؟ قال: (ذكر الله أكبر) يعني: أن أفضل شيء هو الذكر، قال ابن عباس: (ذكر الله أكبر، وما جلس قوم في بيت من بيوت الله عز وجل يتدارسون كتاب الله ويتعاطونه بينهم إلا أظلتهم الملائكة بأجنحتها، وكانوا أضياف الله ما داموا فيه، حتى يخوضوا في حديث غيره) أي: إذا خرجوا عن القرآن إلى غيره لا تبقى لهم هذه الفضيلة الموعودة في هذا الأثر.

وذكر الخطيب البغدادي: أن أحد العلماء توفي، فرئي في المنام، فقالوا: ما فعل الله بك؟ فقال: ذهبت تلك الشطحات وذهبت تلك العلوم -يعني: علوم الدنيا- وبقيت لنا سورة الفاتحة كنا نعلمها عجائز في قريتنا نفع الله بها.

فإذا كان هذا بتحفيظ الفاتحة فحسب، فكيف بمن يكون سبباً في تحفيظ الناس كلام الله سبحانه وتعالى؟!

أهمية الاعتناء بكتاب الله عز وجل وتقديمه على غيره

هناك لفتة مهمة جداً يلحظها من أمعن النظر في سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وشيخ الإسلام هو من هو! ومع ذلك لما حبس في سجنه الأخير وخلا بربه سبحانه وتعالى، وبدأ يشتغل بالقرآن الكريم ويستخلص فوائد وعبر وكنوز القرآن الكريم، أبدى شيخ الإسلام في بعض تصريحاته ندماً على ما أنفق من عمره السابق في غير التأمل في كتاب الله، وقال: إنه لو كان فعل ذلك واشتغل بالقرآن عما عداه لأخرج إلى الأمة كنوزاً من العلم، ومن فوائد القرآن العظيم، أو كما قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

فالشاهد أن شيخ الإسلام في أيامه الأخيرة بدا منه بعض التأسف على عدم الاشتغال بالقرآن الكريم.

وشيخ الإسلام كانت له أوراد، وكان يكتب في علوم القرآن كثيراً بلا شك، وشيخ الإسلام أصلاً كان في موقع المجاهد والمدافع أمام أهل البدع والضلال، ومع ذلك لما خلا بالقرآن وأمعن النظر فيه، وتوثقت صلته أكثر وأكثر بالقرآن الكريم في سجنه صرح بهذا التصريح.

فبلا شك أن في هذا عبرة لمن ما زال لديهم فرصة والعمر فيه متسع ألا يقدموا على القرآن غيره، فأي شيء يشغلك عن القرآن فهو شؤم ما لم يتعين عليك، فما دام أن الأمر خارج حدود الفروض العينية فحذار أن تشتغل بغير القرآن الكريم.

_____

وجوب تعظيم القرآن الكريم وتنزيهه

يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى وهو يذكر بعض مظاهر تعظيم القرآن الكريم وتنزيهه: أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنزيهه وصيانته، وأن من جحد منه حرفاً مما أجمع عليه أو زاد حرفاً لم يقرأ به أحد وهو عالم بذلك فهو كافر.

قال الإمام الحافظ أبو الفضل القاضي عياض رحمه الله: اعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه، أو سبهما، أو جحد حرفاً منه، أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر، أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته وهو عالم بذلك، أو يشك في شيء من ذلك فهو كافر بإجماع المسلمين.

وقال النووي أيضاً: أجمع المسلمون على وجوب صيانة المصحف واحترامه، قال أصحابنا وغيرهم: ولو ألقاه مسلم في القاذورات -والعياذ بالله تعالى- صار الملقي كافراً.

قال: ويحرم توسده -أي: يحرم أنه يستعمل القرآن كوسادة- بل توسد آحاد كتب العلم حرام.

فلا يجوز أن يستعمله كوسادة، ولا نقبل أبداً من أحد من المتنطعين أو المتفيهقين الذي يقول لك: ما الدليل؟ فالدليل هو إجماع المسلمين على وجوب تعظيم القرآن، وهل من تعظيم القرآن أنك تتخذه وسادة أو متكأ تتكئ عليه والعياذ بالله؟! فالتنطع بأن يقال: ما الدليل في مثل هذا؟ وهذا أيضاً من النتوءات الشاذة، فلا يجوز أن يستعمل القرآن كمخدة أو وسادة أو يتكئ عليه، فهذا بلا شك من سوء الأدب مع كتاب الله تبارك وتعالى.

ويقول النووي: وروينا في مسند الدارمي بإسناد صحيح عن ابن أبي مليكة: أن عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه كان يضع المصحف على وجهه ويقول: (كتاب ربي، كتاب ربي).

_____

حكم السفر بالقرآن إلى أرض العدو

وأيضاً من مظاهر احترام القرآن الكريم وحماية القرآن الكريم: أنه يحرم أن يسافر به إلى أرض العدو إذا خيف وقوعه في أيديهم، كما في الحديث المشهور في الصحيحين: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو)، فلا يذهب بالقرآن إلى بلاد الحرب حيث الكفار؛ إذ لا يؤمن أن يهينوا القرآن الكريم.

_____

حكم مس المجنون والصبي للمصحف

يمنع المجنون والصبي الذي لا يميز من مس المصحف مخافة من انتهاك حرمته، فالصبي الذي لا يميز لا يستطيع أن يعرف ما معنى احترام المصحف وتقديسه، فالصبي الصغير الذي عمره سنتان أو ثلاث أو أربع لا يستطيع أن يميز، فلا يمكن من مس المصحف؛ خشية أن يهين المصحف أو لا يصونه.

وكذلك لو كان كبيراً لكنه مجنون؛ فإنه أيضاً لا يمكن من إمساك المصحف؛ كي لا يهين القرآن أو ينتهك حرمته، وهذا المنع واجب على الولي وغيره ممن رآه يتعرض لحمله.

_____
من آداب قراءة القرآن
مما يعتنى ويتأكد الأمر به: احترام القرآن من أمور قد يتساهل بعض الغافلين القارئين المجتمعين بها، فمن ذلك: اجتناب الضحك واللغط والحديث في خلال القراءة إلا كلاماً يضطر إليه، وليمتثل قول الله تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف:204].
وليقتدي بما رواه ابن أبي داود عن ابن عمر رضي الله عنهما: (أنه كان إذا قرأ القرآن لا يتكلم حتى يفرغ منه)، ذكره في كتاب التفسير عند قوله تعالى: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ} [البقرة:223].
ومن ذلك: العبث باليد، فالإنسان لا يعبث ولا يتحرك كثيراً وهو يتلو كلام الله سبحانه وتعالى؛ فإنه يناجي ربه سبحانه وتعالى، فلا يعبث بين يديه.
ومن ذلك: النظر إلى ما يلهي ويبدد الذهن، وأقبح من هذا كله: النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه، كالأمرد وغيره.
(18/20)

_____
حكم كتابة القرآن في الثياب والحيطان والحروز
ويقول الإمام النووي رحمه الله: مذهبنا أنه يكره نقش الحيطان والثياب بالقرآن وبأسماء الله تعالى، قال عطاء: لا بأس بكتب القرآن في قبلة المسجد.
وأما كتابة الحروز من القرآن فقال مالك: لا بأس به إذا كان في شمع أو جلد وخرز عليه.
وهذه طبعاً قضايا فيها خلاف، لكن الأولى ترك هذه الأشياء؛ لأنه قد يكون محدثاً، أو تكون المرأة حائضاً وغير ذلك.
ولا تجوز كتابة القرآن بشيء نجس، وتكره كتابته على الجدران عندنا.
أي: عند الشافعية.
(18/21)

_____
تحريم الجدل في القرآن الكريم
ويحرم المراء في القرآن والجدال فيه بغير حق، فيحرم على الإنسان أن يماري ويجادل في كلام الله سبحانه وتعالى؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: (المراء في القرآن كفر)، والمراء هو: الجدل، كضرب الآيات بعضها ببعض.
ونحو ذلك.
وينبغي لمن أراد السؤال عن تقديم آية على آية في المصحف أو مناسبة هذه الآية في هذا الموضع أو نحو ذلك، أن يقول: ما الحكمة في كذا؟ لا يقول: لماذا؟ لكن يقول: ما الحكمة؟ تأدباً مع القرآن الكريم.
(18/22)

_____
فضل الماهر بالقرآن الكريم
أما فضيلة الماهر بالقرآن الكريم، فقد قال الله سبحانه وتعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة:121]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الماهر بالقرآن -أي: الذي يحفظ القرآن جيداً -مع السفرة الكرام البررة -الملائكة- والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران)، رواه مسلم.
فلا ينبغي لك أن تعرض عن قراءة القرآن حتى لو كنت تجد مشقة في التلاوة وتتعتع فيه، فاقرأ فإن لك أيضاً أجرين.
يقول الشاطبي رحمه الله: فيا أيها القاري له متمسكاً مجلاً له في كل حال مبجلا هنيئاً مريئاً والداك عليهما ملابس أنوار من التاج والحلا فما ظنكم بالنجل عند جزائه أولئك أهل الله والصفوة الملا أولو البر والإحسان والصبر والتقى حلاهم بها جاء القران مفصلا عليك بها ما عشت فيها منافساً ويع نفسك الدنيا بأنفاسها العلا فهو يحث هنا على حفظ القرآن الكريم، والحقيقة هو يبني كلامه هنا على حديث رواه أبو داود

والحاكم وفيه: (من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم، فما ظنكم بالذي عمل هذا؟) فهو بنى هذه الفقرة على هذا الحديث، وهو حديث ضعيف، ومعناه: أن أباه وأمه يثابان إذا حفظ الابن القرآن: (ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوء هذا التاج أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم، فما ظنكم بالذي عمل هذا؟)، أي: إن كان هذا هو ثواب أبويه لفعل عمله ابنهما، فكيف بثواب الابن الذي حفظ وعمل بنفسه؟ فمن ثمَّ يقول الشاطبي: فيا أيها القاري له متمسكاً مجلاً له في كل حال مبجلا هنيئاً مريئاً والداك عليهما ملابس أنوار من التاج والحلا فما ظنكم بالنجل عند جزائه أولئك أهل الله والصفوة الملا فالنجل هو ابنهما، وهؤلاء هم الملأ، وهؤلاء هم الناس، وهؤلاء هم الصفوة، بل هؤلاء هم أهل الله، كما صح في الحديث: (إن أهل القرآن هم أهل الله تعالى وخاصته).

_____

أهمية تعهد القرآن الكريم والتحذير من نسيانه

نعيد التذكير أيضاً بقضية تعاهد القرآن؛ كي لا ينساه الإنسان، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تعاهدوا هذا القرآن؛ فوالذي نفس محمد بيده! لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها)، متفق عليه.

ولا تعارض بين قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: (تعاهدوا هذا القرآن؛ فوالذي نفس محمد بيده! له أشد تفلتاً من الإبل في عقلها)، وبين قوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر:17]؛ فإن من يسر عليه الوصول إلى جوهرة غالية فإنه لا يضمن بقاءها معه وسلامتها من قطاع الطريق إلا أن يتخذ لذلك أسباباً، فلا يوجد تعارض؛ لأن وصوله إلى حفظ القرآن من الأمور السهلة، كما قال عز وجل: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر:17].

وآية ذلك: أنك ترى الطفل الصغير الحدث الذي عمره سبع أو خمس سنوات قد حفظ القرآن كله، فهذه آية من آيات الله، فإن قلب الطفل الصغير يطيق حمل كلام الله عز وجل الذي لا تطيق حمله الجبال التي قال عز وجل عنها: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر:21].

فييسر الله سبحانه وتعالى للطفل الصغير حفظ كلامه بين جنبيه، فهذه آية من آيات الله، وهي مصداق قوله: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر:17]، فالذي يصل إلى إنجاز هذا الأمر -وهو حفظ القرآن الكريم- هو كمن سهل الله عليه أن يحصل على جوهرة نفيسة، وسهل الله له السبيل إلى الحصول على الجوهرة، فسلك هذا السبيل السهل، وحصل بالفعل على الجوهرة، فهل إذا حصل على الجوهرة يضمن بقاءها معه، ويضمن سلامتها معه، حتى ولو قصر في أخذ أسباب حفظها وصيانتها؟ فقوله تعالى: ((وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ))، هو تيسير السبيل لحصول حفظ القرآن؛ فإن حفظه سهل، لكن إذا حصلت عليه، واستنار به صدرك فيبقى عليك أن تحافظ على هذه الجوهرة وتحتاط لها، لا أن تتركها معرضة للضياع، ومعرضة لقطاع الطريق يسرقونها منك.

فلابد من الأخذ بالأسباب التي بها تحافظ على هذا الكنز الذي يسر الله لك الحصول عليه، فما هو السبيل للمحافظة على القرآن؟ هو تعهد القرآن، وكثرة المراجعة والتلاوة.

يقول صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا قام صاحب القرآن فقرأ بالليل والنهار ذكره، وإن لم يقم به نسيه)، فهذا هو الداء، وهذا هو الدواء، يقول عليه الصلاة والسلام: (إذا قام صاحب القرآن فقرأ بالليل والنهار ذكره) أي: إذا واظب عليه بالليل والنهار فإنه يذكره: (وإن لم يقم به نسيه).

وهناك حديث مشهور عند عوام الناس بدعاء حفظ القرآن، وأنه إذا كان قد تفلت منك القرآن فقل هذا الدعاء، ولن يتفلت منك القرآن، وطبعاً نحن لا ننكر أن الدعاء سبب من أسباب الحصول على هذه المقاصد العالية، لكن السبب لابد معه من عمل، والعمل ينبغي أن يقترن بالدعاء، والدواء الذي وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام هو التعاهد، أما أنك تقول: أنا سوف أقول دعاء حفظ القرآن -مع أنه حديث ضعيف

وباطل- أو دعاءً معيناً وسوف يثبت القرآن في صدري، فلا، بل لابد من الأخذ بأسباب حفظه وتعهده وحمايته من أن ينسى.
وقال السيوطي: يكره أن يقول: نسيت آية كذا، بل أنسيت.
وهذا فيه حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يقل أحدكم: نسيت آية كذا، بل هو نسي).
وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة؛ إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت)، فإذا كان إنسان عنده مجموعة كبيرة من الجمال في الصحراء فإن هو تركها بدون خطام ولا زمام ولا إمساك ستضل في الصحراء وتتوه منه وتضيع، وإن هو حرسها وحفظها واحتاط لها فإنها تبقى معه، وهكذا نفس الشيء بالنسبة للقرآن.
فهذا هو داء النسيان وهذا هو دواءه الذي يصفه رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلا يأت واحد ويقول: إن علاج نسيان القرآن هو أن تقول دعاء حفظ القرآن؛ فإنه حديث باطل لم يصح عن النبي عليه الصلاة والسلام، لكن نقول: عليك أن تستعين بالدعاء؛ لأن الدعاء هو الوسيلة التي بها تنال كل مقاصد الدنيا والآخرة، (وأعجز الناس من عجز عن الدعاء)، لكن لا تدعو وتقصر في الأسباب، فالدعاء سبب، وهناك أيضاً سبب آخر ذكره النبي صلى الله عليه وسلم وهو: تعاهد القرآن بالمراجعة، وبالختم وبالحفظ المستمر، ففي هذا الحديث الإخبار بأن القرآن يذهب عن صاحبه وينساه إلا من يتعاهد عليه ويقرأه ويدمن تلاوته.
وذكر ابن عبد البر حديثاً رواه سعد بن عبادة وهو الحديث السابق الذكر عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (من تعلم القرآن ثم نسيه لقي الله يوم القيامة وهو أجذم)، رواه الدارمي، وقال الإمام ابن عبد البر: معنى أجذم عندي: منقطع الحجة.
أي: يلقى الله سبحانه وتعالى ولا حجة له.
وإن كان بعض العلماء قالوا: إن المقصود بالنسيان هو ترك التطبيق، وترك العمل بكلام الله سبحانه وتعالى.

من عوامل حفظ القرآن الكريم تطهير الباطن

وهنا تنبيه مهم جداً وهو: أن تطهير الباطن يعين على حفظ القرآن الكريم، فأحد أسباب تفسير حفظ القرآن أن يطهر الإنسان باطنه، ويطهر قلبه، ويصفي نيته؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: {لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة:79]، يعني: الملائكة، وقيل: إن قوله سبحانه: {لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة:79]، يعني: من المؤمنين، فلا يجوز مسه لمن كان به حدث مثلاً، بدليل قوله: ((تَنزِيلٌ))، فهو وصف بأنه تنزيل من رب العالمين، فاستأنسوا بكلمة (تنزيل) أن المقصود به: القرآن الذي أنزل.
يقول ابن القيم: ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدعة والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي.
قال البخاري في الصحيح في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به.
وهذا أيضاً من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتزم به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله تكلم به حقاً، فأنزله على رسوله وحياً، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه، فمن لم يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى تكلم به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته ففي قلبه منه حرج.
ومن قال: إن له باطن يخالف ظاهره، وتأويل يخالف ما يفهم منه، ففي قلبه منه حرج.
ومن قال: إن له تأويل لا نفهمه ولا نعلمه وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه ففي قلبه منه حرج.
ومن سلط عليه آراء الآرائيين وهذيان المتكلمين، وسفسطة المسفسطين، وخيالات المتصوفين ففي قلبه منه حرج.
ومن جعله تابعاً لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه؛ ينزله على أقواله ويتكلف حمله عليها ففي قلبه منه حرج.

ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه، وينقاد لحكمه أين كان ففي قلبه منه حرج.
ومن لم يأتمر بأوامره، وينزجر عن زواجره، ويصدق جميع أخباره، ويحكم أمره ونهيه وخبره، ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه ففي قلبه منه حرج.
وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم.
(18/25)

_____

فضل حملة القرآن الكريم

ثبت في النصوص الكثيرة ما يبين فضيلة حملة القرآن الكريم، فمن ذلك: أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى بإكرام أهل القرآن، وسماهم اسماً ينبض بأعظم المعاني، ولقبهم بلقب في الحقيقة لا يمكن أن يناله أشرف ملوك ورؤساء وحكام الدنيا كلها منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ إذ سماهم صلى الله عليه وسلم: أهل الله وخاصته، فهؤلاء حملة القرآن هم خاصة الله عز وجل، وجعل صلى الله عليه وسلم من إكرام الله إكرام حملة كتابه عز وجل.
فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لله أهلين، قيل: من هم يا رسول الله؟! قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته)، أي: الذين يختصهم من بين سائر عباده.
وروي عن أم الدرداء أنها قالت: سئلت عائشة رضي الله تعالى عنها عمن دخل الجنة ممن قرأ القرآن ما فضله على من لم يقرأه؟ يعني: إذا افترضنا أن رجلين من المؤمنين كلاهما يدخل الجنة، لكن منهم من لم يحفظ القرآن وآخر حفظ القرآن الكريم، فما فضل من قرأ على من لم يقرأه إذا دخلا جميعاً الجنة؟ فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: (إن عدد درج الجنة بعدد آي القرآن، فمن دخل الجنة ممن قرأ القرآن فليس فوقه أحد)، أي أنه وصل إلى الرتبة العليا من الجنة.
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال: (من جمع القرآن فقد حمل أمراً عظيماً).
(18/26)

_____

الأسئلة

(18/27)

_____

ذكر بعض فضائل الصيام وحكم صيام شهر رجب

السؤال

اذكر لنا بعض فضائل الصيام، وما حكم صيام شهر رجب؟

الجواب

عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من صام يوماً في سبيل الله جعل الله بينه وبين النار خندقاً كما بين السماء والأرض) الحديث رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، ووافقه الألباني.
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً) متفق عليه.
وقد ثبتت أدلة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على استحباب التطوع بالصيام، وعلى فضيلة الصيام، فقد قال الله تعالى: {وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب:35]، وقال تبارك وتعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة:24].
قال مجاهد وغيره: نزلت في الصوام.

يعني: كما أظمأتم وجوعتم أنفسكم في الدنيا بكثرة الصيام، فكذلك يوم القيامة تجازون بجنس أعمالكم: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة: 24].

ومن هذه الأحاديث أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: (الصيام جنة وحصن حصين من النار).

ومنها قول حذيفة رضي الله تعالى عنه: (أسندت النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدري، فقال: يا حذيفة! من ختم له بصيام يوم دخل الجنة).

وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: مرني بأمر ينفعني الله به، قال: عليك بالصوم، فإنه لا مثل له) فكان أبو أمامة وأهله يصومون، فإذا رئي في بيتهم دخان بالنهار، علم أنه قد نزل بهم الضيف، وأنه ما كان هذا الدخان ليصدر من طعام يعد لأهل البيت أنفسهم، وإنما طعام يعد لضيف طرأ عليهم، أما هم فكانوا يسردون الصيام فرضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وقال صلى الله عليه وسلم: (إن للجنة باباً يقال له: الريان، يقال يوم القيامة: أين الصائمون؟ فإذا دخل آخرهم أغلق ذلك الباب).

وثبت أيضاً في حديث أبي هريرة مرفوعاً: (ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين).

وقال بعض السلف: إنما هو غداء وعشاء -يعني: أن الموضوع موضوع غداء وعشاء- فإذا أخرت غداءك إلى عشائك أمسيت وقد كتبت في ديوان الصائمين.

يعني: أنه بمجرد أن تؤخر الغداء إلى وقت العشاء تمسي وقد كتبت في ديوان الصائمين، وحزت هذه الفضائل العظيمة، فما أسهل ذلك على من علت همته في التسابق في الخيرات، وقد قال تبارك وتعالى: (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه) إلى آخر الحديث، ويقول بعض العلماء: من يرد ملك الجنان فليذر عنه التواني وليقم في ظلمة الليل إلى نور القران وليصل صوماً بصوم إن هذا العيش فاني إنما العيش جوار الله في دار الأمان فإذا كان قد ورد عن بعض السلف أن الشتاء هو الغنيمة الباردة، فهذه فعلاً حقيقة نحن نلمسها في أيام الشتاء، فلا يكاد إنسان يحس بالساعات وهي تجري وتطوى بسرعة، بحيث إن الإنسان يفاجأ بالغروب، وأنه قريب جداً من الصباح، فمن ثم قالوا: إن الشتاء هو الغنيمة الباردة، أي: الغنيمة التي يحوزها المؤمن دون كثير عناء ولا مشقة، فقد قصر نهاره ليمكننا الصيام، وطال ليله ليمكننا القيام.

فإذاً: لا ينبغي أن تفوت مثل هذه الفرص العظيمة، التي تسهل فيها الطاعة على العبد دون أن يغتنمها.

وأما شهر رجب فسمي بهذا الاسم لأنه كان يرجب، يعني: يعظم، ولم يصح في فضل صوم رجب شيء بخصوصه عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه رضي الله تعالى عنهم، لكن مع ذلك نستطيع أن نستدل على فضيلة صيام شهر رجب بهذه العمومات التي وردت في فضيلة الصيام المطلق، فمن صام صياماً مطلقاً في شهر رجب -لا لاعتقاد خصوصية فيه- فإنه بلا شك يحوز بإذن الله هذه الفضيلة، لكن لا على أن يسرد الصوم فيه، ويصومه كله فيشبهه برمضان.

هذا بجانب أن شهر رجب هو من الأشهر الحرم التي قال الله تعالى فيها: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} [التوبة:36]، فإذا كنا نهينا عن ارتكاب المعاصي وظلم الأنفس في الأشهر الحرم فبلا شك أننا مأمورون بالطاعات، يعني: كما أن هذا في جانب المعاصي، كذلك في جانب الطاعات، فهذا مما يفيدنا أن للأشهر الحرم مزيد حرمة، وأنها مختصة بحرمة زائدة، فنحن نهينا عن ظلم أنفسنا في كل وقت، لكن خص ذلك في الأشهر الحرم لما لها عند الله سبحانه وتعالى من الحرمة المضاعفة.

فإذا كان يفترض بنا أن نتهيأ منذ زمن لاستقبال شهر رمضان، فغيرنا يستعد لرمضان من العام إلى العام، فالفنانون والممثلون وهؤلاء الناس يستعدون لرمضان المقبل بمجرد انتهاء رمضان الماضي؛ يستعدون له حتى يقطعوا الطريق إلى سبحانه وتعالى

على عباد الله، ويدأبون سنة كاملة حتى يأتي الشهر القادم، فنحن أولى أن نستعد لاستقبال هذا الشهر العظيم، بمدارسة القرآن الكريم وبمراجعته وحفظه وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، فتعظيم شهر رجب عن طريق الصيام، والتدرب على الصيام والقيام فيه ما أمكن لا شك أنه يعتبر نوعاً من التهيؤ والاستعداد حتى إذا ما أتى شعبان ثم رمضان يكون الإنسان قد أمكنه أن يستغل هذه الفرصة إلى أقصى ما يستطيع، فإن شهر رجب هو مفتاح وبداية أشهر الخير والبركة.

قال أبو بكر البلخي رحمه الله تعالى: شهر رجب شهر الزرع- يعني: الذي توضع فيه البذور- وشهر شعبان شهر السقي للزرع، وشهر رمضان شهر حصاد الزرع.

وعنه قال: مثل شهر رجب مثل الريح، ومثل شعبان مثل الغيث، ومثل رمضان مثل المطر، فشهر رجب هو شهر تأتي فيه الريح، وتنقل السحاب وتحركه إلى البلاد التي ستسقى، ثم شهر شعبان هو شهر الغيث، يعني: تكون السحاب، ثم شهر رمضان هو شهر نزول الخيرات والغيث للعباد، يقول بعض العلماء: بيض صحيفتك السوداء في رجب لصالح العمل المنجي من اللهب شهر حرام أتى من أشهر حرم إذا دعا الله داعٍ فيه لم يخب طوبى لعبد زكا فيه له عمل فكف فيه عن الفحشاء والريب

_____

حكم القول بأن الزلزال ظاهرة طبيعية

السؤال

ما تعليقكم على من يقول: إن الزلزال ظاهرة طبيعية؟

الجواب

لا شك أننا نمر بين وقت وآخر بظروف ليس من العقل ولا من الحكمة أن تمر دون أن نعتبر ونتبصر، خاصة إذا كانت هذه الأشياء هي عبارة عن نذر ورسائل من الله سبحانه وتعالى، فلا شك أن الزلزال الذي حدث أخيراً تحذير من الله سبحانه وتعالى الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، فهو تحذير وتذكير وإنذار للعباد كي يفيقوا، ويتوبوا إلى ربهم عز وجل، وهذه المرة لما لطف الله بنا ولم يحصل مضاعفات كالزلزال الماضي لم نجد كثيراً من الاهتمام بهذا الأمر، بل توافرت الصحف والإعلام على الكلام بأن هذه ظاهرة طبيعية، فهل نعود من جديد لنقول أيضاً: الزلزال ظاهرة طبيعية كما يقول الملاحدة؟ فإذا كانت ظاهرة طبيعية فمن الذي خلقها؟ فطلوع الشمس والقمر ظاهرة طبيعية، لكن أليس وراء هذه الظواهر الطبيعية من يخلقها، ومن يسيرها، ومن يوجهها؟ فينبغي ألا نغرق مع أهل الغفلة في غفلتهم ونطاوعهم في ضلالهم ونردد أمثال هذه المصطلحات، فالطبيعية من الذي طبعها؟ فكل شيء بأمر الله سبحانه وتعالى، وبحوله وقوته، فحتى نستفيد من هذه العبر ينبغي ألا ننصت لكلام هؤلاء الشياطين الذي يلهجون بمثل هذه التعبيرات، ويركز الكلام كله على كم درجة كان الزلزال، وبفضل سياستنا الراشدة كان كذا، وأننا لما فعلنا كذا وكذا لم تحصل خسائر، وما بقي إلا أن ينشد فينا كما أنشد ذلك الشاعر الفاطمي للخليفة الفاطمي، حينما وقع زلزال في مصر فقال له: ما زلزلت مصر لظلم ألم بها ولكن رقصت من عدلكم طرباً.

فنعوذ بالله من هذا الرقص! فلا بد أن نستحضر أن هذا تحذير من الله سبحانه وتعالى، وعلينا أن نتدبر ونكثر من الاستغفار، فربما وجود طائفة قليلة من الصالحين الذين يستغفرون الله سبحانه وتعالى يكون سبباً في تحول عذاب الله تبارك وتعالى عنهم.

الأمر الثاني: الحادث الشديد الذي حصل في إسلام أباد لا شك أنه أيضاً من معالم هذا الزمان الذين نعيشه، والفتن التي نحياها؛ إذ كيف يتجرأ إنسان أياً كان هذا الإنسان فضلاً عن مسلم أن يريق الدماء بهذه الطريقة الموغلة في الفوضى، وانتهاك حرمات الله سبحانه وتعالى؟! ولذلك لا نكاد نتصور أبداً أو نصدق أن رجلاً مسلماً يفعل مثل هذا الفعل، وحتى الآن ما وقفنا على أي دليل قطعي، وما تكلم أحد بأن هناك دليل على وقوع مثل هذه الحوادث على أيدي من ينتسبون إلى الجماعات الإسلامية، فيصعب جداً أن يصدق أن جماعة كذا تفعل مثل هذا الفعل البشع، ويستبعد أن تقوم

هذه الجماعة بإلقاء قنابل بهذه القوة وهذه الضخامة وتنفجر لتصيب من تصيب، وتقتل من تقتل بهذه الطريقة، فلا شك أن هذا لا يجوز بحال من الأحوال، وأن هذا من تسويل الشيطان، وأن هذا لا يمكن أن يصدر من إنسان صاحب دين وخوف من الله سبحانه وتعالى، وأن من فعلوا هذا بلا شك سيلقون الله سبحانه وتعالى بدماء هؤلاء الناس المسلمين الذين قتلوا في هذا الحادث، فتباً لشيطان التأويل، فهل يمكن أن جماعة إسلامية تستحل مثل هذا الفعل بتأويلات شيطانية وبحجج تحصيل بعض المكاسب السياسية؟! فأي مكاسب هذه؟! فإنه يشك شكاً شديداً أن يكون هذا مثل حوادث كثيرة، كحادثة تفجير سيارة الدكتور عمر بن عبد العزيز القرشي في القاهرة الذي أشارت الأصابع بقوة إلى الموساد أنه وراء مثل هذا الفعل، وكذلك ما حصل في حوادث كثيرة قبل ذلك كحادثة سينما أمير أو في أيام إسحاق نافون لما كان رئيساً لإسرائيل فهو الذي أرسل هؤلاء الناس ليفعلوا هذا الفعل؛ حتى ترتفع موجة الهجوم على التيار الإسلامي، واصطنعوا مثل هذه الحوادث من قبل في إحدى دور الخيالة في الإسكندرية، وهي حادثه مشهورة كانت في أواخر الخمسينيات أو أوائل الستينيات.

فالشاهد: أن مثل هذه الأشياء قد عهدناها من هؤلاء الناس لتحقيق مقاصدهم، أما أن يتصور أن المسلمين يقومون بهذا فهذا إن وقع فإلى الله سبحانه وتعالى المشتكى أن تصل الجرأة على اقتحام حرمات الله بمن ينتسبون للإسلام إلى هذه الصورة البشعة.

حكم تزويج البنت نفسها بدون موافقة وليها

السؤال

هذا سؤال وصلني لكن لا أجد طريقة للوصول إلى الشخص الذي أرسل هذا السؤال، فلشدة خطورته ننبه عليه، وهو أن شاباً من الشبان تعرف على فتاة ويبدو أنه تدين منذ قريب، فصار متديناً أو ملتزماً ثم لما تقدم إلى أبيها رفضه أبوها، ويبدو أن أباها رفضه بسبب الدين، وبسبب التزامه، فالسؤال: هل يمكن أن تتزوجه بدون موافقة وليها؟

الجواب

بلغني أن بعض الناس الذين تجرءوا على الفتوى بدون علم فتحوا هذا الباب من الشر، وقالوا للأخ: مادام أن أباها رفض بسبب دينك فلك أن تتزوجها، ومثل هذه القضايا هي في غاية الحساسية وغاية الخطورة؛ لأن الأصل الأصيل والمقطوع به في الشريعة والمطابق لقول النبي صلى الله عليه وسلم بعد كلام الله عز وجل في القرآن الكريم هو: لا نكاح إلا بولي، والأدلة على ذلك كثيرة، فلا يجوز أبداً بحال من الأحوال الزواج بدون ولي، صحيح أن الشريعة احترمت إرادة المرأة، واعتبرت حقها الأدبي في الموافقة على الزوج إذا كانت بالغة، لكن مع احترام إرادتها ليس لها أن تزوج نفسها، بل لا بد أن الذي يلي تزويجها هو وليها الشرعي.

وليس هذا فحسب، بل بجانب سلطة الولي الشرعي في أن يزوجها أو لا يزوجها فإن هذا الولي مطالب بأن ينظر في أن يحترم أيضاً ضوابط ومقاييس الشريعة، لا أن يبحث في هواه هو بعيداً عن مصلحة ابنته وعن أولويات الدين، فإذا حصل منه ذلك، ووجد قضاء شرعي؛ فإن هذه البنت تفزع إلى القاضي فيمكنها من التزويج؛ لأن هذا يعتبر نوعاً من العضل.

أما أننا في مثل هذه القضايا الخطيرة نسمع الكلام من طرف واحد، ولا ننصت إلى كلام الولي نفسه فهذا بلا شك قد يوقعنا في جور وتعدٍ لحدود الله سبحانه وتعالى، فلا بد من التثبت من أشياء كثيرة، ولا ننصح بحال من الأحوال أن تفزع أخت أبداً مهما زين لها هذا الفعل أن تتزوج بدون إذن وليها.

ومثل هذه الفتوى أعتقد أن فيها جرأة على الله سبحانه وتعالى، وجرأة على دين الله، أعني: أن يفتح باب أن البنت تزوج نفسها بهذه الصورة بحجة أن أباها رفض هذا الخاطب؛ لأن الغالب أن الأب يبحث عن مصلحة ابنته، وهي نتيجة أنها تحكم العاطفة

فقط، وليس عندها خبرة في الحياة، ولا معرفة بالناس؛ لأنها لا تجالس الرجال، ولا تعرف طبائع الناس، فهي محصورة عن معرفة ما آل إليه حال الناس وخداعهم.
ثم إن البنت التي تلي تزويج نفسها تشعر بوقاحتها، وأنها قليلة الحياء، فشرع الله سبحانه وتعالى أن يتولى ذلك أبوها، رعاية لحقها؛ لأن الأب كل همه أن يضمن لها الاستقرار بقدر المستطاع، لا أن يكبلها، هذا هو الأصل في الآباء، صحيح أن هناك شواذ لكن القاعدة: أن الأب أدرى الناس بمصلحة ابنته، وأنه ينظر في مصالحها، وأنه أقدر على حسم هذه الأمور منها هي، وأنه لا يريد بها إلا خيراً، هذا هو الأصل وهذه هي القاعدة، فنرجو ألا يسمع ولا ينصت على الإطلاق لأي أحد يفتى بالجرأة في هذا الباب، ثم بعدما يتبعون أهواءهم يفزعون إلى أبي حنيفة ويقولون: إن أبا حنيفة أجاز ذلك، وغير ذلك من الكلام، وليس في هذا إلا مجرد أنه يتشهى بانتقاء الأقوال التي توافق مآربه، فنرجو ألا يفتح هذا الباب هنا في بلادنا أو في أي مدينة أخرى بأي حال من الأحوال حتى لا يصبح الأمر فوضى بحجة أن الأب لا يريد زوجاً متديناً، فهذا صعب أن نحكم عليه أو نصدقه ويحتاج إلى كثير من التحري قبل الكلام في مثل هذه الأمور.

_____

حكم استعمال كلمة (الفكر السلفي)

السؤال

بعض الإخوة يقول: إنه لاحظ في بعض المحاضرات أو في كلام بعض إخواننا من الإخوة الأفاضل استعمال كلمة: (الفكر السلفي) فما حكم هذا الاستعمال؟

الجواب

السلفية ليست فكراً، بمعنى: أنها ليست منهجاً بشرياً أو نتاج إعمال الفكر البشري؛ لأن السلفية هي منهاج اتباع القرآن والسنة طبق فهم السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم، فكلمة الفكر هذه نطلقها على مجالات أخرى، أما عند التعبير على منهج أهل السنة والجماعة، أو المنهج السلفي، أو منهج الفرقة الناجية؛ فلا ينبغي استعمال كلمة الفكر؛ لأنها بذلك تستوي مع الفكر البشري، وكأنه نوع من النتاج البشري، وهذا فيه الخطأ وفيه الصواب بخلاف أسس وأصول المنهج السلفية.
والله أعلم.
وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.
والحمد لله رب العالمين.

_____